محمد برادة

من أجل النسيان

لعبة النسيان

امرأة النسيان

روايتان

دار الشروق

SCANNED BY JAMAL HATMAL
أبو عبدو البغل

من أجل النسيان

لوحة جوستاف كليمت

لعبة النسيان: الطبعة الأولى ١٩٨٧
امرأة النسيان: الطبعة الأولى ٢٠٠٤

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٤٢٨٤
ISBN 977-09-2050-9

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٢٧٥٦٧ (٢٠٢)+
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

تصميم الغلاف للفنان عمرو الكفراوي

محمد برادة

من أجل النسيان

لعبة النسيان

امرأة النسيان

روايتان

دار الشروق

المحتويات

لعبة النسيان ٧
امرأة النسيان ١٧٧
من أجل النسيان ٢٩٧

لعبة النسيان

إلى ليلى

عن زمن يمتلكنا أكثر مما نمتلكه

* * *

إلى الخمليشي، الهرادي، الخوري، بوزفور:

«.. فَتَوَهَّمْ كأس الدر والياقوت أو الفضة في صفاء ذلك، في بنانها الكامل، وقد اقتربت إليك ضاحكة بحسن ثغرها، وسطع نور بنانها في الشراب مع نور وجهها ونحرها، وأنت مقابلها فضحكت أيضا إليها، فاجتمع في الكأس التي في بنانها نورك مع نورها مع نور الكأس ونور الشراب، ونور وجهها، ونور نحرها ونور ثغرها ونور الجنان...»

المحاسبي
(كتاب التوهم)

في البدء كانت الأم

مشروع بداية أول

«منذ الآن لن أراها، قلت في نفسي وهم يضعون جسمها الصغير المكفن داخل حفرة القبر ويُهيلون عليها التراب، وأصوات الفَقْيَة ترتفع فجأة عن سابق مستواها لتصاحب العملية الأخيرة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ...﴾.

ومن ورائي كان زوج أختي يهمس لي: انتقلتْ إلى دار الحق وبقينا في دار الباطل...».

مشروع بداية ثان

«يصعب أن نتحدث عن الأم. كل أم تملأ فراغات متعددة. تنتصب شجرة وارفة الظل نلجأ إليها نعاملها بمنطق مغاير لما نتعامل به مع الآخرين. حتى حين تقسو تظل في أعيننا ذلك الطائر النادر والواحة الظليلة...».

ثم صارت «البداية» هكذا: «يكاد يكون زقاقا لولا أنه طريق سالكة..

يكاد يكون زقاقا لولا أنه طريق سالكة تُفضي بك إلى باب مولاي إدريس، والنجارين، والرصيف، والعطارين... وباب الدار الكبير لا يُواجهك، تجده على يمينك إذا كنت نازلا من «كرنيز»، أو على يسارك إذا أتيت من «سيدي موسى». نصفُه الأعلى قطعة واحدة مرصعة بمسامير غليظة، والنصف الأسفل الذي ينفتح، له خرصة كبيرة ويمتد نصف متر إلى ما تحت مستوى الزقاق، وعلى الداخل أن يحني رأسه ويخطو خطوتين، ثم ينزل الدرج ويخطو قبل أن يواجهه الباب الثاني، شبيه الأول غير أن خَشَبَهُ أقل تُخُونة ودرجهُ أقل علوّا، ثم يخطو ثلاث خطوات ليقطع السطوان الثاني قبل أن يرتاد الباب الثالث ذا الخشب النحيل، ويجتاز العتبة لتُطالعه السواري، وفناء الدار، والخصّة التي ينفر منها الماء في دفقات متكسرة. ثلاث غرف كبيرة ممتدة على طول ثلاثة أضلاع مُربّع وسط الدار الواسع. وعلى الضلع الرابع، غرفة أصغر بدون دفتين يسمونها «بَرطال» أي الطائر الصغير، أثاثها خفيف وتخصّص للجلسات العابرة وللحظات اللّغو بين نساء الدار.

في هذه الدار أشياء كثيرة وأُسَر متعددة: اثنتان تسكنان في السُّفلي، وواحدة في الصقلبية، واثنتان في الفُوقي، وواحدة في «المصرية»... وفيها السطح الفسيح ملتقى نسوة البيوت المتجاورة ومسرح غراميات الأولاد والبنات، خاصة خلال سهراتهم أيام حراسة «الخليع» ليلا إلى أن يجف... وفيها «الرّوا» إصطبل خيل مالكي البيت أيام العزّ، قبل أن يؤجروا جزءا منه... وفيها الطارمة الخشبية داخل كل غرفة، والحمّام المهجور الذي أصبحت تسكنه الأشباح ويُخوّف به الأطفال...

في هذه الدار أشياء كثيرة، لكن أهم ما فيها الأم. لا أحد يسميها الأم، إلاّ أنها تملأ الحيّز كله، وتستقطب الحوارات جميعها، وترد على المتحدثات بصوت مرتفع في السفلي والفوقي والصقلبية. لا أحد يسميها الأم. يدعونها «لالّة الغالية» ولكنهم يُقِرُّون بينهم وبين أنفسهم بأنها «الأم». وهي لا تكفّ عن الحركة: تجلو الأواني، تسوق الطاجين، تغسل الزليج وتُرَفُو الثياب.. ويكون العصر موعدا لزيارة الأهل والأقارب، أو الجلوس في الفسحة المخصصة للنساء بضريح مولاي إدريس.

تسير مخترقة الأزقة الغاطسة في فسيفساء العتمة والضوء، بجلبابها ووجهها المدور الصبوح خلف اللثام. تسير متمهلة، متابعة الحركة الدائبة والأصوات المالئة للفضاء الضاج.. ومن حين لآخر، تلتقي أحدا تعرفه، امرأة أو رجلا، فيكون التوقف للسؤال عن الأهل والأحوال. هذه الخرجات ضرورية، تُتيح للالّة الغالية أن توثّق الأواصر وتطفئ غلتها في التواصل والتوادد. كأنها لعبة مسلية، متفق عليها داخل فضاء فاس القديمة، في ظلّ توازن ضمني بين الرجل والمرأة يسمح لها أن تكون حاضرة لا يُستغنَى عنها، كالملح للطعام، ولكن عليها أن تظل من وراء حجاب، لأن قيم العشيرة المتوارثة تقضي بذلك.

لِنُطلّ على لالّة الغالية، هذا الصباح، وهي في الدار الكبيرة. تضع «البقرج» على النافخ وتشرع في تحضير الصينية: أتاي الساعة الحادية عشرة شبه مقدس. استراحة وحديث، مزاح وشُجون. تتجه حاملة الصينية إلى البرطال. هناك الجدّة العجوز متمددة على لِحَاف،

لا تقوى على الحركة لكنها تتابع كل ما يجري في الدار، وتشارك بالحديث. تقول لالة الغالية:

ـ الدَّرَاري تْعَطلو. فاتت لَحْدَاشَرْ.. عْنْدَكْ يكونو مشَاوْ يْلَعْبو الكرة ونْسَوْ لي الخبز فالْفَرّان؟

الجدّة ترد:

ـ دَابَا وْهُمَا جَايْ.

ترفع لالّة الغالية صوتها لتنادي زوجة أخيها من الدّوِيْرِية:

ـ يا «فاختة» أجي بَعْدا نشربو كاسْ دا أتاي، هاذ الشغل ما تَيْتْقاضى.

تطل رقية من الصقلية وتقول:

ـ الله يطعمنا حْلاَلْ.

ـ مرحبا بك.. يا مالين الفوقي هَبْطو تشربو أتايْ، الحمد لله السكر ما بْقاشي بِالْبُون. الحرب تْسالاتْ.

تَلْتَئِمُ الدائرة شيئًا فشيئًا حول الجدة ولالّة الغالية، ويدور الحديث في الخاوي والعامر، في أخبار الصحة وأخبار الأقارب، ومصائب الوقت، وشيطنة الأولاد والبنات...

لكن نساء الدار، هذه المرة، يَحُمْنَ حول موضوع يَمسُّهنَّ جميعًا، وهو سفر لالّة الغالية إلى الرباط لتعيش مع ابنتها التي ستتزوج هناك. يَسْألْنَها فتجيب:

ـ إيوا بنت وحدة هي، وتيخصني ناخذ بيديها.. وساعة ساعة أنا
معاكم.

ـ لا، ألالة الغالية، ما عملناش معك هكذا؛ حتى للهروب ما قدينا
عليه. حنا ما نستغناوشي بك...

ـ وربي يخليك ألالة رقية.

يصل الولدان، أكبرهما يحمل وَصْلَة الخبز فوق رأسه، والأصغر
يحضن محفظتين صغيرتين. تبدأ النساء في تقبيلهما. تحتضن لالة
الغالية الهادي وتُجلسه فوق ركبتيها وهي تقول:

ـ شْكُونْ يا خيتي عَنْدُو ولد غْزَالْ بْحال ولدي؟

تقول فاختة مشاكسة:

ـ خسارتو زقيوق بحالو بحال بُوسَلُوقَانْ.

ـ ما خَصَّك ولا وَاتَاكْ.. هاذا الزين الفاسي الحُرْ تُقَبِّل الجدة
الطايع وتقول:

ـ ها ولدي أنا؛ عاقل ورزين. الهادي مْفَشَّش وطايَح على جْنَاب
الوصلة.

تردّ الأم:

ـ هو ولد حْبيبُو. يخليلُو ربي حبيبو اللي تَيْفششو.

تُقاطعهن رقية:

ـ إيوا لالّة؛ قومو نكملو اشْغالنا، ما بْقى للرجال غير يدخلو.

تعود الحركة إلى الدار، وتختلط الكلمات بأغاني المذياع، وبأصوات الحمالين وأصحاب الحمير الذين تتناهى أصواتُهم عبر الأبواب الثلاثة المفتوحة:

- بَلاَكْ، اسمع بَلاَكْ.

الولدان في السطوان يتقاذفان كرة الشراويط الملفوفة في جورب؛ ومن خلال الشباك الحديدي ذي المربعات الصغيرة المغطي لسطح الدار، تصل أشعة الشمس التي بدأت تَسْتَوي عمودية في القبة الزرقاء. والخطاطيف تواصل ذهابها وإيابها بانية فوق رتاج كل دفة، عُشّا وارفا.

من جديد تبدو الدار وكأنها لا تمتلئ إلّا بالأم لالّة الغالية. وهي، في لحظات صَمْتِها وتفكيرها، تَغُور إلى أعماق الدار، وتمتزج بزليجها وسواريها، تنغرس في حمّامها المهجور واصطبلها وَرَدهاتها: ظلّا حاميا للدّار تصير.

حين توفي زوج لالّة الغالية، ترك لها بنتا في العاشرة وطفلين أحدهما في الرابعة، والأصغر في الثانية من عمره. ما تركَهُ من متاع قليل يُدِرُّ عليها ما تَعُول به الأولاد، وأخوها «الطيب» يَنُوبُ عنها في قَبض كراء البيت والدكان. الآن، الولدان يذهبان إلى مدرسة حرة، والبنت لم تتعلم سوى الطبخ والنفخ، والطرز، والحشمة والأدب.

أخوها، الطيب، عاقر، توفيت زوجته منذ سنة، وتزوج للمرة الثانية من فاختة. تحب لالّة الغالية أخاها «سيدْ الطيب» كما تدعوه كثيرا؛

لذلك قررت أن تترك له الهادي ليربيه ويستأنس به. نَصَحها ناس جواد بأن تزوج بنتها «نجية» لشاب سُوسيّ يعمل نادلا بأحد مقاهي الرباط. وهي تريد السّتر لابنتها وتعلق كل الأمل على ولدَيْها، فلم يجد مناصا من أن ترحل إلى الرباط صحبة ابنها الطايع لتسهر على ابنتها وتساعدها في تدبير شئون البيت.

هذه الدار، بدون لالّة الغالية، ستفقد نكهتها. والنساء المتحلقات حولها، وقبل سفرها بشهرين، يعرفن ذلك جيدا. يستحضرنَ المشاهد كلها التي تلألأت فيها لالّة الغالية: في الأفراح، عند تقطير الزهر، عندما تمرض واحدة منهن، عند مخاصمتهن لأزواجهن... لالّة الغالية تأخذ المبادرة، تساعد وتقدم الهدايا، تضحك وتروي النوادر، تستدعي الفقيهات لترتيل القرآن والأمداح النبوية، تحكي ما تشاهده عند بعض أقاربها الذين اغتنوا وسكنوا في المدينة الجديدة، أو بالقرب من طريق إيمُوزار... الحضور المُشِعُّ من شخصيتها يُضفي عليها صفةَ الجِذْر الممتدّ إلى خارج هذه الدار العتيقة المنغرسة في زقاق عميق من أزقة فاس. كان زوجها يُتاجر في الكتّان والملف، وكان ربحه وفيرا، ولكنه كان ينفق كثيرا في الأكل والثياب، يحب أن يرتدي كل أسبوع جلبابا وسلهاما، يتعطر بأحسن الطيوب، ويكثر من الولائم والأفراح. تزوجته لالّة الغالية وهي صغيرة السن. كان أبوها قد نزح إلى فاس من ناحية قريبة، واشتهر بجودة الخُضر والغلة التي كان يبيعها في الرصيف، كما اشتهر بتقْواه واستقامته... وزوجها من أصل أندلسي، استوطنت عائلته فاس من قديم.

عرفناها فألِفناها. أحْبَبْنا وجهها الممتلئ المدوّر، بسمتها الذكية، واهتمامها بالناس. تحبّ أن تُسعِف. تُواسي وتنصح. تخاف الزمن أكثر مما تخاف البشر. موت زوجها قبل الخمسين أذْهلها. أصبح يلازمها شعور بأنها بيت بلا سقف. لكنها صَبور وعنيدة في صبرها. تعلمت أن تقارع الأيام وأن تستعدّ للمفاجآت. كريمة مع الآخرين، إلّا أنها متقشفة على نفسها. تحثّ ولديها على العمل، وخلال العطل المدرسية تدفعهما إلى بيع الفقّوس والحلوى في باب الدار لأطفال الحومة. تُردّد على مسامعنا:

- اليتامى تِيْخَصّ يكون قلبهم حارّ.

رفضت أن تتزوج مرة ثانية. أصرت على أن تربي بنتها وولديها. عندما تغادر الدار، لمناسبة ما، نُحس الكآبة والكدر. يَنْزِل علينا الضّيْم. لالّة الغالية تملأ جنبات الدار وتُسبغ على الساعات مذاقا خاصا. تعرف أكثر منا، ولكنها تؤثر أن تُثير كلماتنا المحبوسة في حلوقنا. نحكي لها أسرارنا وما يمُضّنا في علاقاتنا مع أزواجنا، فنجد عندها ما يخفف ويُواسي. شيء ما في قلب هذه المرأة يشد الناس إليها. حتى الزائرات من أقاربنا يُحببْنها، فتصير نقطة مضيئة في ذكرياتهن ويسألن عنها باستمرار.

في لحظات صمتها تُجللها كآبة عميقة غير أنها لا تتركنا نحس بها. ما يُغيظنا أحيانا هو حبها المفرط لأخيها الأكبر الطيب. تلهج بِذِكْره، وتتحمل كل الإهانات من زوجته. لا تسأله حسابا عن كراءاتها.

تأخذ ما يمدُّه لها. تحدثه باحترام ولا تحب أن يتحدث عنه أحد بسوء. وعندما تُلمّحُ واحدة منا إلى مغامرات الطيب وَوُلوعِهِ بالنّزاهة والاستماع إلى ألف ليلة وليلة، والانتشاء بأوتار العود ورشفات الكؤوس، تتنهد وتمسك عن الكلام.

هو أيضًا يحبها. تَعَاطُفُهما يُظَلّل الدار، ويوشّج الروابط بين سكانها. الألفة والمودة تَنْزرع في الأفئدة عندما نراها مُشخّصةً أمامنا.

لالّة الغالية: اللَّطافة والظرافة. مَسْرّاوة. السّر ولِمَّن عطَاهُ الله... نستفيق على صوتها ونحن في الفراش لا نزال نتكسّل بعد أن غادَرَنا الأزواج. تصيح بنا:

ـ ألعَيالاتْ، بَارَكا ما تْحَكُّو ما بين فْخادكم... الشمس رَاها فْوَسْط الدار.

نبتسم ونستعيد دفء الليلة الماضية. نفكر أنها باتت في «شُوْنْ» ولديْها، وأنها استيقظت لتُصلي الفجر وتسعف أمها على قضاء حاجتها. من حين لآخر، تخرج لتشتري السفنج، وتُعِدّ الفطور ثم تُنادينا.. وفي بعض الأيام تعجن رغايف بإدام الخليع... كنا شيئًا أساسيًّا في حياتها، ونحس دائمًا أننا لا نعرف كيف نعبر لها عن حبنا. جعلتنا نتعود على كرمها وتتفيأ ظلال أمومتها طوال إقامتها معنا. كأن الدار الكبيرة كانت مستكفية بذاتها بالرغم مما كان يقع خارجها وتسلل أصدائه إلينا.

تعتيم

أقول الآن: الأم، كالموت، وعلى عكس الأب، لا يُفكَّرُ فيها إلّا من خلال الافتقاد.

لكنني أحسك حاضرةً ومكتسحة. تلازمني مشاهد الذكريات، وأقطع حوارًا معك لأبدأه من جديد، ثم تنثال الاستحضارات دفعة واحدة فلا تترك لي مجالًا لترتيب الأفكار، وضبط المشاعر، والتمييز بين الأزمنة والأمكنة. فضاء شاسع: متناسل، يَضُمُّنا. ووجهك، أينما لاح، يستحثني الزهو ويوقظ الكوامن، فأشتهي كل العالم مرة واحدة وتتَبَجسُ الرغبة الملتبسة فأقول إنني أبدأ الحياة.

لا نخسر شيئًا إذ نجهل الأب. يمكن أن نولد في غيبته، ويمكن أن نبتدع أبًا ونطمئن إليه. لكن الأم لا تُبْتَدَع: تخلقنا وتجعل كل صورة نتخيلها عنها ضئيلة وهشّة أمام صورتها المُنْحَفِرة في الدم والشهوة والخلايا...

أذكر الطفولة فأذكر الشباب. وأذكر المراهقة فأذكر مَصَّاتِ الرضاع، وملاسة حلمة الأم وحلمة العشيقة. حتى عندما كنتُ بعيدًا عنكِ ـ هل حقًّا أنتِ الآن بعيدة؟ ـ كنتُ أفترض أنك جزء مني لن يغيب إلا معي. وأشياء كثيرة لا أقولها لكِ لأنني أفترض أنك تعرفينها، ثم أكتشف وقد غِبْتِ ـ هل أنتِ حاضرة؟ ـ أنني لم أقل الحبَّ والهواجس والاستيهامات التي لن يفهمها ويغفرها أحد سواكِ.

أجلس الآن ـ هل تذكرين؟ ـ على حافة اللّحاف فوق السطح،

...ات ونساء أخريات تجلسن منهمكات في حديث طويل. نسائم ...حرية من هذه المدينة الشاطئية تُنعش ذكرياتنا عن المدينة العريقة التي قد تركتُها بدوري. آخر أيام شعبان والمدافع ستعلن بعد قليل ... شهر رمضان. أنا الآن أكثر من طفلك المدلّل. ستقولين لي: ...ب رسالة إلى خالك لتُبارك له في حلول هذا الشهر المعظم، ولا ... أن تسلم على أحبابنا سكان الدار «كل واحد باسمه».

أكتب ويتلعثم القلم بين أصابعي. زادي من الكلمات لا يفي. ...ت بدأت بقراءة قصص كامل الكيلاني، ولعبة اختزان اللغة الجميلة «المعبرة» تستهويني، والتراكُب بين الكلمات والعلامات ...خذ طريقهُ.. فأنا أحمل ما التقطته الذاكرة أثناء القراءة الجماعية لصفحات من ألف ليلة وليلة صحبة خالي بضاحية «باب الكيسة»، وأصحابه متحلقون حول طالب من جامعة القرويين. يقرأ لهم بصوت مرتفع. أمد رأسي وأصيخ معتزا بهذا الامتياز يُعطى لي أنا الطفل بين الكبار. ضاعت الكلمات وبقيت الصور الأسطورية الهلامية: بقي الطّيْفان الفاتنان، زبيدة (آه! كم ناجيتها) والرشيد. وهذه الرسالة أكبر امتحان يواجهني، فأنا أدرك أن هناك كلمات مناسبة للمعنى، ولكنني أتعب عبثا في البحث عنها في ثنايا سجلّ الذاكرة الفتية.. وأعلم أن خَيبي وأهل الدار الكبيرة ينتظرون أن يقرءوا ما يجعلني مُتغيِّرا، ناضجا، بعد رحيلنا إلى هذه المدينة الشاطئية.

أقرأ عليك ما كتبته فتُلحّين عليّ لأضيف: «نحن بخير ولا يخصنا إلّا النظر في وجهكم العزيز»، وأعترض ثم أذعن. وصديقاتك الجديدات يُهنئنك على ما كتبه ابنك النجيب. لكن ما كتبته ينبش

صورا أخرى ويشدني إلى ما لم تُلامسه الكلمات: الدار العتيقة والسطح والدرب، وبنات الجيران، ولالّة ربيعة ترقص دوما في مخيلتي بعينيْها اللوزيتين الضاحكتين، طيفا ضعيفا لزبيدة زوجة الرشيد المنقوشة برغائب مشتعلة في منطقة الشهوة والحب والتعلق بالحياة.

ما لم تلامسه الكلمات أيضا، ذلك الحنين الخفي، كالوَجَع الساكن، إلى خالي سيد الطيب وإلى أُلفته. لم أكن أتصور أنني أستطيع أن أعيش بعيدا عنه. لكنك، وحدك، ملأت الحيز الموحش في الأعماق، فانتقلت إلى أُلفتك عبر لعبة الحنان والقساوة. كنت تفتحين عيني على فضاء التحول في المدينة الشاطئية، وعلى الطفولة أن تنتهي قبل أن تستوفي زمنها لأواجه معك، وبرفقة الطايع، فترة الفقر والتحايل على العيش... ذلك الواقع الذي لم أكن أحسه بين حنايا مدينتنا العتيقة وفي ظلال حنان الخال الطيب.

ما لم تلامسه الكلمات كثير. لكنني أحس الآن أنها كانت بداية لنضج مبكر، لرؤية الأشياء عبر مسافة الكلمات.

هل كانت تجربة كتابة تلك الرسالة بداية أيضًا لابتعادي عنك وعن الآخرين؟ أحس بالعجز عن القول لأن بريق الكلمات يجذبني إلى كوكب مضيء، أخطو فوقه فأحسُّني أغوص. أتحرك ثم أجرى لاهثًا لألْمَلِمَ «كُلّ» الكلمات وتظل الأشياء غامضة متأبية، فأهرب منها ولا أطال انتهاك حُرمة ما يبدو باستمرار مقدسًا.

سيدْ الطَيّب

يستيقظ باكرا كل يوم. يرتدي جلبابا شفافا في الصيف، وجلبابين صوفيين خلال فصل الشتاء. يحرص على ضبط حركاته حتى لا يوقظ سكان الدار الكبيرة. يمرّ على مسجد مولاي إدريس ليصلي الفجر ويرتل ما تيسر من الذكر الحكيم قبل أن يلتحق بـ«الدّرّاز». وَرِثَ صنعة الحايك عن أبيه. وعمله لا يخضع للمقاييس المتداولة، بل لحرصه المتأصّل على أن ينتج أكثر ما يمكن من الأمتار وبالجودة المعهودة. علاقة داخلية تشدّه إلى «لَمْرَمَة» و«النّزق»، وإلى خيوط الصّابْرا وألوانها: أحمر، أزرق، أخضر، أصفر... تتشابك في اتساق وألفة لتنسج قماشا زاهي الألوان سيتلألأ فوق رءوس النساء لَعْرُوبيّات وخصورهن. ألوان قوية هي امتداد لألوان الأشجار والزهور على ضفاف «واد فاس» الخصبة.

داخل الدراز، لا تهدأ الأيدي والأرجل عن الحركة، كما لا تكفّ الألسنة عن الكلام والتعليق والضحك. خلية واحدة من المعلمين والمتعلمين، وسباق تلقائي ضد عقارب الساعة. والطيب (سيدْ الطيب، كما ينادونه) محور هذه الخلية، يحترمونه ويحبونه. وهو،

بقامته المديدة وجسده الممتلىء يقود الدراز في معركته اليومية ومنافسته للدرازات الأخرى: بين الشُّراة لا تُكْتَسَبُ السمعة إلا بالعمل المتقَن، والتنويع في التزويق وزواج الألوان.

عند أذان الظهر، يتوقفون عن العمل ويذهب أحد المتعلمين إلى البيت ليأتي بالغداء. بعد الصـلاة، يتحلقون ليأكلوا جماعة مواصلين الحديث.

كانت أحداث الحرب تستأثر باهتمامهم، فتختلط الزوايا واللقطات ابتداء من استعمال التمر عِوَضَ السكر لتناول الشاي، إلى تَنَاقُل الإعجاب بالألمان وهتلر وبالعلامة ذات الزوايا القائمة الأربع يرسمها الأطفال على جدران الأزقة: «.. الألمان أقوياء سيُخلصوننا من الفرنسيين وطغيانهم، وسيعيدون إلينا حريتنا، فيتحقق استقلالنا...».

لكن الموضوع الأثير لأصحاب الدراز، هو الاحتفال بالربيع والخروج إلى «النزاهة» بضواحي المدينة، والاستماع إلى الطرب وقصص ألف ليلة، وأكل ما لذَّ وطاب.. عادة مقدسة يتمُّ الإعداد لها قبل الأوان، ويُستدعى لها الأصدقاء، وتكون مناسبة للابتعاد عن الدراز المعتم المحبوس بين جدران ضيقة مُتداعية. تستقبلهم الجنانات المبثوثة على حافة أسوار فاس وبوّاباتها، ويغوصون في الخُضْرة مُنتشين بتغريدات الحَسّاسين والمقانين، وبنقرات العود وتأوهات المواويل.. تضحك النفس وتَنْتَعِشُ بعد الكَدِّ والعمل. والطيب في أوج البهجة بلقاء الربيع. يخلع العذار وهو يستمع إلى قارئ ألف ليلة:

.. «ما عندي ما نقول.. الله يبارك في عمر لالّة.. ڤي بْغَاتْ.. إيلا بُوك الزّاتَخ.. لالّة زُبيدة يا الاحْبابْ.. أنا عَبْدَ الزّين...».

لكن النّهِم للحياة وللمتعة يوازيه في نفس الطيب تعلق بالأمداح النبوية وبالأشراف ومعاشرتهم. يحضر كثيرًا من ليالي الأمداح ويرتل مع جوقة المنشدين. لا يتعب من التّحْيِيرَة والجذبة.. هائمًا يبدو بالطّلعة السنيَّة صوته الممتلئ ورأسه الحليق يُضْفِيان عليه هالةً أسرة. وليلةَ عُرسه الأول (كانت زوجته من أسرة الشرفاء) صَدَحتْ أصوات المادحين والمرتلين تتناوبُ مع مقاطع الموسيقى الأندلسية. كان سيد الطيب في جلبابه الأبيض مُوَرَّدًا، زاهيًا، مُنجذبًا إلى حلقة الأمداح، مُتغاضيًا عن الأصول، رافعًا صوته بالغناء معهم: «عِشْقِي بِك مُؤبّد...». هل كان يعرف تلك التي سيتزوجها الليلة؟

جميلة كانت في بياضها الحليبي، بشعرها الفاحم وابتسامتها الطّفْلِيَّة. نُعومة متناهية. تمثال مُتناسق حتى كأنه يَنْتسب إلى العالم الآخر. سعيدًا كان خلال أيام العرس السبعة ثم خلال السنتَيْن اللتيْن عاشهما مع عروسه قبل أن تنطفئ فجأة فيما يُشبه الومض.

بكى الطيب بصوته الجهوري ولحيته المشذبة وهيكله الفارع. رجُلٌ يبكي وسط الجنازة غير مُبالٍ. تفجّرَ دون أن يُثنيه تصبير أو مواساة. ولن يحكي أبدًا لأحد عن تجربة حبه مع عروسه الراحلة.

لم يكن يعرف أول الأمر ما إذا كان هو العاقر أم زوجته. فَبَعْدَ مرور سنة على زواجهما، احتضنَ ابن أخته وأدمجه في حياته الخاصة. أضحى «الهادي» الطفل المدلل. وعندما رحلت لالّة الغالية إلى الرباط لتسكن مع ابنتها، احتفظ هو بالهادي. كان يعيش في نشوة

الاكتمال بين زوجته التي أحبت ابن أخته حبًا صميميًا، وبين عمله في الدراز وسهراته في المساجد وحلقات ترتيل الأمداح...

تدخلُ الحربُ عامها الثالث والزوجة ـ الملاك تختفي، وتُنذر الأحوال بالبؤس والنّكد. إلا أن سيدُ الطيب، الجذع الراسخ في تُربة المدينة العتيقة، لم يَنكسر. لم يترك الرياح تَقْتلع عروقه المتواصلة مع هذا العالم المحيط به، المتغلغل في أعماقه، وأمُّه، الجدة، تهمس له ذات مساء بأن عليه أن يتزوّج من جديد.

ها إن العرس يملأ الدار ثانيةً بأنواره والبهجة كابيةٌ ملامحها والزوجة الثانية من عائلة متوسطة ومن صِنْف آخر: العينان زرقاوان متحركتان، والشعر أشقر، والبشرة البيضاء مكسوة بطبقة من النَّمَش، والشخصية فائرة متدفقة حتى انعدام النعومة. كل شيء كان سيستعيد طعمه لولا أن الطفل الهادي أعلن الحرب على المرأة التي جاءت لتَحتَلّ، إلى جانبه وجانب خاله في الفراش، موضع العروس الراحلة. والطيب موزّع، حائر بين الزوجة الجديدة القوية، وبين الهادي المالئ لفراغ البُنوّة، والحامل لرائحة الطيف المندثر. لا يستطيع أن يضربه وهو يستمع إلى ما تنقله إليه زوجته من هجاء مُرّ يتدفق به لسان الهادي عندما يتصدى لها ويتحدّى أوامرها ويَتَهَزّأ عليها أمام نساء الدار. يهدئ الطيب زوجته ويَعِدُها أنه سيؤدبه، ثم يستعطف الطفل عندما يخلو إليه ويقدم له الفلوس والهدايا مقابل إعلان السلام مع الزوجة الجديدة... لعبةٌ لن تنتهي إلّا بترحيل الهادي إلى الرباط ليعيش مع أمه.

وقبل ذلك، أوعزت الحرب لابن الأخت الكبيرة، الذي قطع أشواطًا

... تحصيل العلم بجامعة القرويين، أن يتحول إلى التجارة مُبتدئًا ... الكتّان والأقمشة من البيضاء إلى فاس، ليكسب، بسرعة، مالًا ...ض به ما ضاع لوالده من ثروة في السينغال. عرض ابن الأخت على ... الطيب أن يساعده فيسافر معه هو والطفل الهادي لينقلوا الكتّان ...فا حول أجسادهم. وانضاف إليهم أطفال آخرون من العائلة. كان ... الأخت يُسَمِّطُهم بالقماش والكتان ويُمَدِّدُهم على رفوف الحقائب ...رجة الرابعة للقطار في رحلاته الليلية. كان الكثيرون يفعلون نفس ...، وتواطؤٌ ضمني يحمي اللعبة ويفوّت على المراقب اكتشافها. ...لات مربحة ومسلية ستكون مُقفزًا ينطلق منه ابن الأخت إلى دنيا ... والمتاجرة، ولا يلبث أن يغادر المدينة القديمة إلى ضواحيها ...هوة بثرائها الطارئ.. ويظل سكان الدار يرددون بحسرة واعتزاز ...: «ربّي فتّح عليه.. بْنَى الفيلا في طريق إيموازر».

أما الطيب فسيظل، بعد الحرب، داخل الدراز، داخل البيت العتيق ...ير، داخل أزقة المدينة المتربة المعتمة المتواصلة كالشرايين، ...جددة عبر تناسل سرّيّ متلاحق... ينخر الزمن عوده خلسة، لكنه ... على العمل والمسجد ولعب الكارطة، وانتظار زيارات الهادي ...نغمر في حياة أخرى بالرباط ثم خارج الحدود.

واحتداد الطّبع اندثر، وترسبت في أعماقه دماثة متناهية، مروءة ...تزجة بدم عروقه كأنه لم يعرف سَوْرَة الثّروة وصهيل الشهوة. ...لمة مُندَسّة بين زليج هذا البيت صار، وقِبلةً لكل القاطنين. يعرف أنه عاقر، غير أن حبّه للزوجة الثانية، من خلال الألفة والتعوّد، أصبح أقوى من كل العواصف.

منطقة ظليلة هو، داخل هذا البيت الكبير.. يعيش الأفراح والملمَّات بقلب يَسَعُ كل شيء، ولا يتعلق بغير الوجود الكُلّي المعْرِض، مسبقًا، عن الآني الزّائل.

إضـــاءة

أحْبَبْنَاهُ أول الأمر من خلال صوته القوي ذي النبرة المقتحمة للنفس. يتحدث سيدُ الطيب دائمًا بصوت مرتفع. نسمعه في غُرفنا، وتَصِلنا فكاهتُه وتعليقاته الطريفة. مع الأيام، وعندما توطدت الوشائج بأخته لالّة الغالية، أصبحنا نعتبره أخًا أكبر، يُجالسنا أحيانًا ويُشاكِسُنا، لكنه دائمًا يحترمنا. مثالٌ للصواب والأدب، يستقْصي أخبارنا وأخبار عائلاتنا. ينصح ويُوجِّه. أزواجنا أيضًا يحبونه. يَسْتَدْعيهم ويَحْتَفي بهم. أصبح هو ولالّة الغالية، قبل أن تغادرنا، محور البيت الكبير. عِشنا فرحة زواجه الأول، وأمَضَّنا غيابُ العروس الناعمة الرقيقة. كأنما تغير شيء بأعماقه. لكنه حاضر دائمًا. يتحدث ويَحْدبُ على أهل البيت.

بعد زواجه الثاني، انحسرتْ حميميّة العلاقات قليلًا. إلّا أن أهل الدار سرعان ما صهروا الزوجة الجديدة في طقوسهم اليومية. التعاطف يطوي كل النتوءات.

رحلت لالّة الغالية إلى الرباط وصحبتْ معها ابنها الأكبر «الطايع» وتركتْ الهادي يعيشُ مع خاله سيد الطيب. لم نر مثل حبه لذلك الطفل النحيل، العنيف الحركة واللّسان. زوجته الأولى كانت أيضًا تُدَلِّله وتعبده. بعد موتها أعْلَنَ الهادي الحرب على امرأة خاله الثانية.. مشهد يكاد يتكرر كل يوم:

بعود الهادي من المدرسة في الحادية عشرة، تُقدم له زوجة خاله الأم حليب وقطعة غُرِيبّة. يطالب بالمزيد محتدًّا. ترفض أن تُلبي طلبه إلّا إذا بَاسَها. يَنفلتُ إلى الباب وهو يصيح:

- بعْدِي منّي أهادْ عْيُون القطة.

ترد عليه:

- كِيْبَّك وَخْلاَدَارك أبو سْلُوَفان. دابا تْشُوف؛ والله وَقْبَضْتك حتى نْفَك. بْرْبْشِي وقَّرب لَهْنَا.

- أعْيْنِينْ القطة، أشْعْكَاكَة النَّصَارى.

تنْقْهِرُ المسكينة وتتوجّه إلينا بالحديث:

- شْهْدوا بْعْدَا على هاذ السّلْكُوط.. إيلا جا حبيبُو قُولُولُو على هاد الشيء اللي تيعمل معايا. تيقول أنا اللي تَنْظْلْمُو...

لم يكن سيد الطيب يغضب إلّا عندما يتعلق الأمر بالهادي. كان يحبه ويحب أخته من خلاله، ولم يكن يطيق العيش بدونه. نحن اللائي أقنعنا لالّة الغالية بأن تستعيد ابنها حتى لا تظل حياة الطيب جحيما مستمرا. فكانت هذه انكسارة أخرى انضافت إلى جرح سيد الطيب العميق المتولّد من اختفاء زوجته الأولى.

أزواجنا وأولادنا يحبونه ويعجبون بشخصيته وحسن معاملته للجيران. أيضا، وهذا ما كانوا يشيرون إليه من وراء حجاب، كانوا مُعجبين بمغامراته وإقباله على الحياة. أحيانا يُرجعون ذلك إلى سفراته للدار البيضاء أثناء الحرب وحصوله على بعض المال

من وراء مساعدته لابن أخته الكبيرة لالّة عايشة. وأحيانا يعزون ذلك إلى تغييره المؤقت للمهنة حينما أصبح بائعا للثياب في حانوت عمّرها له ابن أخته بحيّ فاس الجديد... آنئذ استطاب «لالّة وْمالي»، وكرع كؤوس المتعة وسهرات الملحون والأندلسي. رجل فَحْل، طريّ الحديث. كُنّا بدورنا نَنجَذِبُ إليه، لكنه لا يُشعرنا بغير الأخوة. لا نغضب ولا ننفر منه لأنه يُبيح لنفسه اختلاس لحظات الزّهو بعيدا عن زوجته النحيلة الصهباء ذات اللسان العقْرب. قالوا إنه انْغَرَم بامرأة يهودية ممتلئة الأرداف، خمرية البشرة والعيون، كانت من زَبُونات الحانوت قبل أن يُنْفق عليها الربح ثم "يطْبَ" في رأس المال.

بعد أن أخذ يَحْبو فوق الخمسين، غدا أكثر استقرارا وحضورا داخل البيت. عاد إلى مهنته الأولى، وجعل يُداوم المسجد وحلقات الذّكر والأمداح، ويستدعي أصدقاءه للعبة الكارطة. صوته يجلجل غاضبا عندما يرتكب شريكه في اللعب خطأ، لأنه لا يقبل أن يغلبه أحد في لعبة «التريسْ». يكون في أوج السعادة عندما تحضر لالّة الغالية وابنها الهادي لزيارته من الرباط. كل زيارة تكون احتفالا يغمر جميع سكان البيت. يعود إلى سيد الطيب حِسّ البَسْط وتَفْراق اللّغا. يستفسر عن الشاذة والفاذّة. يشاكس الهادي وهو يسأله عن أخبار البلاد البعيدة التي يدرس فيها: هل انتقيت عروستك؟ متى سنفرح بك؟

يبدو سيد الطيب، عندئذ، سارية مركزية في هذه الدار الكبيرة. نُحِسّ بذلك أكثر عندما يتغيّب مرة في السنة، هو وزوجته، لزيارة

ا...ه وبعض أفراد عائلته المقيمين بالرباط. تتردد على ألسنتنا ونحن ...ادث بصوت مرتفع، كما اعتدنا، عبارات الافتقاد:

"والله إيلا سيد الطيب وامراتو خلاوْ الفايْجا. توحّشناهم هاذْ ال...ه طوّلو الغيبة...".

كان يمرض من حين لآخر. لكن بنيته القوية تُسعفه على استعادة ...افيته. لا يُفرط في الأكل. علاقة غريبة بينه وبين الأطباق الأصيلة الـ... يسميها "الشُّهيوات" ويعتبرها أساسية في وجبات الغذاء. لا ...خر شيئا عندما يتعلق الأمر بالأكل، ولا يحب أن يأكل وحده ...م زوجته بدون أن يستدعي أحدا. يُدلل كل من يمرض في البيت الكبير. أصبح مِلْحا لازما لحياتنا اليومية. بحُضوره لم نكن نحس ...رنا أو حرماننا.

عندما ظهر التلفزيون، سارع إلى شراء جهاز وأخذ يدعونا إلى مشاهدة الأفلام والسهرات. كنّا نفرح لأننا سنتحلّق حول سيد الطيب ...من وأزواجنا. نضحك. نتسلى. وقاطرة الحياة تغدو محتملة بالرغم من ثقلها ورتابتها. وهو، منتصب الجذع حتى بعد أن تَخَطّى سن السبعين.

تُذكّروننا بأنه الآن اختفى؟

نحن لا نستطيع أن نتحدث عن موته. نسْمع، ما نزال، صوته الجهوري:

ـ "أمّالينْ الفوقي هَبْطو خلاص.. السهرة غادي تَبْدا".

عَوّدَنا سيد الطيب على كَرَمه المتجدّد.

تعتيم

هل أبدأ بوصف نهايتك؟ أم هي بدايتك الحقيقية ربّما؟

تضريسا جميلا كنت أجدك وأهفو إليك وسط الدوّامة المذهلة المرعبة. أراك فتتزاحم كل صور ما قبل تاريخي:

الأعراس، وأسمار النّزاهات، وأفراح عشيرة الدار الكبيرة، ونشوة البذل من قلبك المعطاء.

وصلتُ متأخرا ذلك اليوم.

كانوا قد انتهوا من تغسيل جسدك، ووضعوك داخل الكفن الأبيض ومن حولك أربعة فقهاء يرتلون القُرآن:

﴿... ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ...﴾.

لن أرى، لآخر مرة، تلك البسمة التي كانت لُغتك الخاصة معي. ولن أرى الوجه المدوّر، الممتلئ، الطافح أبدا بالحيوية والقوة.. ذَبُل الجسد وظل الوجه شامخًا مكتسحًا. وهم الآن يرُشّون الطيب على كفنك، ويُنْهون ربط ملتقى القدمين. وشفتاي تتلوان أيضا مع المُرتلين.

لا أكاد أسمع نشيج الباكين في الباحة الواسعة. كلهم أحبوك. أنت تعلم ذلك وتأكدت منه أثناء ما كنت طريح الفراش. وأنا أحاول.

علينا أن أستوعب معنى أن تكون مُمدّدا أمامي داخل الكفن ميّتا مُنتهيا وراحلا عنا. وقبل خمس سنوات كنت تَشْهَقُ إلى جانبي كالطفل الملدوغ أمام جثة لالّة الغالية أمنا. هل أمدّ يدي لأفُكّ عنك لثام الكتان الأبيض السميك ليُطالعني وجهك الصبوح، ومن يدري قد تنفتح العينان ويَفْتَرّ الثغر؟

سيحُولون بيني وبين ذلك، أعلم. لكنه فعل يناسب هذا العبث الذي يلامسني وأنا أراك منطفئا هامدا مُغيّبا وراء الكفن الأبيض. الأصوات تعلو، صليلُ سطول فارغة دُحْرجت بضربة قدم، والمِغْسل يوضع بمُحاذاة الجدار، وصوت الغسّال يأمر بإخلاء الغرفة ونحن نتململ في حركات آلية والدموع في المآقي، وتبادل التعازي، والأطفال العابثون بين الأرجل أو في الأركان ينظرون بذهول... الوافدون كُثْرٌ ولسانهم لا يفتر عن الترديد: «عزاؤنا واحد»، وجنازتك أشبه ما تكون بالعرس: فالمسمّعون والمادحون اعتبروك واحدا منهم وجاؤوا ليخصّوك بهذه «العمارة» المزدهية الشّعر والكلمات. كلنا متحلقون حول جسدك الملفوف في الكفن الأبيض، الممدّد وسط الدار إلى جانب الخصّة المُلجمة... يُرتلون القرآن ثم ينشدون الأمداح، وذو الصوت الجميل يصدح كأنما يُناجيك، والنشوة تتسلّل إلى مشاعر العبث في دخيلتي لتُبدّدها.. أنت مُنتش داخل كَفَنك كما أُخمن: تحب هذه الكلمات وما تنسجه من عوالم علوية. نصغي ونُصيخ السمع وننسى أنك راحل وإلى الأبد.

يقف المتحلقون حولك ليجذبوا، وَنَثِيثُ المطر يرشُّ رؤوسنا ويرش النعش الذي احتواك...

أيها الطيب ذو القلب الكريم هل تسمعنا؟ هل تسمع الأصوات التي تتنامى اللوعة والبكاء؟

وحينما جِئْنا لنرفع التابوت ونرافقك إلى المسجد فالمقبرة تَعَالى نحيبُ النساء حادًا مُوجعًا، لكن أصوات أصدقائك تعلو بالوداع الفَرِح الجذلان:

سبحان ذي المُلك والملكوت

سبحان ذي العزة والجبروت

سبحان الحي الذي لا يموت

سبُوحٌ قُدُوسٌ ربُّ الملائكة والروح...

والأصوات تتصادى بين جدران الأزقة المتقاربة والمارة يفسحون الطريق للموكب الذي سيَزِفُّك عريسًا للجنَّة كما كان يردد الذين عرفوك.

ثلاثون سنة منذ أن رحلت عنك وعن الدار الكبيرة. كنت مزوّدًا بذخيرة لا تنفد من الثقة بالنفس والجسارة وحب المغامرة. أبدًا لم تقمع رغائب طفولتي ولو كانت رعناء. وبذلك الحب الكثير أحسني قادرًا على كل شيء. عالم آخر استقبلني. تجارب معقدة قطعتْ حبل السُّرّة الرابط بيني وبين كَوْن الطفولة والأحلام. لكنني وأنا أعود إلى زيارتك، في كل مرة، تتبخر السنوات الثلاثون وتتلاشى التصورات والأوهام فأعود طفلًا يحبو على مَدْرَج الصَّبَوات، وتُطل النفس المكتفية بزمنها الأول الممتلئ. أجد الباب دومًا مفتوحًا، ووجوه النساء والأطفال طافحة بالبِشر والرضى، وأنتَ في صدر الغرفة

...ابك وطربوشك تنظر إلى الباحة أو تتحدث مع زوجتك أو مع ا... من سكان الدار. تُعانقني فتنحلّ العقد المتكوّمة في سريرتي. ... التساؤلات وهواجس الخوف. أستغني عن الكلام الطويل ... البسيطة الفَكِيهَة البليغة تتدفق من شفتيك. كيف تُفْصَل اللغة ... مُتلفِّظيها؟ كيف أُقاوم سحر هذا السياق المنغرس في الذاكرة ... الجدران والوجوه؟

«إيِهْ.. تَنْشُوفهم. جَاوْ تعشّاوْ معنا هذي واحد اليُومِيْن. لاَلَّة بِينَة ...ـتْهَا مْطَيّبَة، وَهُمَّ لَبْنَات تَيكمّل عليها. إيوا وعبد العزيز تَيقْضي ...اجة في ذِيك الَحْوِيتَة. الوقت صْعَابْ كل شيء غْلاَ وما بْقَى حدّ ...ع. حتى السكّر زادوا فيه وخَلْفُوا ما يْنَقْصُو منه. هذا هو الاستقلال اللي كُنا نْترجّاوْ بَركْتُو.. إيوا نْسقْسِيوكْ انت اللّي قاري وفَاهَمْ آش ...ابنّا هاذ الاستقلال؟...».

تلتفتُ نحوي وأنت تضحك من خَلَلِ هَسْهَسةٍ تكتم الصوت، ...مضًا عينيك، مسرورًا بأن تُشاكِسَني.. يضيع صوتي ويفقد معناه. أوثر أن أستمع إليك، أن أظل مستسلمًا لسطوة الكلمة المنطلقة من ...مك:

«... شي سلاّم تيسقسي عليك... عرفتيه؟ ها ذاك اللّي قْتَل حاذ... ...لى باكورة. دايمًا مسكين تيقول لي أشخْبَارْ الأستاذ. تيْخصنا شي ...رة نْدُوز أنا وإياك نْشُوفوه. حتى هو تَيَعْذّي. الناس كلها تْقَهْرَت. ما بقاتْ بركة، والغش على عْينيك أبَنْ عدّي. الحليب نَصُّو ماء، والزبدة الطرية تْقَتش عليها بالريق الناشف ما تْلَقْهاش. عْيَاوْ ما

يكتبو في الجرائد ويْخَطبُوا في الجْوامع.. على مَنْ تَتْقْرا زابورك أداوود؟...».

آراك بعين الطفل المبهور تدقّ الباب البرانية وتصيح بنا لنُسارع إلى رفع المزلاج. وفي الداخل تكوم أهل الدار كلهم في السُّفْلي خوفًا من أن تَتَنَيَّصَّبُهُمْ رصاصة طائشة تتسلل من السطوح حيث يَقْبَعُ جنود سينغاليون يراقبون المدينة القديمة المتمردة. الحربُ توشك على نهايتها وهَبَّةُ الوطنيين ساخنة سارية في الأزقة والدروب وفي شرايين الناس. كنت عائدًا لِتَوِّكَ من مسجد القرويين حيث ظَلِلْتُم محاصرين منذ الصباح تقرءُون اللطيف احتجاجًا على العسف والاعتقالات.. نحن ننتظر أَوْبَتَكَ بخوف وقلق، وعائلات مالين الفوقي نزلت إلى السفلي بعد أن لعلعت فوق رؤوسهم رصاصة مخترقة دفَّة إحدى الأبواب. الهلع يَرِينُ ولا يُخفّفه سوى صوت النساء والرجال الذين يرتلون اللّطيف. تَنْدفع وتغلق الأبواب وراءك ووجهك ابيَضّ من الوجل والانفعال. يهرع سكان الدار نحوك. تقول بصوتك الجهوري:

«صافي.. ذبحوا «لأَسُوزْني».. ذبحوا البيّاع إسماعيل. كَرّجوا له ذبحة من لَوْذَن حتى لَوْذَن. لهلاّ يرد بَابَاهْ. ما حْشَمْ ما استحيا، دخل باش يْعَبّي الاخبار لأسْياذُوا الفرنسويين...».

تتدفّق الكلمات سريعة من شِدْقَيْكَ وأبصارنا مسمَّرة في وجهك: نُتابع التفاصيل ونتخيّل المشهد العنيف. وَدِدْتُ في قرارة نفسي لو أنك صَحِبْتَني معك لآتيه على بقية الأطفال وأنا أسرد عليهم الحدَثَ

... طالما ستذكرني بهذه الحادثة التي تقول عنها بلُغتك: «غبطة

...الذين في ربعة وربعين». تبتدع الكلمات بتلقائية فتتضاءل وقائع

...ديات أمامها. لا أقلّ من الاستماع إليك تقصُّ وتلوّن الأشياء

...خوص. تحكي فتنسج بيني وبين هذا المحيط السحري، عبر

...اداث، وشائج مستقرّة في المسامّ. وخلال رحلتي بعيدًا عنك، في

...اسلي مع الناس والعوالم، لا تغيب كلماتك المبتدعة عن ذاكرتي:

...امات قبل الأشياء.

* * *

...ال راوي الرُّواة

الذين حدثوكم عن سيد الطيِّب عرفوه في فترات طالتْ أو قصرت.

...م يحاولون أن يستعيدوا ذكريات وملامح وأقوالًا مشتركة معه.

...ملون ذلك بهاجس فَهْم شخصيته.. قد لا تكون كلمة «فهم» هي

... نقصود لأننا، في النهاية، لا نفهم مَنْ نُعايشهم، وبالأخص لا نفهم

...ن نُحبّهم.. إنما نكوِّن عنهم صورة تتناسل وتتمايز عبر التلوينات

...ي تُضفيها الذاكرة كلما تباعدت مسافة اللقاء بهم.

وكما يبدو لي، ولأنني عرفت الذين حدثونا عن سيد الطيب،

فإن جانبًا «جوهريًا» (أتهيّبُ من هذه الكلمة لكنني أستعملها مؤقتًا

وأعرف أنها ستصبح دائمة...) من شخصيته ظل غائبًا، أو بالأحرى،

ممتنعًا عن الاستحضار.. أقصد ـ وأنا أعرف أن ذلك لم يغبْ عن

فطنتكم ـ تلك العلاقة بين سيد الطيب وبين نفسه، وبينه وبين جسده،

ومع الأشياء.. فنحن - الرواة جميعًا - عرفناه من خلال تصرفاته، أقواله، وعبر الصورة التي كوّنها عنه الآخرون وربما التي كوّنها هو عن نفسه من خلال الناس.

أحيانًا، أخوضُ في «تفسير» سيد الطيب مستعملًا الأبعاد الفيزيولوجية والاجتماعية والدينية.. لأعثر على خيْطٍ يَنتظم تلك المشاهد والمراحل ويحتوي التناقضات... ثم، فجأة، ينْتصِبُ أمامي داخل إطار أحياء فاس القديمة، وداخل الدار الكبيرة، بجسده الفارع الممتلئ، بكلماته وصمته، فتهتزّ كل التفسيرات. وتهتزّ أكثر عندما أقارن بين هذه الصورة وبين صورته في الرباط أو البيضاء حينما كان يزور بعض الأقارب والأحباب: خارج فاس كان يبدو «متقلصًا» (هل هذه هي الكلمة المناسبة؟).. كان يفقد الكثير من حضوره، بل من وَقَاحَتِه: أعني التصرف وكأنه يمتلك مَنْ ومَا حوله، ثم وكأنه مملوك بدوره.. «يكون رافعًا الكلفة مع الحياة» ربما هذا تعبير أدق. أو أقول مستعملًا تعبيرًا مستوحى من أحد الكتاب، بأن سيد الطيب داخل فاس كان يساعد الأشياء على أن توجد، ولم يكن يحس نحوها باحتقار.

أورد هنا - أليس ذلك من حقي أنا راوي الرواة؟ - ما سجله الكاتب في مسودته عن سيد الطيب على لسان الهادي:

«مرة، في الرباط، تجولت معه داخل الأحياء العصرية وجلسنا بأحد المقاهي، وتحدثنا في أشياء مختلفة.. كان ينصت وأحيانًا يُعلق، لكنه كان يبدو كأنه يكتشف عالمًا يجهله أو لا يحرص على أن يعرفه. وفي نفس الوقت، عندما يحكي، كان العالم الخارجي

المسيح، كما يتبدّى في الرباط، يُربكُ حَكْيَه. هنا، خارج مدينته، بدا لي متعثرًا فأخذت أستحضر بعض ما عشته معه في الطفولة ليسترجع حكيه المعتاد...».

بعد عدة صفحات يحكي فيها الهادي عن زياراته لسيد الطيب خلال السنوات الأخيرة السابقة لموته، تأتي هذه الفقرة:

«... يمكن أن أتلكّأ أكثر مُستحثًا ذاكرتي على تقديم لقطات أخرى من سيد الطيب الذي أشعر، بغموض، أن ما رَوَيْتُهُ عنه، وما يمكن أن يُروى عنه، غير كافٍ.. لكنني الآن أنتبه إلى أن كل هذا التلكؤ إنما ألجأ إليه لأموّه على نفسي حقيقة كونه قد مات.»

أستشعر أن بين الهادي والكاتب أشياء كثيرة يمكن أن أعيد سردها وأن أرتبها على لسان الرواة لأطيل جلسة استحضار ما أظنّه باقيًا في أعماقهما، لكن بدون أن يتحول الموت من طقس إلى حقيقة. ما دام الهادي يخرج من اللعبة ليذكرنا بالحقيقة التي تهدّ ما سردناه مواربةً، فإنه يُعوض حَكْيَنَا بصمت الموت.

ما قبل تاريخنا

تخطّى العقد الثالث من عمره، ومع ذلك يبدو ممتلئا بطفولته. لا ينفصل الفترات والمراحل واللحظات. يحرص على أن يجعل الديمومة واحدة، متواصلة، ولو أنه في لحظات القلق والحصر يستشعر تفتّتًا كاسحًا يُحيله إلى ذرات. أين لحظة البدء؟ ومتى ينتصب الحاضر؟

إنه ما يزال يحتفظ بالكثير ممّا لازَمَهُ منذ أن وَعى بكورة الطفولة في أبعد تذكُّرات الارتداد إلى الماضي. وحين يفكر في كل ذلك، لا يجد ما يستحصده سوى القول بأن الطفولة حاضرة فينا حضور الدم في الشرايين، وأن الغالب على الظن أن كل الناس ـ مثله فيما يخيل إليه ـ سيُغمضون عيونهم، عند الاحتضار، على لحظة أو مشاهد من الطفولة المحفورة في الخلايا والمسام.

عُرِفَ عنه أنه كان طفلًا مدلّلًا، مشاكسًا، انتقل في سنة عمره الأولى أو الثانية، إلى رعاية خاله سيد الطيب وزوجته الجميلة الأولى؛ لأنهما كانا عاقرَيْن. له، إذن، أن يشتهي، وعليهما أن يُلبيا رغائبه ونزواته. ولا أحد في البيت الكبير يحقُّ له أن يُغضب الهادي أو أن يزجره. حتى

أمه لالّة الغالية لم يعد مسموحًا لها أن تؤدبه أو تنهره. كل الألسنة تلهج باسمه وتُغدق عليه الهدايا والتدليل، لأن مكانة سيد الطيب في قلوب ساكني الدار الكبيرة، لا يعلو عليها شيء، ولأن الهادي، وهو ينمو، يبذر من حوله نكهة الحيوية والشيطنة وسط عائلات جُلّ نصيبها من البنات.

وستكون أولى شارات التميُّز لدى الهادي الطفل، إرسال شَعَر رأسه: لَفْريزي موضة طارئة وَفَدَت مع المعمرين القادمين من وراء البحر. حتى أخوه الطايع، لم يحظ، أول الأمر، بإكليل الشعر الذي يُضفي على الوجه ملامح تناسُق وتجميل. وخلال ساعات لعب أطفال الدار وبناتها، يصبح الهادي مركز اهتمام البنات، لأن لَفْريزي تَبْهَلْ، تَبحمَقْ، وهن يعشقن أصحاب الرؤوس المكسوة بالشعر، الحاملة لأمارات العصر. وكثيرًا ما يُحاصِرْنَه في إحدى زوايا الغرفة، ليُقبّلن قفاه ويعبثْن بشعره. بداية مُغرية ومسلية. وسيظل، على امتداد الأيام، مُنجذبًا إلى الحضور النّسوي الغنيّ بالسحر والفُتون.

في ليالي الصيف، تزهو سطوح فاس. تنتعش النفوس من هبّات النسيم، وتنسى شُواظ النهار، فيكون للأطفال والأولاد موعد مع السهر فوق السطوح يحرسون «الخليع»، ويتبادلون المشاكسات والغَزَل والقُبل، قبل أن يَهُدّهم التعب فينامون متداخلين تحت شطائر القدّيد المنشور على الحبال. والسطح امتداد ضروري للدار الفاسية. إنه رئتها التي تتنفس منها. الشرفة التي تنظر منها إلى السماء، إلى الجيران، وإلى ما يجري أُفُقيا، كاشفا عن خبايا الغُرف المعتمة.

من السطح، كان الهادي وبعض أطفال الدار يتلصّصون على

«عثمان لكابران» الساكن ببيت صغير لصق دارهم. كانوا يُطلون عبر الشباك الحديدي الموضوع على امتداد باحة منزل الجار المِزْواج، ا..ونه وهو يضرب زوجاته الثلاث، فيما يحاول أن يفضّ النزاع بينهن. «عثمان لكابران» شارك في حرب الهند الصينية، وعُطب في رجله، ..اد ليتابع المعركة في حومة النساء! كانت شواربه كثيفة، ولهجته ..روبية، وعيناه غائرتين.. وحين فاجأ الهادي ومنْ معه من الأطفال والبنات وهم يتابعون من فوق السطح عراكه مع زوجاته، رفع العصا باتجاههم وأخذ يصيح:

ـ أولاد الزنا، أقلال الحيا.. الله ينعل اللّي ربّاكُمْ.

واكتشف الهادي، ذات يوم، أن السطح يفضي إلى سطح منزل قريب، به دالية، عناقيدها تُثمر عنبا شهيا؛ فكان يتسلل إلى الدالية ..د الغداء عندما يهجع سكان الدار للاستمتاع بتعسيلة القيلولة. لكنه في المرة الثالثة، فوجئ بيد نسوية تمتدّ لتمسك بذراعه، بعد أن اختبأت صاحبتها وراء تجويفة بين جداريْن. وضعت إصبعها على فمها آمرة بالسكوت ثم أخذت تبتسم. جميلة كانت، ولو أن مراهقة تعلو ملامحها، تُضفي عليها تعبيرا برونزيا يضاعفه بياضُها المفرط. لم يفهم الهادي، أول الأمر، ما تريد به الفتاة القابضة على ذراعه والمبتسمة في خبث. إلّا أنها جذبته نحوها وأخذت تقبله، ثم أدارت نحوها قفاه وجعلت تضغط عليها بشفتيها في نَهَم ولوعة يفوقان ما كان يصدر عن بنات الدار الكبيرة. قالت له بعد أن طالت مداعبتها، وَرَاوَدَهُ الخوف:

«تعال متى شئت، فسأتركك تقطف كل العنب الذي تريده».

لكن الهادي لم يعد إلى دالية الجارة، لأنه علم أنها ابنة أحد فقهاء الحومة المتزمتين، تعيش بمفردها مع والدها بعد أن ماتت أمها. وكانت لهذا البيت رهبة منفرة بين أطفال الحومة.

في المدرسة (كانت «مسيد» حوله صاحبه الفقيه عالم القرويين، إلى مدرسة) وجد الهادي مجالا أوسع لتجريب شيطنته وذكائه. دار كبيرة استُبدلت طاولات خشبية بحُصرها، وُضعت في غرف السفلي، أما الفوقي فيسكنه الفقيه، المدير الصارم. وكثيرا ما يصهل من وراء الدربوز موجّها الأوامر إلى من يتلكئون أو يتباطئون عن الدرس. الجلباب والعمامة، والنظارات الطبية السميكة، والتّنيحة ينشقها في كل حين، والمنديل الأحمر المنقّط بنُقط بيضاء.. وهيئته تسبقه، فيتلبّد التلاميذ في أماكنهم عندما يلمحونه آتيا للقيام بجولاته التفقّدية التي لا تنقطع. أحيانا يكون مزاجه رائقا فيتبسّط مع المجدّين، ويسمح بلعب الكرة خلال استراحة بعد الظهر. عندئذ، تنقلب الباحة إلى ملعب يغصّ بالرؤوس الصغيرة وهي ممسكة بجلابيبها بين أسنانها، جارية وراء كرة الشراويط. قد يصل عدد كل فريق إلى عشرين نفراً، والباقون مكدسون على الجوانب يصيحون ويشجعون. يتحرك اللاّعبون جماعات جماعات، ويتعاركون لاستخراج الكرة من بين الأرجل المتشابكة. وكثيرا ما تسقط الكرة في صحن نافورة وسط الدار، فتبتل وتبدأ تترك بصماتها على الجزء الأعلى الأبيض من سواري الدار. والحكم ضائع قلما يأتمر اللاّعبون لما تمليه صفارته. والهادي يعشق كرة القدم، يلعبها ويحرص على مشاهدة مبارياتها. دائما يتعلق بابن خالته الأكبر ليصحبه إلى ملعب «باب الساكما»، خاصة إذا كانت المباراة بين فريق العدوة، وفريق فاس الجديد. سرعان ما

نحفظ أسماء أهم اللاعبين: طانطان، كوسكوس، المنجرة (حارس المرمى)، عبد اللطيف، حميدة... وعندما ينتصر فريق العدوة الذي ناصره الهادي وابن خالته، فإن على أطفال المدينة القديمة وشبانها أن يفروا بجلودهم قبل أن يتعرضوا لانتقام شباب فاس الجديد. كُلّ «وجلاه» واللقاء عند باب الجلود.

لكن أثر هذه المدرسة كان يتعدى مجال اللعب وصداقة التلاميذ إلى تنبيه حس وطني خاص، لأن مديرها كان منضويًا في الحركة الوطنية، «والزعيم» هو الذي أوعز له أن يحولها من كُتّاب إلى مدرسة. وفي نهاية السنة، تقام حفلة أناشيد وخُطب وتمثيليات، يحضرها الزعيم الوطني بوجهه المدور، وعينيه الخضراوين وزرّته البيضاء، فتعلو الهتافات والزغاريد، ويرفع هو يده راسمًا علامة النصر.. كانت الحرب قد وضعت أوزارها، وفاس مشتعلة حماسًا وافتخارًا لأنها قاومت جنود الاحتلال وأعربت جهارًا عن رغبة المواطنين في الاستقلال. وقد اختزنت ذاكرة الهادي، منذ تلك الفترة، ذخيرة من الكلمات والقصائد، والتهبَ وجدانُه بالحب لكل ما له إيقاع يتجاوب مع ما استقرّ في لاوَعْيه من محفوظات وذكريات من تلك الحقبة.

طفولة متشابكة لا يمكن تجزئتها إلى فترات ولحظات متمايزة. لكنه عندما يفكر فيها الآن، تقفز إلى ذهنه بعض تلك المشاهد فيحار في تحديد ثقلها. هل ما يزال يحمل منها أشياء فاعلة في الحنايا؟ هل يمكن أن يُرجع إلى واقعة معينة تأثيرًا خاصًا؟ أم إن الأحداث والوقائع والكلمات تتمازج قبل أن تستحيل إلى خبرة وغريزة واقعية؟

يذكر باستمرار البنت الملثمة التي ضحكت عليه وانتزعت منه جلابية «الْمَلَف» الجديدة. كان واقفًا عند الباب البرانية يتفرّج على الغادين والرائحين ومنتظرًا عودة خاله من الدراز ليتناول معه الغذاء. اقتربتْ منه بلطف كبير وسألته عن اسم المدرسة التي يتعلم فيها. أجابها باعتزاز:

ـ المعهد الإسلامي بزقاق البغل.

إنها مدرسة معروفة أجابت، ثم مدّت له «قرْطاس» البون بون الأمريكي، مضيفة بأن لها ابن أخ تريد أن تُلحقه بهذه المدرسة ليترافق معه، وأن أباه يعمل مع الأمريكان ويحمل له عُلبًا كثيرة من الحلوى.. سيُعجبك ولا شك إذا رأيته. هل يمكنك أن تذهب معي لتتعرف عليه وتتفق معه على الساعة التي يرافقك فيها إلى المدرسة؟ إن بيتنا قريب... وتُمسكه من يده ولسانها لا يتوقف لحظة عن حديث الإغراء، وعن توجيه الأسئلة، وهو معتز بأن يُجيب البنت الملثمة وقد سرح خياله مع هذه «الهمزة» التي نزلتْ من السماء، والتي ستجعله يشبع من الملبّس الأمريكي ذي القرطاس المزوّق بالأحمر والأخضر والأصفر، ضالّة الأطفال حينذاك. لسانُها لا يتوقف عن الحكي، وكلما قال لها ابتعدنا كثيرا عن الدار وأهلي سيتهوّلون عليّ، طَمْأنتْه بأنهما، وَصَلا، وأن لم يعد يفرقهما عن منزل ابن أخيها سوى زقاق أو زُقاقيْن. وبعد أن اخترقا سوق الرصيف، وعرجا على القنطرة وعلى رحْبة التبنْ والقلْقليين، ظهر باب الحديد، فبدأ قصب الجنانات يلوح، وأحس الهادي أن المسافة طالت فتوقف عن المشي. بحركة سريعة، أخرجت البنت الملثمة قرطاسيْن من الحلوى مدّتهما إليه وهي تشير

إلى أول جنان يقع على يمينها: هذا هو بيتنا لقد وصلنا. وجذبته من يده. كان باب الجنان موحشا، وما إن خطوا بضع خطوات ووصلا إلى قنطرة خشبية صغيرة تصل بين حافتي الواد، حتى توقفت البنت الملثمة وأمسكت بذراعه في خشونة آمرة إياه أن ينزع الجلابية. بدأ يبكي فنهرته مهددة بأن ترميه في الواد. الوجه الوديع المرصع بالجدري يبدأ له، الآن، من تحت اللثام الشفاف، مخيفا بنظراته الحادة المتطاير شررها من عينين ضيقتين. خلع الجلابية وهو يبكي، اختطفتها وتابعت طريقها متوغلة داخل الجنان بعد أن أمرته بأن يعود. لم يكد يصدق أنه نجا. وضع بلغته تحت إبطه وأخذ يجري وهو يشهق بالبكاء وعندما وصل إلى الدار الكبيرة كانت القيامة قايمة، والبحث عنه جاريا على قدم وساق. وكانت أول مرة يدخل فيها إلى «ديسارية حي النجارين، صحبه خاله، ليحكي لعميد الشرطة عن أوصاف البنت الملثمة، السارقة... حادثة لن ينساها، علمته أن يكون حذرا متنبها للحيل وأساليب الخداع. وعندما يدرك أن أحدا يريد أن يخدعه وأن ذلك الخداع سيُسعده، فإنه يسعفه متظاهرا بالسذاجة. لعبة مزدوجة. وكلما فكر في الفتاة الملثمة تلك، استعاد الحادثة بنوع من الغبطة والحنين.

أحيانًا، لا يتبقى في نفسه، من طفولته، سوى شريط المعارك التي كانت تدور بين الحومات. كان عنصرًا نشيطًا فيها. يتزعم ويُحرِّض، يلمُّ من حوله الأولاد ويُدبِّر لهم العصي والأحزمة الجلدية والحجارة. حومة سيدي موسى لا بد أن تنتصر، وأن يذيع صيتها ليضمن أولادها الاحترام والتقدير. والصراع لا يهدأ: ما لم تتكفل به مباريات كرة القدم في فسحة «درب الغُربة» أو في زقاق «تحت الحمَّام»، تحسمه هجمات

الليل والانقضاض على الخصوم الجالسين تحت المصابيح يتسامرون وكثيرًا ما يسيل الدّم، فالعنف لا حدّ له. وهو إلى الآن يحمل نُدبًا فوق حاجبه الأيمن لأن حجارة أصابته خلال إحدى المعارك، فتَدفّق الدمُ كنافورة صغيرة، واستولى الرعب على أصحابه فسارع أحدهم إلى إحضار الفلفلة السودانية وحشّا بها الجرح، والهادي يصرخ ويتلوى خائفًا من أن يفقد عينه. حرب عصابات بين الدروب، والليل مرتعُ الأولاد يتنادون كل مساء، والأزقة المعتمة أو نصف المضيئة لا تكفّ حركتُها. السابلة يُميز بعضهم بعضًا فيتبادلون التحايا، والنسوة كثيرا ما يتوقفن للسلام فيطول حديثُهنّ وينقلب إلى سمر واقف! والأولاد لا ينضب لهم معين: الكرة، والغناء، و«المخارية»، والكارطة، ومعاكسة الناس. أحيانًا يمتدُّ نشاطهم الليلي إلى ساعة متأخرة فهُم جزء من شرايين المدينة العتيقة المذهلة بحيويتها.

عندما رحل الهادي إلى الرباط، حمل وَلَعَهُ بالعراك والتحدي. كان أخوه قد سبقه إليها مع أمه، وهو لم يكن يريد أن يفارق فاس، وخاله الطيب الذي تعلق به كثيرًا. غير أن ضيق ذات يد الخال نتيجة كساد منتوجات الدراز، واهتزاز مكانة الصناعة التقليدية بعد أن انتهت الحرب وعادت البضائع الأجنبية إلى اكتساح السوق جعلا لالّة الغالية تلح على استرجاع الهادي لكي تخفف العبء عن أخيها.

بدت الرباط للهادي مدينة مفتوحة بدون أسرار أو مفاجآت. أزقتها متسعة ومستوية، والمنازل غير عالية ولا مثقلة بالزليج وبزخارف النقوش الجبصية. والدراجات تملأ الأزقة، والأزياء متنوعة أكثر. سيظل خياله مشدودا أمدا طويلا إلى حركة الليل بفاس، وإلى أصدقاء

الطفولة المتواطئين معه. عليه الآن أن يواجه حياته الجديدة وأن يحدد له خطة يفرض بها نفسه في هذا المحيط الذي يبدو غريبا عنه. زوج أخته، سي إبراهيم، صارم و«معقول» لا يحتمل المزاح ولا لعب الأطفال في الزنقة. يراقب الطايع ويحثه على الاجتهاد في دروسه. رجل مستقيم: من المقهى الذي يعمل به إلى الدار أو المسجد. الخدمة والتمارة والنعاس بكري. أمه لالة الغالية منكبة على الصنعة: الطراز والخياطة وشئون الطبخ، وتربية صغار ابنتها. عالم مختلف عما ألفه الهادي في فاس. والقيود التي يحاول سي إبراهيم أن يفرضها عليه مثلما فرضها على الطايع، تجعله كأنما يرتاد جحيما صغيرا. أخوه الطايع منهمك في حفظ الدروس والمواظبة على المسجد للاستماع إلى دروس التفسير والحديث. وحتى في أيام العطل عليهما أن يلتحقا بالمسيد لحفظ القرآن. فكر الهادي في طريقة تنسف هذا البنيان المتراص الخانق لأنفاسه، فلم يجد سوى آلة العصيان. وكان المسيد هو نقطة البداية. أقنع الطايع بأن ينضما إلى فريق كرة القدم بالحي، وأن يتغيبا عن المسيد وصُداعه. ومرّت عدة أسابيع قبل أن يكتشف سي إبراهيم زوَغانهما عن «الطريق المستقيم»: والجزاء معروف: العصا لمن عَصَى. واستمر الهادي يتحدى ويستنجد بأمه ويحرض الطايع على إعلان أنهما لم يعودا طفلين. ومنذ ذلك، أصبح التمرد على سلطة سي إبراهيم هو المتنفّس للهادي الذي لم يلبث أن اندمج في شبكة علاقات مع أولاد جيران البيت وبناتهم، ومع أولاد الحي، مواصلا إقناع الطايع بضرورة التخلي عن رزانته المبكرة.

في بداية الخمسينيات، كان الهادي والطايع على موعد مع ساحة

واسعة ستمتص منهما، تدريجيا، شيطنتهما وتضعهما على سكة طريق وَعْرة وحافلة بالمفاجآت. كانت أحاديث التوعية جزء من الدروس في المدرسة الحرة التي يدرسان بها. الأحداث تتواتر بإيقاع سريع متصاعد، واحتفالات عيد العرش مناسبة يعبر فيها الجميع عن مشاعرهم الوطنية وتعلقهم بالحرية. مناخ يبدو الآن خرافيا، مُوغلا في زمن لا يكاد يمتُّ بصلة إلى هذا الزمن «الحر» الفاقد لنُسغه وحرارته الداخلية. كأن الحرية تَبْهَتُ في غياب لغة العصيان ونُضوب قرابين الرفض. هل يمكن استعادة الفترات المتألقة، الحاسمة، بدون استحضار الوَهم الذي يلحم التيار ويجرف الحشد على طريق الاعتقاد بصُنع التاريخ؟ وَهْم؟ حقيقة؟ سيان الآن في عين من لم تَمْسسه نار تلك الحقيقة ـ الوهم. لكن ليس هناك أشد ألما من أن يُحرم جيل من فورة الحماس والتحدي التي تخلقها أوهام المرحلة وحقائقها.

وكان على الطايع والهادي أن يلجآ إلى لعبة التَّخبئة مع الفقر: يراهما ويتظاهران بأنهما لا يَريانه. يقص أجنحتهما، ومع ذلك يُتابعان التحليق. بدآ يسترجعان تواطؤ طفولة البدايات بفاس. وفي غمرة تفجّر طاقاتهما عبر اللعب والمدرسة والمغامرات والمظاهرات، كان النضج يتسلّل إليهما ليمنحهما الثقة والإصرار على الاستمرار. لذلك اتفقا على البحث عن عمل خلال عطلة الصيف يتيح لهما توفير بعض النقود لتأمين مصاريف الجيب، ومساعدة الأم، وزيارة فاس. دلّهما أحد أولاد الحومة على معمل ألمنيوم بالمرسى يملكه يهودي مغربي، ويعمل به أولاد يهود ومغاربة. بعد أن جرّبهما صاحب المعمل طوال الصباح، قرر أن يُشغلهما بأجريْن مختلفين، لأن الطايع أكثر

،مارة في تنظيف طناجر وأطباق الألمنيوم بالنُّشارة. يستيقظان باكرا، ،مرتديان سروالين قصيرين وقميصين باليين، ويدُسّان تحت إبطيهما ،حبة الغذاء التي أعدَّتها الأم في الليل، ثم يغادران الحيّ مُتسللَيْن ،وف أنْ يراهما أحد بلباس الشغل. في المساء يشعران بحرج أكبر لأن الحمة تلطخ وجهيهما وأرجلهما وثيابهما. يجريان بسرعة ولا ،ردان على نداءات الأصحاب إلى أن يدخلا الدار ويُبادرا بالاغتسال. ،نا فشيئًا، تعوّدا على الشغل ولم يعودا يتحرجان أمام الأولاد لأن لالّة الغالية أقنعتهما بأن العمل شريف وأفضل من السرقة. خلال ،هرين من العمل يوفران مبلغا لا بأس به، فيسافران صحبة أمهما الى فاس لقضاء أسبوعين حافلين بالزيارات والسهرات والولائم؛ ،يعودان محملَيْن بالهدايا، تملأهما نشوة إثبات رجولتهما المبكرة ،الإنفاق على الأم في رحلتها السنوية.

لكن ذلك الصباح، صباح يوم جمعة غالبا، من شهر غشت ١٩٥٣، غيّر إيقاع حياة الطايع والهادي، وطرد بقايا الطفولة ،وساوس المراهقة لينقلهما إلى جدية عالم الكبار وهمومه. كانت ،د مرت بضعة أسابيع على نفي الملك إلى جزيرة كورسيكا، وقادة الحركة الوطنية في السجون، والتوتُّر في أوجه: لحظة المواجهة التي انتظرها الجميع بفارغ الصبر وبغير قليل من التهيّب والتوجس. وكانت المبادرة للشبان والمراهقين الذين تجندوا للدعوة إلى مظاهرة الاحتجاج وإعلان السخط. كأن مدينة الرباط، آنذاك، خلية نحل مشدودة الأوصال إلى مركز تحريك موجّه للحركات والسكنات. كان التلاميذ والطلبة وشبان الأحياء هم الأغلبية في بداية المظاهرة التي انطلقت من المدينة القديمة؛ وكلما قطعت بضعة أمتار، انضم

إليها أصحاب الجلاليب والطرابيش الوطنية، وزغاريد النساء تذكي الحماس وتلهب الحناجر، والشعارات تطالب بإرجاع الملك إلى عرشه وبالاستقلال، والهتافات تُحيي الزعماء... يتقدم الموكب ويتراجع الجنود.

عندما خرجت المظاهرة من قوس شارع الجزاء الأعلى، اتجهت يمينا نحو شارع لعلو، ثم وجدت قوات الجيش والكوم مرابطة عند منحدر شارع الأوداية المؤدي إلى المدينة الجديدة فاضطرت إلى التوجه عبر شارع القناصل، فالسوق التحتي. وهناك أيضا كانت قوات الجيش بالمرصاد. توقّفَ الموكب دون أن تتوقف الشعارات والهتافات والزغاريد. كان من بين الطلبة والأولاد الذين يُؤَطرون المظاهرة ويوجهونها، طالب أعرج، قوي البنية، قد وضع منديلا أبيض على رأسه وجبينه، والعرق يتصبب من مجموع جسده. وهو يضغط بيده اليسرى على فَخِذ رجله المعطوبة ويجري معمما الشعارات، يصعد تارة فوق سيارة أو دكّة ملوحا بيده، ويهدر تارة أخرى بصوته الجهوري لتنسيق جوقة الحناجر المشتعلة؛ ثم لا يلبث أن ينط متدحرجا لينتقل إلى موقع آخر.. والطايع والهادي غائصان وسط ذلك الحشد المندفع يصيحان ويهتفان حريصيْن على ألّا تخنقهما المناكب المتراصة والأجساد المتزاحمة.

أصبحت المظاهرات تقليدا يتنادى له الجميع وتسري أخباره عبر مختلف المدن قبل أن تتكلم رصاصات الفدائيين الأولى في الأزقة والشوارع، وفي أحياء المدن الجديدة أيضا.. رصاص وقنابل ومظاهرات. والصيف الساخن يمتد ومعه تتناسل الأخبار والشائعات

واا ، همات. انتقل الخبر سريعا من دار لدار، فامتلأت السطوح ليلا
باا ،اء والرجال والأطفال متطلعين إلى استدارة القمر، باحثين
عن تقاسيم محمد الخامس وملامحه، لأن وجهه ـ تقول أصوات
، ابو المدينة ـ استوطَنَ القمر ليظل، رغم المنفى، متصلا بشعبه.
واا..دل يعلو في هدأة الليل. والفائز من أسعفه خياله السريع على
الله ، صورة الملك ليعلن أنه فعلا رآه مبتسما أو حزينًا. ضاحكًا
ا، عبوسًا... لعبة طريفة، ساذجة، لكنها كانت تنفع في إذكاء جذوة
الا ، واصل والحمية.

ماد الهادي، في فاتح أكتوبر، إلى مدرسته، بينما قرر الطايع أن
يه .م دكانا صغيرا لبيع الملابس والأحذية. في المساء، يتبادلان
الأ .خبار ويتناقلان ما سمعاه أو عايناه من أحداث ومواقف سياسية.
كانت مدرسة الهادي تغلي والتلاميذ يلجئون باستمرار إلى الإضراب
.. ير[ا] عن سخطهم. بعضهم بدأ يهيئ لتنظيم خلايا فدائية، والبعض
الآخر ممعن في القراءة «والاجتهاد». والهادي موزّع بين المنفلوطي
، جرجي زيدان وطه حسين وألفونس دوديه، وبين مسامرات الحزب
، حضور دروس الحديث في الجامع الكبير يُلقيها العلامة المدني
الحسني. كان معجبا بطريقة ذلك العالم في تفسير الحديث
، بابتسامته الحيية ووجهه الممتلئ المحفوف بلحية وخطها الشيب.
يقرأ السارد الحديث بِغُنَّاته اللاّنتهي، وهو يتدخل ليوضح نسب
كل صحابي أو تابع، وليوثّق الأشخاص والأفكار والمراجع، ثم
يبدأ في التفسير منتقلا من التاريخ إلى الجغرافية إلى السيرة النبوية
إلى النوادر والفكاهات.. وإذا ما استبدّت به الضحكة، ثنى أصابعه
وأخذ ينظر إلى أظافره فتختفي الضحكة ويستعيد وقاره: عادة معروفة

عن ذلك العالم الجليل، كثيرًا ما حاول الهادي الاستنجاد بها، لكن ضحكته تكون أقوى، فينفضح أمره، مثلما حدث وهو يستمع إلى المحدث يحكي عن ضرورة مقاومة الصائم لشهوات النفس والبَطن، ويحذر من أن يضعف الصائم إذا عاد إلى بيته في النهار، ووجد ما لَذَّ وطاب من دجاج مُشرمل، وضلعة محمَّرة بالفلفلة والزعفران، أو كُسكس بالبصل والزبيب.. لم يتمالك الهادي نفسه فأخذ يضحك بصوت مرتفع ويضرب يدا في يد (كان يُجرب الصيام لأول مرّة)، ممّا جعل الحاضرين في حلقة الحديث يلتفتون إليه ويُفرجون عن ضحكتهم المكبوتة. مع سيدْ المدني بالحسني، يسترجع الكلامُ والتلقّظ قوتهما، وتَتَسَلْطَنُ صيغة الحكي، فيتوارى ما يُضجر ويُملّ، عادة، عند معظم فقهاء الحديث. كان عالمنا يسترسل في حديثه كأنه في خَلْوة مع جماعة أصدقاء بدون تكلّف أو إغلاق، حتى إذا سمع بداية أذان العصر، سارع إلى ختم حديثه ببيت شعر غدا بمثابة اللّازمة عند كل وداع:

فلو شــاء الإلهُ لمـا افترقنـا ولكن لا خيــار مــع الأذان

تعتيم

اقتناع حدّ الهوس أن أبعد ذكرياتي الموغلة في بُكرة الطفولة، تلك التي أرى فيها نفسي، دون سن الرابعة، وأنا أخطو مشدوهًا، مفتونًا، منجذبًا نحو جسد زوجة خالي سيدْ الطيب: الجسد الأبيض الهامد المسجى فوق المغسل. أخطو وقد تسللت من بين دفتي الغرفة المتعانقتين، وسكان الدار والمعزُّون مُنشغلون بالبكاء ولطم الخدود

والضرب على الصدور. أخطو عند عتبة الغرفة الكبيرة التي أُفرغتْ من الأفرشة والحشايا، ولم يبق بها غير الزليج الأزرق والأسود، والمغسل الخشبي الواسع، وجسدها الأبيض بياضا بنصاعة الجير، وشعرها الفاحم الطويل منسدلا على الكتفين وقد استدار الوجه صوب الجدار. ما كنتُ أعي أنها ميتة. وما كنت رأيتها قبلُ عارية على كثرة ما نمتُ بين أحضانها بمحاذاة خالي. حية، كانت تُدللني وتغدق عليّ حنانها وهداياها وكلماتها الحلوة. صورة لا تتجزأ عن فترة الطفولة الباكرة التي قضيتها مغمورًا بعشقها. وأنا أخطو نحو جسدها المسجى مادًا يدي نحو ثَدْيَيها، لم أكن أدرك أنها ميتة. ربما عندما لامستْ أصابعي صدرها البارد، في اللحظة التي امتدّت يدان لتختطفاني من وراء مولولة احتجاجًا على ما يفعله الطفل المنسي في غمرة الحزن والنواح، ربما آنذاك بدأت ترتسم في سريرتي صورة ما، عن موت زوجة الخال الحبيبة، عن فُقدان حضور جسدي وعاطفي مُثقل بالغبطة والدفء. ها أنا الآن وسط الدار الممتلئة بالبكاء والصراخ والأصوات الآمرة، بين ذراعيْن تُهَدْهِداني وأنا أبكي بدوري لأنهم أبعدوني عن الجسد الأبيض المسجى.

عند هذا الحد ينقطع شريط التذكر ولا يستأنف صُورَهُ المختزنة إلا بمجيء فاختة، زوجة خالي الثانية. لعبة التذكر مسلية، لكنها مرعبة أحيانا. فأنا لم أنفض الغبار عن لحظة الجسد الأبيض المسجى من خلال استحضار إرادي، بل فاجأتني في سياق آخر، وبعد مرور أكثر من عشرين سنة عليها. كنت صحبة امرأة أجنبية تعارفنا داخل مكتبة، وبدأ الحديث عن العالم الثالث لينتهي إلى شجون القلب ونزوات الجسد. وعندما يتلاءم المزاجان والرغبتان فإن كل شيء آخر يمكنه

أن ينتظر، يمكنه أن يتوارى ليسمح لوَهَج اللحظة المشتعلة أن يتألق ويكتمل. داخل الغرفة، سوية، مع أسطوانة فرانك سيناترا «غريب في الليل»، ودبيب الراح يتسرب عبر المسام والأوردة فيلهب النسوغ، والأيدي تتشابك والجسدان يتلامسان ويسارعان إلى التخلص مما يعوق التحامهما.. عندما نزعتْ ثيابها أحسستُني، فجأة، كأنني الطفل الذي كنته عند عتبة الغرفة متطلعا إلى بياض الجسد المسجى. أنظر إليها بذهول كأن غشاوة انتصبت بيننا. كأن الاشتعال همد. وعشيقة تلك الليلة البيضاء لا تفهم شيئا ممّا باغتني. تسأل. تمرر يدها على جبيني. تُلصق شفتيها بصدغي منحدرة نحو تجْويفة الكتف، نحو حلمة الصدر، وجسدي متجمد غارق في النشيج كأنه مصعد تعطل بين الطوابق. كنت أحس بلسعات بياضها سياطًا تحملني إلى عالم آخر. الموت أبيض. الموت لا لون له يردّ عقابي. ولكنه، لحظتئذ، يدثرني من خلال التذكر المفاجئ المستيقظ على غير ميعاد. وأقرر منذ تلك اللحظة أن مشهد المغسل هو أقدم ذكرى أختزنها من المرحلة السابقة عن «تاريخي». غير أن اللعبة تستمر، أو بالأحرى، كانت مستمرة خلسة بدون أن أدرك فضاءها الذي جعلني أتحرك داخل إطار قوامه: أبيض/ أسود. انجذاب لا يقاوم إلى المرأة ذات اللون الأسود وأيضا إلى ذوات اللون الأبيض ما لم يكن بياضهن من صنف ما اختزنته الذاكرة ساعة رؤيتي للجسد الأنثوي الميت. ويبقى للون الأنثوي الأسود عندي، ميزة وَهَج الدفء والحياة. لكن الأيام أنبأتني أن كل علاقة عميقة لن تبدأ إلّا إذا أفلت من لعبة اللون التي تطمس أمام عينيّ الظلال والمزايا الأخرى. ثنائية أبيض/ أسود، مثل كل الثنائيات، تسلبني مسرة التوحد، مسرة اكتشاف الأصقاع

الأخرى. لكن من منا يعيش بدون ثنائيات حافزة، تلك التي تشحذ الإرادة والتحدي، وتسندنا في مغامراتنا من أجل البقاء والفهم والتغيير وتحمل ما يُنغص الحياة؟

ألن يكون عنصر الاستمرار في حياتنا هو التواجد الخفي ـ الفاعل مع ذلك ـ لما ورثناه منذ طفولتنا ـ ما قبل تاريخنا، حتى بعد أن يتبلور وعينا ونقتنع بضرورة تحمّل مسئولية أفعالنا؟ الماقبْل والمابعد يتعايشان داخل الجسد والذاكرة، ويبدو لاوعينا أليفًا ألفةً تسعفه على هزم وعينا. كأن الجسد استمرار قَدَري لهويتنا ما قبل التاريخية، ومغامرة الحياة تجعل منها هوية تشع وتتوارى كالومض، داخل حلبة التقلبات والاكتشافات، فتغدو كينونتها مُرتهنة بابتكار متجدد لأفق نتحرك فيه.

أبيض ـ أسود، خريف ـ شتاء، حزن ـ فرح، حب ـ كراهية.. بينهما تتناسج العواطف والأفكار والأحلام. من جدليتهما ينبثق مطمح الاستمزاج والهجانة المخصبة، وتنبجس الشهوة يافعةً منفلتة من مبدأ الرقابة والاعتياد.

منذ خمس سنوات، خلال زيارة لفاس، ذهبت أبحث عن ظلال ذكرى حاصرتني حينما التقطت أُذناي مقطعًا من أغنية «رق الحبيب» لأم كلثوم. ذهبت إلى مقهى «جنان السبيل» علّني أجده كما عهدته في الطفولة: أشجار الصفصاف، والعرائش المرصعة بالياسمين، وطاولات من خشب عتيق، والزبائن جماعات يحتسون الشاي المنعنع ويردّدون مع أم كلثوم:

والّلي في قلبـه شجـن أنعـم عليـه بالوصـال

أو مع أسمهان: «أين الليالي اللواتي»، وهم منهمكون في لُعبة الكارطة وأصواتهم تنقلب، مِنْ حين لآخر، إلى صراخ، لكنهم في الآن نفسه، يتمايلون مع الصوت الشجي مُعبّرين عن استحسانهم. كنتُ أسأم من الجلوس إلى جانب خالي سيدْ الطيب المنصرف عني إلى لعبته، فأتسلل إلى الحديقة العمومية لأتفرج على الناس والأطفال قبل أن يتكاثف الظلام ونقفل راجعين إلى بيتنا في المدينة القديمة.

الآن لا أصادف تلك الأغنيات ولا الزبائن المنهمكين في لعب الكارطة والضحك والغناء. أتابع السير إلى الحديقة العمومية وأجلس على كرسي بجانب امرأة ملثمة، متقدمة في السن بعض الشيء. الساعة تقترب من الثالثة ظهراً، وروّاد «جنان السبيل» قليلون. بعد فترة، ظهرت امرأة ترتدي «الحايك» وأخرى بقميص وتنورة، وقد وضعت على رأسها منديلاً أحمر. كانتا تتكلمان بصوت مرتفع كأنهما تتخاصمان. قالت امرأة الحايك:

ـ ضحَكْ عليك.

ردّت المرأة صاحبة التنورة:

ـ دابا عوْدْ يْطيح ف يديا ونتخلّص منّو.

قالت صاحبة الحايك:

ـ لْقاكْ كَانبوية. وْكْكان كنت أنا، والله ما نْخليه يَفْلت، والله يامُو وما بغى يْخلّصني حتى نزوّل لو فولة ونخليه غيرْ بوحدة!

قالت المرأة الجالسة على الكرسي نفسه الذي أجلس عليه:

ـ يا لطيف يا لطيف، ما بقي حياء ف الدنيا.

غلبتني الضحكة فوقفت منصرفا أخطو باتجاه المقهى القديم. أحاول أن أستنجد بما قاله شاعر الأغنية:

وإيــــه يفيــــد الزمـــن   مع اللي عايش في الخيال

أستحضر تموجات صوت أم كلثوم وامتداداته وهي تطيل التساؤل، ثم أرفع عيني فأجدني كأنني أخطو بين أطلال. شيئا فشيئا، افتح أذني لما يتناهى إليّ من نُتف كلام الجالسين في المقهى أو العابرين للحديقة؛ وأتذكر ـ بسرعة تحوّل إلى ذكرى ـ ما قالته امرأة الحايك لصاحبتها، فيعاودني الابتسام، وأفكر بأن علينا أن نتعلم التآلف مع ما يستمر في الوجود.

ثم يكبر العالم في أعيننا

يقول راوي الرواة

أحس أن قانون اللعبة الذي اتبعته لحد الآن، لم يعد يُقنعني أنا راوي الرواة القابع في الركن المعتم، الماسك بخيوط السرد، المتنقل لها من راوٍ لآخر. شيء ما يدفعني إلى التدخل. أحاول أن أحذره بأن كثرة الرواة قد تُضلّ القارئ وتلقي به إلى متاهة يفقد معها رأس الخيط. لكن، هل هناك خيط ممتدّ حقًا وسط هذه التذكرات والمشاهدات التي أُنيط بي أن أوجه دفة سردها وتوزيعها على الرواة الذين جُعلوا رَهْنَ إشارتي؟

المفروض فيّ أن أكون عنصر توازن يتكئ عليه الكاتب ليبدّد الغموض. لكنني لا أستطيع أن أزعم بأنني ألمس وضوحًا لدى من استنجد بي وأقرّني على رواته. عندما أفكر بيني وبين نفسي متناسيًا صفتي السامية، فإنني أتساءل عمّا إذا لم أكن نوعًا من الرقابة يمارسها الكاتب من خلال ما أقوله؛ فالمفروض أنني أعرف أكثر ممّا يعرفه باقي الرواة، وأن لكلامي وزنًا بصفتي مُطلقًا على الخَلفيّات وعلى

بعض التفاصيل التي خصّني بها الكاتب، ويمكنني أن أستعملها لأزحزح ما حكاه الآخرون.

ومن أدراني، فلعل الكاتب بإطلاعي على أسراره، إنما يستعملني في لعبة أكبر يتقصد من ورائها أن يموّه أو يزين ما هو مشوه؟

مهما يكن، فأنا راوي الرواة مطالب بأن أبرز دوري داخل هذه اللعبة. عليّ أن أمدّ عنقي إلى الصف الأول حيث يمكنني أن أتصدّر، وأن أوهِمَ نفسي بالتحكم في توجيه دفة الأحداث والوقائع، وحتى ترتيب الاستيهامات والأحلام...

ولكي أسبغ على نفسي أهمية بالغة، أبدأ بتقمص دور المزعج، المتمرد، الذي لا يتقيد بما يصدره المؤلف من تعاليم. أنا راوي الرواة وإذن، من حقي أن أصحح ما يرويه الآخرون ولو لم يكن بحاجة إلى تصحيح، فالرتبة تسمح لي بهذا الحق، وتسمح لي بأن «أُبين حنة يدي» كما يقال، حتى ولو اضطررت إلى إفشاء الأسرار أو تشويه الصورة التي يروم الكاتب رسمها لشخوصه وعالمه.. مثلاً، لقد سكت الرواة جميعهم عن بعض التفاصيل التي وقعت لـ«الهادي» في طفولته. وهي تفاصيل تتصل بإغراءات جنسية من جانب أولاد وشبان؛ فقد كان الهادي وسيما وسامة لا تعيبها إلّا نحالته المفرطة. كان «فَرْخًا» بحسب التعبير الشائع في لغة الحومة آنذاك. وكان الفتى البقال السوسي بالقرب من الدار الكبيرة، يلاطفه ويستدعيه للعب الكرة في سطح البيت الذي يسكنه. وهناك تبدأ المحاولات التي لم تكن تجد استجابة عند الهادي ربما لأن معاشرته لبنات الدار والأقارب حدّدت، مبكرا، ميوله الجنسية...

يمكن أن أنبش أيضا فيما وقع خلال الليلة الثانية بعد موت سيدْ الطيب، بأحد فنادق فاس صحبة صديقة من طنجة قابلها الهادي صدفة وهو في غمرة الحزن والكآبة الممضّة...

لكن كل ذلك قد لا يزيد من قيمتي في عين القارئ، لأن الأهم والأصعب هو كيف أوجه السرد، وألَمْلِم خيوط الحكي المتناثرة بين أكثر من سارد، لأجعلها مقنعة مثيرة لفضول القارئ.

كيف نحكي؟ هذا هو السؤال القديم الجديد. كيف ـ أنا راوي الرواة ـ أجعل رواتي يحكون انطلاقا من تجارب خاصة وأحداث عامة، واعتمادًا على ما هو مُعتبر هامًّا أو فاقدًا للدلالة.. كيف أجعلهم يحكون عن فضاء وزمان انتهيا، أو بالأحرى، يبدو أنهما انتهيا، داخل فضاء وزمان لا ينتهيان، داخل زمان سرمدي في حركته وتدفقه؟

وضعني المؤلف في مأزق: كتب كل ما عرف وتخيّل، وقال لي: «أريد أن تنظم سرد هذه المادة الخام في تشخيص يستوعب الكلمات واللّغات التي نسجت حكيَها داخل مخيلتي، غير أنني وجدتُ أن جميع ما كتبته لا يرتقي إلى قوة الرجع المشعّ الغامر للحواس والنفس. ألتجئ إليك، لأنني وأنا أعيد سرد ما عشته، وشاهدته، وتخيلته، وحلمتُ به، تبدو لي الأشياء والذكريات مختلفة مشوشة الصورة، باهتة بالمقارنة مع ما أعتقد أنني عشته وعاينتُه...».

قال الكاتب أشياء كثيرة، غير أنني حسمت الموضوع ـ دائما يجب أن يكون هناك من يحسم ـ ، بأن المسافة القائمة دوما بين المعيش والمتخيَّل والمكتوب والمحكي، تؤكد أن الأحداث والحياة بصفة عامة، تجري على أكثر من مستوى، متداخلة متشابكة.. مفهوم؟

وإذن، سيكون جهدا ضائعا أن نعمد إلى إيهام القارئ بواقعية ما نحكيه.

سأعطي الأولوية لِرَصْد أصداء ما نحكيه في نفوسنا، نحن الرواة، من خلال ما تبقى في مخيلة الكاتب وذاكرته. هل من معنى لما يحكيه بالنسبة له؟ لا المعنى المتداول، ولكن المعنى الذي يشبه بقايا الوشم المحفور على الجلد، يلتمع في لحظات الخلوة والبحث عن إيقاع الذات وأفق التصالح مع الكون والآخرين.

لا تتحفز لمقاطعتي. أعلم أن ما نعيشه ونرويه مشترك مع التيار الأعم الذي يُكيّفنا ويحدد رؤيتنا وقيمنا ومواقفنا. لكننا ونحن نحكي عن شخوصنا، عن فضاء وزمان معيّنين، إنما نُعيد الاعتبار لقطرات الماء الضئيلة وسط خِضَمّ الأوقيانوس. نَنسج وشم التأثير المتبادل، ونُجمع من حولنا القطرات الشبيهة بنا لنغدو تيارًا يتماوّج ويلوّن هدير البحر بِنَبْرته.

تريد مثلاً؟

تحمّل وقاحتي، أيها الكاتب، إذا كنتُ أستعمل طحينك لأعجن خبزةً أُدلل بها على نباهتي؛ فأنا أريد أن أقنع القارئ بشطارتي وحسن اختياري في توجيه دفة السرد. سأضرب مثلا بواقعة السيد «الضب» غفر الله له. أنت أشرت لها في الهامش مع احتمال استثمارها بشكل آخر، أي البحث عما آل إليه أمره بعد خروجه من السجن، وكيف يعيش الآن، وهل ما يزال الناس يتذكرونه... إلخ. أنا أرى عكس ذلك، أي كنت أُوثر أن تحكيَ الواقعة لتتبيّن تداخل العام والخاص. كيف؟ لقد أخبرتك الذاكرة أن ذلك حدث في سنة ١٩٤٦ أو ١٩٤٧

فاس، ولم يكن عمر الهادي قد تجاوز الثامنة. ذات صباح مشرق
. ربما بداية الصيف ـ امتلأت الأزقة والأشبلة، واصطفّ الرجال
والنساء والأطفال، وتدلّت الرؤوس كالعناقيد من فوق السطوح
والشبابيك والطاقات، في انتظار موكب المخازنية الذين يُطوّفون
«الضب» عبر مسالك المدينة كلها، تأديبا له على ما اقْتَرَفَهُ في حق
فتاة من عائلة معروفة كانت ضمن الفتيات الرائدات في الالتحاق
بالمدرسة، والخروج سفورا تلبية لنداء الملك الذي أعطى المثال
بابنته..

وتحكي أن الهادي كان مستثارا وهو يدسُّ رأسه بين المناكب
والأرجل ليُبصر وجه «الضب». على بعد عدة أمتار، كان المخازنية
يمسكون به وقد أوثقوا يديْه إلى الخلف، وحلقوا رأسه، والدم ينفر من
أنفه، والسوط ينزل على رأسه ووجهه وعينيه المنتفختيْن، وأصوات
المخازنية تُلعلع: «هذا جزاء من يعصي أمر سيدنا...».

سيهتم الهادي بمعرفة التفاصيل، أو ـ كما قلت ـ فإنها بلغتْه
من خلال الكبار الذين لا يتورعون عن أن يحكوا كل شيء أمام
الصغار. وصفوا كيف تعرض «الضب» للفتاة عند انصرافها من
المدرسة، وقادها عنوة إلى جنان قريب حيث عذّبها قبل أن يفتضها
بوحشية وفظاظة، ثم التجأ «مُزاوكًا»، مُحتميا بضريح مُقابل لضريح
المولى إدريس، اعتاد المذنبون أن يحتموا به. لكن الأوامر صدرت
بإخراجه من الضريح لأن للمسألة علاقة بالحركة الوطنية وبرموزها
ومشاريعها...

ما يهمني أكثر، أنا راوي الرواة، هو ما أشرت إليه في عجالة

عندما قلت بأن صورة «الضب» ذي الجسم المدكوك، والوجه «المخنّفش» وجلطات الدم المتخثّرة على جلبابه، قد ظلت عالقة بذاكرة الهادي، مختلطة بما سمعه وتخيله عن الفتاة ـ التلميذة العارية الجسد، الموضوع رأسها في داخل قادوس.. صورة الجنس والعنف والزجر والعقاب، وما توقظه في مسارب جسد الهادي ومسامّه، صورة ظلت تطفو وتختفي إلى أن عادت بقوة كاسحة بعد عشرين سنة، عند ما كان، تقول ـ والعُهدة عليك لا على الراوي ـ يشاهد فيلما يابانيا بباريس يحتوي مقطعا عن المضاجعة حتى الموت: كانت فتاة الفيلم في حالة لابشرية وهي تتضرع للشاب المفتول العضلات، الشاهر لأداته الجنسية. تستزيده وتهمس له ألا يتوقف. تلهث. يتحركان من تحت لفوق، ومن فوق لتحت. تتأوه الفتاة من غور الأحشاء، والرجل كأنما يأتي حركة بسيطة لا تكلفه جهدا. يطول المشهد. دقّات على الباب. ينتزع الممثل جسده ليفتح الباب. شخص يفاجئه بضربة على الرأس. يَنْبَجِس الدم. يترنّح. والفتاة تبكي وتتضرع. تستلقي فوقه ـ وهو يحتضر ـ لتتابع فكرتها الشبقية التي أحالتها إلى لبؤة...

من يذكر «الضب» الآن؟ أقصد من يذكره بنفس الطريقة التي عاشت بها ذكراه داخل جسد الهادي وذاكرته؟

لعلك اقتنعت بأن من حقي أن أتدخل أكثر، وألا أكتفي بتنسيق الخيوط والأسلاك من وراء ستار. قد يزعجك ذلك، لكنني أرجوك أن تعتبره تكملة للعبة تضعك أمام عناصر لم تتخيلها أو آثرت السكوت عنها.

لنتابع، إذن، ما بدأناه. سأعطي الكلمة لشخوصك، إلا أنني أحتفظ بحقي في التدخل. أقترح عليك أن تسمي هذا الفصل: «ثم يكبر العالم في أعيننا»، لأن الهادي بعد انتقاله من فاس إلى الرباط «أ يكتشف الأشياء والأشخاص في اختلافها وتنوعها وتعقيداتها، لا كما كانت تبدو له في داخل مدينة الطفولة، المدينة ـ الرَّحِم، الواحدة ـ الموحدة.

سي إبراهيم يتكلم

دابا أنت تتسوّلني على بزّاف ديال الأمور، وباغيني نجاوبك عليها. هاذ الشيء تيْخصو وقت طويل، وأنا تابعاني صلاة العشاء، وصعيبْ عليّ باش نحكي لك على حياتي من الصغُر.. ما تاخذهاشْ من قلة الصواب. على كل حال غادي نْعود لك شي بركة، ولكن ما تكْثَرْش عليّ السؤالات. وهاذ الشيء اللي غادي نقولو لك آوْدي الأستاذ، راك تتعرفو، ما تنْتْشي بزّاني، أنت واحد منا وشْحالْ من مرة سمعتني تنحكيه لاولادي. إنما دابا جاك على البال باش تْسَجلو في المسجلة، إيوا أنا عمري ما عملت هاذ المسألة، غيرْ وجهك عندي عزيز أوْكَانْ، أما أنا ما نبغيش نحكي للآخْرينْ على حياتي. أنا عْشت في السّتْرة ونبغي نموت في السترة، ستين عاما راني فتّها لْهيهْ.

أنا مولود حدا «آيت باها» عرفتها؟ فْنايْنْ جيتْ للرباط كان عمري عشْرْ سنين. عمري ما دخلت للمدرسة، والوالد الله يرحمه كان ياخذني معه للجامع باش نصلي ونسمع ما قال النبي والرسول. كنت تنسرح الغنم، ومن بعد جا الجفاف والقحط، نسأل الله السلامة

والعافية، وطلعت لي الدنيا فَالرّاسْ، ومشيتْ عند الوالد وقلت لُو لازم نمشي للرباط عند ولد عمي باش نخدم ونربح لَفلوس بالمعقول. إيوا هو ما بغشايْ يْصيفطني. جيتْ أنا واحد النهار عشّيتْ عليه حتى خرج، ومشيت للحفرة اللي كان تَيْخَبّي فيها لفلوسْ وخديت منها حداشر ريال حسْني؛ كان لِيها بَالْ في ذاكْ الوقت، وعوّلتْ باش نهرب في الصباح، لكنني ما قدرتش وما ذانيش النعاس. وفي الصباح رجّعتْ لفلوس لْبْلاصتْهم، وبقيت حتى لواحد النهار جا عندنا فقيه مجذوب بْغى تَيْشُوفْ فيّ وقال للوالد:

«أبَنْ مُوحْ ولدكْ إبراهيم تيخصّك تخليه يمشي للرباط، وَاهْ بعدا كان غادي يهرب لكم ويمشي وَخْلُّو. خليه يفتش على رزقو، على وْدْ هنا ما بقى غير الحجر والجرادْ...».

إيوا أنا منايْن سمعت هاذ الكلام قلت التسليم وقمت بستْ لو يدّو ويد الوالد. هكذا كان. الأغدا لِيهْ مشى معيا الوالد لْلْكَار وقطع لي البطاقة وقال لواحد الرجل تيعرفو: «الله يخليك هذا واحد الريال خليه عندك إيلا إبراهيم احتاج شي حاجة شْريها لِيهْ»؛ ما بْغى يعطيني حتى فَلْسْ، قال لي:

«نوصيكْ أوْليدي إذا بْغيتي تربح فالدنيا والآخرة، هذاك الشي اللي تيشربوه هناك ما تذوقو، وهذاك الشي اللي تَيْكْمِيوْه ما تْقربو، الزّنا بَعّدْ منو، وحافظ على الصلوات الخمس وما تسرق ديال الناس. هذا ما نوصيكْ بِهْ».

منايْن جيتْ للرباط كْلَستْ شُور الأولى عند ولد عمّي. كان تَيْبَيّتْني في الهْري ديالو حدا جامع مولاي سليمان، حتى جمعت

شوية دْلفلوس وشريت الصندوقة باش تيمسحوا السّبابَطْ من عند واحد الشلح بثمانين ريال: ثمانين ريال لها بال ذِيكْ الساعة، وباع لي «لاليسانسْ» باش وَليتْ سيرُورْ. إيوا جاب الله التيسيرْ بديت نْرْبح ستة، سبعة دْ الريال في النهار. كانوا النصاري ما زال مَا خْدَاوْ دْالفيلالت، خداوها حتى لعام ١٩٣٣.. وكنت تناكل غير بفرنك في النهار، والشّي لاَخُر تَنْخَبّيهْ، وكل مرة في الشهر تنيبط للدار البيضاء باش نشري للوالد خنشة ديال السكر وصندوق دا أتايْ فيه عشرين كيلو، وتَنْصِيفَطْها لو مع لْكِرَّاتْ ديال شركة «آيت مْزال» وهي تتوصلها لو حتى للدار...

من بعد ذاك الشيء وليتْ تنخدم فواحد المحل حدا أوطيل «باليما» كان سْميتْو «سيرنوس» وكان فيه قهوة ومطعم ومحل كبير تَيْعَملُو فيه لَفْراحاتْ. مولاتو النصرانية قالت لي غادي نخدموك فالصّالة مع لكراسنْ، وشراتْ لي حوايج الخدمة من الدار البيضاء، بديت تَنْكابَلْ لَكْليانْ مزيان، وبداوْ تيعطيوني البوربوار بزاف وتيقولو لي: «Toi, tu mérites»، والمعلمة حتى هي زادتني في الخُلْصة وكانت تتعطيني ١٠٠ ريال زايدة على لَكْراسنْ لاَخرينْ.

في عام ١٩٣٧ وليت نخدم في بَارْ هتريس هاداك اللي قْبالْة لاكار دْالمشينا، عْرَفْتِيه؟ راهْ ما زال كاين حتى يومنا هاذا. كنت تنخدم فيه بُوحْدي وتنربح مزيان. ديما كان عندي لفلوس. شوية شْوِيَّة بغيتْ يكون عندي شي صاحب باش إيلا مُتّ نْجْبَرْ اللي يَدْفَنّي. هاذا ما قال لي عقلي، كان تَيْخَصّني واحد الصديق.

تْصَاحبتْ مُورّ الاولى مع واحد لَخْليفة دا الباشا بركاش:

ماعْجبنيش. عاود تصاحبت مع القايد بن ناصر، خدّام في القصر الملكي، كان مراكشي وَاحدْ بُوكَرْش.. ثم تصاحبت مع واحد الطنجاوي كان خدام في المجلس الأعلى.. وتصاحبت مع واحد سي رضوان عندو أملاك في شالة ومشيت عندو للدار، ومن بعد ماكْلينا جابو الكارطا، جيت أنا اللآغدّا مارجعتش لعندو، على وَدّ الوالد وَصّاني ما نخالطش بْحالْ ذاك الناس...

أختصر لك في القول، كنت نهار الجمعة تنمشي لِـ«حسان»، ذاك الساعة ما كانش مصوّب بحال دابا، كان غير خلاء.. كنت تنمشي لابسْ الكسوة دَالْمَحصور، وتنبقى نْتْشَارَى حدا السواري دا الجامع، وحتى واحد ما تيعرفني شنو تَنْدير. آزْانَا الشريف الله يرحمه كان حتى هو تَيْجي لَهْنَاكْ، وتيشوفني وتنشوفو بلا ما نتكلمو. واحد النهار أسيدي جا عندي لهنيس بَارْ، وجابْ معه، ما زال تَنَعْقَلْ، واحد العبد صغير بالخُرْصة فَوْدْنيه. هو كالس وأنا تابعو بْعَيْني. ومناين جا يخلصني قلت لو: مْخَلَّصْ. قال لي شكون خلص؟ قلت لو: أنا. قال لي: خُذ تخلّص وإلّا عمركْ ما تشوفني. إيوا قلت لو كلام آخر هاذا، كال لي خذ هاذو بركة منّي. قلت لو: مناين قلت لي بركة ما نردّهم فَرْجْهَك.

دوّز واحد الصيمانة وْجَا نهار الجمعة للقهوى ما جبرنيش، رجع نهار السبت وقال لي: البارح ماكنتيش؟ قلت لو: آسيدي خْلقْنَا الله تعالى ثلاثة دْالَعْياد فالدنيا، قال لي أما هي هاذ الأعياد؟ قلت: نهار الجمعة عيد في السماء وعيد في الأرض. قال: زِدْ. قلت: وفيه واحد الساعة دَ الربَحْ ما عْرفتشاي واش تتكون حيث تيتكلم الأذان، أو

ال، حيث تيتكلم الفقيه، أو مناين تيكلس وَيْنُوض من على المنبر.
قال لي: صَدَقت؛ زد شنو هو العيد الثاني؟ قلت لو: عيد رمضان.
قال لي: زد الثالث. قلت له: العيد الكبير. قال لي: وْفايْنْ خليت عيد
المولد؟ قلت لو: المولود ذكرى النبي ﷺ. قال لي: وباش فضلت
نهار الجمعة؟ قلت لو: أسيدي نهار الجمعة خلق فيه الله تعالى
سيدنا آدم، نَزّلُو فيهْ الطَّبْلة والقلم، ثم توفّاه نهار الجمعة، والحقيقة،
النهار عندنا عيد. قال لي الشريف: أحسنت. إيوا وطلب مني باش
نمشي عندو نهار الجمعة للدار.

هكذا كانْ، مشيتْ عندو نهار الجمعة وبدأتْ الناس تّجي كل
واحد، تبارك الله، لْحَيْتو حتى لَهْنا، وبْدَاوْ ذكر الله. ما نكذبش عليك،
وقفْ لي الشعر في راسي. عْجَبْني الحال. قلت لو: أسيدي أذّنْ معايا.
قال لي: إيلا بغيت الجمعة الماجية عَوَدْ أجي.

بديت كل جمعة تنمشي لعندو. ولما قامت الحرب العالمية الثانية
ولّتْ الوقت صعيبة. الحرب لهْلا يجعل الإنسان يكون فيها. كل شي
ولّى بالْبُونْ. قلت لو: أسيدي إيلا بغيت نتسخّر لك للدار أنا يمكن
لي نجيب لك اللحم والسكر بلا بونْ، عندي صحابي فرانسويين
ومغاربة.. كذلك كان.

واحد النهار قال لي الشريف: سّي إبراهيم تيخصني نْزوجك.
كنت خايف من الزواج، خايف ناخذ شي مْرا تلعب بيا. جا هو قال
لي: غادي نزوجك وْتْرْحَمْني وأنا باقي في الدنيا. وهكذا كان. والله
إيلا كنت نترحمو وهو باقي حي. لأنّه نجبة مْرا مزيانة، صبّارة. ما
عندي ما نكول.

هذاك الشريف ما عندو ثمن، وخّا كان تيحب الطواجين الله يرحمه وْتيقْسّحْ لكلام مع اللي ما تيْعرّفهومْشْ. أنا تنعرفو مزيان. سافرت معه لا يفران، ولمولاي إدريس ديال زرهون، وكان تيْنعس في الكيطون وأنا على برّا تنْتصنّتْ. كان الرجل ناعس وتيذكر الله كأنما فايق. العجب. عمري ما شفت بحال ذاك السيد. واحد النهار كالها ليا، قال لي: انت تتنعس حدايا، ما تْفْحْشْ بالخير ديالي. أنا عمري ما قال لي شي حاجة خايبة. تيْخص الواحد يكون قلبو خالص لربي العالمين...

.. إيوا حقّا الأيام تبدلت كيف قلت. قبل الاستقلال كانوا الناس متشبثين بالأخلاق المحمدية. دابا كل واحد تيفتش على ما يخطف ويْدّي. أنا ما قلت لك والو. التّولتيك صعيبة أسيدي مولاي، هاذ الشي تنعرفو من أيام الفْرنسيس. كانوا تيْجيوْ عندنا لبار هَنْريس غير ياهوما: كابرانات وكْلونيلات، وكُونترولوراتْ في البيروآراتْ.. وأنا كنت تَنْعْتني بهم مزيان، تَنْسرْبيلْهم وْنْوقفْ حداهم وْنْرخي وْذْني. كانت الحرب ما زالا عاد بْداتْ وهما خايفين من لالْمانْ ومن المغاربة اللّي بداو تيكتبو على لْحيوط وتيصورو لْكروا ديال لالمانْ. إيه آسيدي مولاي، كانوا خايفين بزاف، وكان واحد لكونترولور سيفيل، ما زال تنشوفو ما بين عينيا، قصير وغليظ تيشرب الرُّوجْ صيفْ وْشْتا، كان جا عندي واحد النهار وبدا تيسوّلني على الحرب، وعلى شنو تيكولوا الناس: واش باغيين فرنسا تربح والاّ لالمان. أنا كنت دايما تَنْجاوبو: «اللي بْغاها الله احنا معها»، وهوا ولْد الحرام، كان تيكول لي: «الله معنا، إيلي صانْ لا بوشْ (Il est dans la poche)، أستغفر الله».

قبل الاستقلال، المغاربة ما كانش عندهم البوفوار، يعني ما كانوش تيحكمو. كان لفلوس موجودين واللي بغى يقضي حاجة يدفع لفلوس. دابا، اللي عندو الحكم في يدو، راه تيلعب. الحجْر زال. كان الناس تعاطف وتيسلفو بعضيتهُم. اليوم لا تطوّر الوقت، اللي مشيتو عندو، وخّا عندو المال، يكولك أنا عندي بزاف دالْبيبانْ ما لْسدّ. ومن طبيعة الحال، هاذ الشي اللي تنعيشوهْ راه كان كالْها سيدنا... سيدنا علي كرّم الله وجهه، في المنامة اللي كان حلمها. كان كالك تْعسّ وْمثّل لو الله تعالى أنه ادخلْ لواحد القرية، وْجْبرْ الواد حامّلْ: الحجر الكبير تحت، والحجر الصغير لْفُوقْ، قال: هاذا عجيب! الواذ حامل غير بالحجر الصغير والكبير. زاد، جْبرْ واحد العود كل ما يُطْلَبْ قدّامو دالخيراتْ، ولكنه يابس بحال الحجرة، قال: هذا عجيب! زاد، جبر البكرة والْدة وتترْضعْ راسْها، قال: هاذا عجيب! زاد، جبر واحد المحلْ الصّهْد فيه بحالْ جْهنّم واحداةْ شجرة كبيرة، قال مع بالو تحت منها غادي نْجْبرْ شوية دالْهْوا. لما دخل تحت الشجرة جبر الصهد ديالْها كْثر من صهد الشمس، قال: هذا عجيب! زاد، قالك جبر واحد لْكطيعة دالْغْنم لْحدّ الشوف، وفيها واحد لكْبيْش بْرّ تيْرضْعْهُم كلهم وتيغوّت ما زال ما شْبعْش، قال: هذا عجيب!.

الّْغدّا في الصباح مشي سيدنا علي لعند النبي ﷺ وحكى لو حكايتو. جاوْبُو النبي وقال لو: اللّي حْلمْتيه هو اللي غادي يْوْقع في قرن ربعتاشر يا علي. هذاك الواذ اللي جبرتيه حامل الحجر الكبير والصغير فوق منو، هو بْنادمْ ديال ذيك الساعة (سي إبراهيم يْعلق: واش بنادم الصغار عندنا تيحترمو الكبار؟ أنت داير وهما تيلعبو الكرة. زمان، كنا تنحترمو اللي كبر منا. اليوم لا، الصغار راكبين فوق

الكبار، ما يقشاي الحيا). كال لو النبي: هذاك العَوْد اللي جبرت كل شيء قدامو وهو يابس، هو التاجر ديال ذاك الوقت، غادي تكون عندو الخيرات وهو مريض.. وكذلك الصهد اللي جبرت تحت الشجرة، معناه التاجر في القرن ربعتاشر تسمع عندو الملیارات، ولمّا تطلب منو يْسَلْفك أو يعاونك، يكول لك عندي الضريبة، عندي كذا، مَشَاكِلُو كثر من ديالك تيخصك تهرب منو. قال لو: والبقرة اللي والدة وترضع راسها هي بحال لعيالات ديال ذاك التاريخ (كاين شي عائلات تتزوج البنت ديالها وَتْطَلَّقْها باش تعيش بها حاشاك...) قال لو: أما القطعة دالغنم اللي تَيْرْضعها واحد البَرْ بْلا ما يشبع، فهي بحال الرؤساء ذْيال هاذ الوقت. ما كذبش ﷺ. شوف هذاك الرئيس الأمريكاني شحال عندو، ودايمًا تابع البلدان الاخرى تَيْرْضَعْها كلها وما زال تيفوت ما سبعانش.

هذا هو قرن ربعتاشر لا هنا لا معاش كيف كال المجذوب، قرن ربعتاشر بكى عليه النبي ﷺ.

دابا دخلنا في قرن خمستاشر، وكاين اللي تيكول لك غادي يجيب الله الضو للاسلام في هاذ القرن.. الشبان اللي تَيْتْكَوْنُو يمكن يدافعو على الاسلام. يمكن يكون واحد الحل من هنا لْلقدام. لا بد الواحد ينوي الخير. دابا يجي اللي يصلحنا، غير احْنا ما قابطينش الطريق. خرجنا على الطريق. اليهود ما كانوش شادين الطريق، ضربهم الله تعالى، شخطْ عليهم سيدنا داوود، وسيدنا سليمان، وسيدنا موسى، وعيسى بن مريم، والنبي ﷺ. اليهود مساخيط، تْشَتْتُو. لكن دابا المصيبة الكبيرة هو الأمريكان اللي تَيْأَيْدهم. شوف الرومان شنو

الناس دايرين في العالم، وفي التالي تّاقصت بِنّاتْهُم، وتشتتُو، وجات النهاية ديالهم...

غداً، ما عرفناش آش ماشي يكون. إيلا بغى الله تعالى يكوّن حاجة فنها. الدنيا تتغير. وْكَكّانْ المغاربة يخدمو، يصلحو بلادهم وْيَعْتَنِيوْ بها، راه المغرب ما كاينش بحالو. عندو النّعم والخيرات، ولكن خص كيف كال البابا (Le Pape)، رانا سمعتو في التلفزيون، كال خص (la justice)، العدالة، على وَدّ الظلم لا يُنْتَصَر! جابها، وْجابْها في المفصل...

لمتيم

عندما رأيت سي إبراهيم، أول مرة، وجدته جميلاً، ممشوق القامة، عيناه عسليتان، وشعره أسود فاحم، وابتسامته أليفة.. كان ذلك أثناء حفلة الخطوبة. والمرة الثانية كانت بمقهي هانريس أو على الأصح ـ وحسب ما تؤكده اليافطة الآن: (Henry's Bar). كنتُ صحبة الأم والأخت راجعين من مسجد أهل فاس الكائن بتواركة حيث كنا نتفرج على صلاة الجمعة التي يحضرها الملك، ويعزف خلالها عسكر سيدنا على آلاتهم النُّحاسية وهُمْ مرتدون لبدلاتهم البيضاء ذات الأشرطة الحمراء، وقبعاتهم مشدودة بِرَزّات بيضاء، ولون بشرتهم الأسود يلمع تحت أشعة الشمس.. فرجة تقليدية تُسلي الأطفال والنساء خاصة. وكانت الفاتحة قد قُرِئت منذ أسبوع، والاستعدادت جارية للاحتفال بزواج أختي من سي إبراهيم، لأن الشريف لم يمهلنا أكثر من شهر. كانت أختي تحاول أن تسترق إليه

انتظر من رصيف محطة القطار. لكنها لا تلمح إلاّ طيفه المسحوب المتحرك برشاقة بين طاولات المقهى. بدون استئذان، أنفلتُ من يد أمي وأجري صوب المقهى. تناديان عليّ، لكنني أكون قد وصلت إلى سارية هنريس بار وبدأت أتربص الفرصة لأشعر سي إبراهيم أنني موجود. بعد حين تنبّه إليّ، فأخذ يرحب بي مثلما يفعل مع الكبار. أهلاً سي الهادي نهار كبير هذا.. تفضل، شنو تبغي تشرب، مع من جيت؟ لا أجسر على ذكر اسم أختي فأكتفي باسم أمي وأنها تنتظرني قرب المحطة. يُجلسني على طاولة ويقدم لي الموناداثم يحمل إليّ علبة كبيرة من البونبون الأمريكي الشهير.

وجهه نَسَجَ ألفة بيننا لم تمّح أبدًا. كان يحبني لأنني مجتهد في المدرسة، وأحببتُه من خلال قدرته على الحديث وحكي القصص والاستشهاد بالأحاديث النبوية وبما يسمعه في المقهى من آراء وتحليلات سياسية، وما يلتقطه عبر الإذاعات. كان ـ عرفتُ ذلك بعد إتمام الزواج وتقاسمنا السكن في بيت واحد ـ لا ينام إلا والمذياع مفتوح وهو يستمع إليه قبل أن يغفو؛ وكثيرًا ما يظل صوت الراديو مسترسلاً حتى الصباح.

لبضع سنوات، اقتسمنا سفلي أحد المنازل بالمدينة القديمة. كنت أنا وأمي وأخي الطايع نسكن في غرفة، ونستعمل قبوًا ـ كان في أصله مطفية ماء ـ قاعة للدرس رغم رطوبته الشديدة. وكانت أختي وزوجها يعيشان في غرفة واحدة، والمطبخ والمرحاض مشتركان. في «الفوقي» تقطن عائلة من فاس، وأخرى فوقها في «المصرية» وغُرف السطح. وقبل أن تلد أختي طفلها البكر، دأب سي إبراهيم

على فرض قيوده وإصدار تعليماته إلينا جميعًا، لأن نمط حياتنا المنفرج المتخفف من التزمت، لم يكن يلائم مزاجه المتشدد مع الدين قبل الغير. كثيرًا ما كان يكرر مشاهده الوعظية مع أختي بصوت مرتفع حتى يسمع كل من في الدار:

«أنا ما نبغيش المرا تخرج للزنقة. جامي، «جامي» (Jamais)، اللي بغاتك من أحبابك يْجي لعندك، وسيد العربي بن السايح تْوَصْلو حتى لدارك؛ وما نبغيش تجي ونلقاك كالسة مع مالين الفوقي او مالين السطح... كلها يْلْزْمْ ما حدّ له...».

طبعًا ترد الأخت وتدافع بأنها لا تخرج وحدها بل بصحبة والدتها، وأن الجيران هم أولاد ناس ولا يمكن أن تظل النهار قَمّا طوال داخل غرفتها المعتمة كأنها في حبس. وينتهي المشهد بالنشيج والبكاء، وتتدخل لالّة الغالية لتُطمئن سي إبراهيم بأن كلمته هي التي ستكون، وأن عينيها ساهرتان أكثر منه على فلذة كبدها.. بينما أكون، أنا والطايع، في الغرفة الأخرى نُبدي تبرّمنا من هذا العزرائيل الذي خرج لنا من الجنب يُكدّر صفاء أهل البيت المنسجمين، ويُحصي أنفاسنا، ويمنعنا من لعب الكرة في الزقاق وداخل فسحة وسط الدار الصغيرة.

بعد أن أهل مولوده البكر، بدأ سي إبراهيم يتغير قليلًا، لكنه ظل صارمًا ومتحدثًا بالوعظ والإرشاد. فعندما ينتهي من صلواته وأدعيته وأوراده، يقعد على جلدة الخروف الوثيرة، والمسبحة بيده، ويأخذ في محادثتي أنا وأخي. يبدأ من تفسير حديث نبوي، وينتهي بسرد قصص خرافية سمعها في سوس وهو طفل، فكُنا نجد فيها نوعًا من

التحريف اللَّذِيذ يجعلنا نُنصت إليها باهتمام خاصة وأن لهجته كانت تثير ضحكنا، فكان ينهرنا قليلًا ثم يتابع حَكْيه.

أصبح سي إبراهيم، وسط سكان الدار، مرادفا للتمارة والمعقول والتقوى والجد والعمل المتواصل. كريمًا كان ولكن في اقتصاد. يعمل لآخرته كأنه سيموت غدًا، ولدُنياه (لأولاده) كأنه سيعيش أبدًا. بذلك استطاع، بعد بضعة أعوام، أن يشتري منزلًا وأن يبدأ في استثمار مدخراته. لكن استقامته لم تُتح له أن يغتني كثيرًا فظل حتى بعد أن أصبح له أحد عشر ولدًا وبنتا، وبعد ثلاثين سنة من الكد والتعب، يعيش في حدود الستر وكفالة ما تحتاج إليه أسرته الكبيرة.

وأنا أنظر إليه الآن - وجهه لم يتغضّن كثيرًا - أحس نفس الانجذاب إلى شخصه منذ أن كنت طفلًا. الابتسامة الأليفة ذاتها، والعينان الذكيتان، والفضول لمعرفة ما يحدث في العالم، والجرأة على قول أفكاره وتأملاته ولو كانت بعيدة عن الهدف.. نفس التلقائية ولو أن الزمان جعله أكثر مرونة وتسامحا مع أولاده وبناته. أحاول أن أختزل سبب انجذابي إليه فأحتار. أتذكر دومًا حرصه على عمله وعلى هندامه: القمصان البيضاء بدون «رقبة»، والرقبات المغصولة التي يستبدلها يوميا، والبابيون الأسود، والبدلة الزرقاء الغامقة ذات الصدرية المزَرَّرة. وقبل أن يمتطي دراجته، يضع مِلقطَين في أسفل البنطلون تفاديا لوسخ سلسلة الدراجة. حركات مكرورة. مضبوطة. وعادات منتظمة، وتكتم شديد. حين يعود إلى البيت يرتدي الجلباب والبلغة ولا يفتُرُ عن ذكر الله وتلاوة القرآن بصوت مرتفع. كنت أتطلع إليه دائمًا باندهاش: هل لأنه كان قادرًا على أن يعايش الفرنسيين

ويتكيف مع حياتهم أثناء العمل، وفي الآن نفسه يظل قريبًا منا داخل البيت؟

في تعرجاته، في تنوع نمط حياته، ظل مشدودًا إلى هدف لا يحيد عنه: الاهتمام بزوجته وأولاده، وتحمل كل الأعباء في سبيل أن يكفل لهم حاجاتهم. حياة بسيطة وعادية، لكنها دائمًا تثيرني وأنا أستعرض مراحلها وتفاصيلها.. وأنا أسمعه الآن يسترجع مسيرته ومغامرته منذ أن خرج طفلًا من «ديلي» مسقط رأسه بالقرب من آيت باها، لا أستطيع أن أن أختزل سرّ وحدته داخل مسار، لأنه عاش باستمرار محاذيا للحياة في تنوعها وتناقضاتها.

ذات مساء، نزل سي إبراهيم إلى القبو حيث كنت مع أخي الطايع نراجع دروسنا. تحدثنا في موضوعات عامة، ثم أخذ يحكي لنا قصة لم يسبق له أن حكاها. قال إنها وقعت له بعد انتهاء الحرب ودخول الأمريكان. «اسمع أسيدي مولاي» تلك كانت عبارته المفضلة لإثارة الانتباه: «واحد النهار جا عندي واحد الأمريكاني لهاذ القهوى اللي أنا خدام فيها، هنريس بار. كان لابس الصّايْلة البيضا المخططة بالأزرق، وْحَاطّ الكيبّي على راسو. ما عليناش. طلب مني نْسَرْبي لو الويسكي، سَرْبيتو لو. شرب وعاود، وبدا تيتكلم معايا وأنا تنجاوبو على قدْ لْميريكانية اللي تنعرف، وتْنْسَيّس معه ونعملو خاطرو. إيوا زاد فيه، بدا تيدخل في الهدرا ويخرج، وطلب مني حاشاكم نجيب لو شي مْرا. شفت فيه وحمَرتْ وقلت لو يخلصني ويزيد خلفة. بدا تَيتْقبّحْ عليا وسَبّني. إيوا ما نكذبش عليكم، ما رضيتش وطلع لي الدم لراسي وبغيت نطير عليه نْقجو تَمْ تَمْ. عاود قلت الله يخزيك

الشيطان. واحد الشوية وهو وقف باش يمشي للتواليت حاشاكم، وأنا تْبان لي فيه. خليتو، حتى دخل وشد الباب عليه، ودخلت أنا للكابينة اللي حداه وجبدت واحد لمطرْقة صغيرة دايمًا كنت تنْخَبّيها معايا، وعطيتو ضربة في لعروق دا الراسْ، ورجعت في حالي بعد ما خبيت المطرقة في الشاسي. دازت واحد الساعة مكانية وعاد جْبْرو الميريكاني ميت في التواليت. جا البوليس وسقساني قلت لو راه شرب بزاف وكان سكران مناين مشي للكابينة وما رجعش. من بعد البحث قالوا راه طاح على راسو ومات. الله يسمح لي ويغفر ذنبي.. هادوك الميريكان ما مْرَبيينْش أسيدي مولاي، وأنا ما رضيتش يسبني ويسب أمي وابا والملة ديالي.. وغير بالحيلة خذيتْ ثاري منو. تْيْخص الواحد يعرف يْخَدّم عقلو أسيدي مولاي..».

دُهشتُ أنا والطايع مما حكاه لنا سي إبراهيم. هل هذا ممكن؟ أن يقتل أمريكيا وهو الحريص على عمله وسمعته وتديُّنه؟ وما معنى أن يحكي لنا نحن ذلك؟ قلت ساخرًا: «لعله أحس أن قصصه القديمة لم تعد تُثير اهتمامنا، فاخترع هذه القصة ليعيد الاعتبار إلى ما يحكيه...».

لكن قيمة سي إبراهيم زادت في عيني. بدأت أنتظِر عودته في المساء بهندامه الأنيق ووجهه الغامض، منذ تلك الليلة، علّه يحكي لنا مغامرة جديدة وقعت له في المقهى. غير أنه لم يعد إلى تلك الحكاية. بعد عودته من الحج، وبعد مرور أكثر من ثلاثين سنة على قصة الأمريكاني، سألته ذات يوم عن صحة ما حكاه لنا أنا والطايع. ضحك ضحكته القصيرة وقال:

«إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يغفر أن يُشْرك به. أنا كنت نمشي ساعة ساعة للسينما بلا ما نقولها للآنجية، لأن السينما فيها فوائد وتتفتح البصيرة وذاك النهار شفت واحد الفيلم بوليسي وجاتني الفكرة باش نألف لكم قصّة جديدة.. وكان ذاك النهار واحد لميريكاني جا فعلا عندي للقهوة وتكرفس عليا.. لو كان جبرت وكان قتلتو.. إنما الله غَفّل تاويلْ».

كنت، إلى تلك اللحظة، أعتقد أنه قتل الأمريكاني. يُصلي ويصوم ويحافظ على الأخلاق المحمدية ويقتل الأمريكاني.. لم أعد أجد في ذلك تناقضا ما دام البادئ أظلم؛ بل ما دمت أريد سي إبراهيم بطلًا تنسجه مخيلتي الطفولية، والبطل لا يمكن أن يكون بدون أسرار ونزوات وأيد قذرة.

أنظر إليه الآن وأشعر بتواطؤ غريب. أمام أولاده وبناته الأحد عشر، وهو يتكلم واثقًا رغم تبدّل الأحوال، يبدو عملاقًا يُضاهي الصورة التي كونّتُها عنه ونحن نعايشه في صرامته وغموضه ودأبه. يتكلم أمامهم معلقًا، منتقدًا، أو راويا عن زمانه، فتّطوّقني نشوة خاصة. فأنا قد رأيتهم عندما دقوا باب الحياة أول مرّة، ودبّوا في باحة الدار أو في غرف الشقة، وتطاولت قاماتهم فناقَتْ قامتي. مختلفون، هم ونحن، عن والدهم سي إبراهيم. أحادثهم كثيرًا لكنني دائمًا أحس أنني أعرفه هو أكثر مما أعرفهم. يكفي أن ألتقيه ليبادرني: «إيوا سيدي مولاي، آش من اخبار في الدنيا؟»، فيَرْشَح من سؤاله الزمنُ المضي، المتوثب في ذاكرتينا.

لالّة نجية، أمّ ثانية.

إضـاءة

عندما سكنت لالة الغالية وابنتها نجية، وابنها الطايع في السّفلي، استبشرنا خيرًا. أختاي، واحدة هجّالة والأخرى عانس، سرعان ما أحبّتا الأسرة الصغيرة والوافدة من فاس، ربما لأننا أيضًا من نفس المدينة. ولم تمض بضعة أسابيع حتى شملنا الوئام والتفاهم. قرّبتْ بيننا اللغة المشتركة وأصول «الصواب» واللياقة. أصبحنا كأننا عائلة واحدة. أولادها يُنادونني «خالتي كنزة»، وهي تدعوني أختها، وأولادي يفعلون نفس الشيء. أسعد الأوقات قضيتها صحبة لالّة الغالية ونجية. مرة في الأسبوع نذهب إلى «سيدي العربي بن السايح»، نُصلي ونتحدث قليلًا مع أمّي سُعادة القيّمة على البيت الملحق بالضريح. كانت لالة الغالية تفتقد كثيرًا صحن ضريح ملاي إدريس ونافورته اللاّغطة دومًا بمائها الكثيف. عند الأصيل، نصعد إلى السطح ونحمل معنا الشاي والسكر وما تيسر من الأكل الخفيف أو الحلوى، لأن عايشة لَقْصيْوْرة، الساكنة بغُرف السطح، بخيلة لا تستضيفنا مثلما كنا نفعل معها. القعدة فوق السطح تشرح القلب وتزيل الوخم. وكثيرًا ما كانت لالة الغالية تحكي لنا عن أخيها سيدْ الطيب، وعن ابنها الهادي قبل أن يلتحق بها. أخْبرتنا أنها ما كانت لتغادر فاس لولا أن الشريف بعث إليها، بعد موت زوجها، يستحثها على الحضور إلى الرباط حتى يتمكن من تزويج ابنتها نجية. حاولت أن أقنعها بأن أوان الزواج لم يحن بعد، وأن عليها أن تعلم ابنتها الصنعة، ولكنها كانت لا تستطيع أن تعصي للشريف أمرًا خصوصًا

، أن زوجها كان يثق به ثقة مطلقة. الله يرحمها روح، لالّة الغالية عَمَّرْ الزمان ما يْجود بوحدة بْحالْها. حبّيتْها كْثر من خُواتاتي..

أختصر في القول، فأنتم تريدون أن أحدثكم عن لالة نجية، لا عن أمها. أنا أشفقت عليها في أول الأمر لأن سنها لم يُجاوز الخامسة عشرة عندما زوجها الشريف لسي إبراهيم. كانت خجولاً، حياؤها يَغْلبها. رزينة، لا تفعل شيئاً إلاّ بعد تفكير، وكانت تبدو أكبر من سنها بكثير. والسّي إبراهيم ما عندي ما نقول، الله يْعَمَّرها دار، معقول واشْ مَنْ معقول.. إنما كان طبعه مانعًا. الشلوح ماشي بْحالنا حنا أهل فاس. إنما دايمًا كان يراعيها ويشتري لها ما تريد، ويحرص على تعليم أولاده وعلى مساعدة الطايع والهادي. وقد اكتسبت نجية خصال أمها فاستطاعت أن تعوضها بعد موتها وطوال السنوات التي ظلت ساكنة معنا، قبل أن يفتح الله على سي إبراهيم ويشتري شقة في ديور الجامع. كانت تحدب على الجميع ولا تستثني أحدا، حتى الطفل عبد الحق، ابن الحاج المكي من زوجته الأولى، الذي كانت عايشة لقصيورة تربطه إلى الدربوز وتخرج، كانت لالّة نجية تصعد إليه في السطح حاملة الأكل والشيكولاتة لتواسيه وهو يشكو إليها ما فعلته امرأة أبيـه، مشيرًا إلى آثار الكي على يديْه ورجليه: ".. ماما عايشة.. ديدّي.. لمعلقة...".

كنت أحاول أن أنبهها إلى أن كثرة الأولاد تضر بالصحة وتثقل الكاهل، لكنها لم تكن تستطيع أن تخالف مشيئة سي إبراهيم. من الصباح إلى الليل وهي منهمكة في الطبخ والنفخ والغسيل وكيّ الملابس والاهتمام بالأولاد؛ وقلما كانت تحضر في فرح أو تخرج

لِفُسحة. كنت أقول لها: «يا بْنيْتي يا لالّة نجية هاذ الشي بزاف عليك. الحمل ثقيل وانت بوحدك. شوية لربي وشوية لقلبي...» فكانت تبتسم راضية بمصيرها وهي تُتمتم: «مُولْ الأولاد هاذا حالو».

حتى بعد أن انتقلت إلى بيتها الجديد، ظلت علاقاتنا متصلة، وكثيرًا ما تُرسل في طلبنا لِنُقَيِّل عندها. لالة نجية نسخة طبق الأصل من لالّة الغالية، داخلة سوق راسْها، وَصْوابْها ما يُقْدَ عليه حدّ. الدُّنيا بحال المنام والأيام تتطيْر، غير البارح وهي بنت غْوِيتقة.. شوف اليوم تبارك الله أولادها وبناتها تزوجوا وولدوا، وهي مسكينة ما زالا تتقوم وَتْطَيْب معهم، وسي إبراهيم عندها كلمتو فوق الراس والعين. لالّة نجية ماشية للجنة بعينيها مغمضين، مْشوكْرة كيف تتقولو انتما ولاد اليوم....

تعتيم

اكتشفت، وأنا أقارب الثلاثين من عمري، أنني أكِنّ حبًّا خاصًّا لأختي لالّة نجية. وُدّ عجيب، عارم، يحاصرني، يحملني على زيارتها بغير سبب. أتحدث معها في شئون عابرة ونسترجع سوية ذكريات من طفولتنا. فجاءةً، أنتبه إليها بوجهها البشوش المدوّر، وسمْتِها الوقور الذي يطبعه حزن دفين أثناء ما تصمت. كأن غشاوة غشيت عيني من قبل، فلم أكتشف نجية التي أحسها الآن قريبة إلى نفسي، متواصلة مع هواجسي وحالاتي المزاجية. هي لم تذهب إلى الكُتّاب أو المدرسة. علمتها أمنا الطبخ في سن مبكرة. ودربتها على شُغل البيت فتعاطت لدور المرأة ـ العروس قبل الأوان، متغافلة عن طفولتها ونزواتها.

وكنا ـ أطفال الدار الكبيرة ـ لانشركها معنا في لعبة «الدخلة على العروسة» ولا في مغامرة اكتشاف الكنز المخبوء تحت زاوية من زوايا البيت المظلمة. وهي، من جانبها، كانت تعرض عنا وتؤثر أن تبقى بصحبة نساء الدار، تستوعب أحاديثهن وهمومهن.. وحينما تناديني تستعمل وصف «الزلوعي» أي الطفل الجسور الذي لا يحترم المواضعات ولا يحترم مَنْ هو أكبر منه.

كأنما وضعتها، طوال ثلاثين سنة، في منطقة ظلّ من اهتماماتي وتواطؤاتي: هي أختي وكفى. هادئة، متعقلة، تمشي مُقتفية خطوات الأم. أليس ذلك هو ما جعلها ممسوحة من دائرتي الضوئية المرسومة بخطوط الحركة والشيطنة والعراك والفضول؟

حبل سُري كان يربطها بأخي الطايع. وبرغم ما بذلته من حيلة ومكر، بعد مجيئي إلى الرباط، لأكسر طوق السكونية التي رانتْ على نفسية الطايع منذ غادر فاس، فإنه ظل دومًا الذريعة المشتركة لِنِيَّالنا: أنا أريد أن أرجعه إلى سابق زلوعيّته وشيطنته، ونجية والأم تشدّانه إلى دور الولد الرزين، حامي الأسرة قبل الأوان.

أتذكر. أسترجع بعض المشاهد واللحظات. أتوقف عند تعابير الوجه. بعض الكلمات اقترنت، في مخيلتي، بنُطقها. أنظر إلى قامات أولادها وبناتها.. وهي، لم تكد تتبدّل. مُتكتِّمة حتى في تغيّرها! عدة سنوات مرت قبل أن نعرف أن المرض يهدد عينها اليمنى بالعمى. دائمًا، هنا في بيتها، تحتفي بمن جاء، تعرض مساعدتها، تتحدث بطريقة تبدو معها محصنة ضد الحادث والطارئ، فتعيدنا إلى مناخ بيت فاس الكبير ونكهته المضمّخة بالرَّوْق والطمأنينة. ثلاثون

سنة مرّت وهي هنا كامنة وراء هذا الحشد كله من وجوه وأصوات «سلالتها» الصغيرة، وكأنها أخت كبرى عليها أن تستمر وراءهم حتى الأزل، بمن فيهم من تزوجوا، يودعون عندها أولادهم وبناتهم عندما يسافرون. استمرارية يميّزها نوع من اللاّمبالاة يطبع سلوك من يحيطون بلالّة نجية... لا مبالاة بدأت تُثير أعصابي عندما تنبهتُ إلى حب أختي الغافي بأعماقي. عَوَّدْتُهم على أن تفعل كل شيء، أن تكتم الشكوى، أن تختزن ما يؤلمها في صدرها إلى أن تجد فرصة تفرج فيها عما اختزنته وكثيرًا ما يكون البوح للالّة فاطمة، معاونة الأسرة على أشغال البيت والغسيل منذ سنوات طويلة. حينئذ، تحكي التفاصيل وهي تبكي: «... تَبْكي على راسي وأنا عايشة، إيلا متّ ما نلقى اللي يتفكّرني...»، وترد لالة فاطمة: «لِواه، قياس الخير عليك، الله يخليك لَوْليداتك». تَرُدّ نجية وهي مستمرة في البكاء: «ما بقاوْ ولاد الربح في هاذ الزمان.. أشي، أمّي عندهم غيرْ بالفم...».

عندما أحاول أن أفلسف المسألة أقول: الشيء المستمر دائمًا يستقر داخل هذا النوع من العلاقة. نألفه فنهمله. ليس تمامًا. نتكئ عليه ونعتبره ثابتًا فنستريح، جزئيًا، من تلك المواجهة المفتوحة مع جميع تفاصيل الحياة والعلائق. كل علاقة تستلزم جهدًا، حضورًا، استنفارًا للعقل والحواس. نمتلئ بصخب طاحن للأعصاب ثم نكتشف أن علينا أن نبدأ العملية من جديد صباح كل يوم.. من ثم الركون إلى عناصر «الاستمرار» في حياتنا وإغفال الجهد اللاّزم لإذكاء جمرة التواصل. غير أننا كثيرًا ما نستيقظ على جفوة اللاّتفاهم وصدأ الرتابة، لِنُعاين أن المستمر أيضًا منقرض...

ليس هذا الكلام مقنعًا، أو بالأحرى، لا يلامس جوهر ما أدركته ..ولية شعورية، حين تساءلتُ أول مرة، كيف استمر حبي لأختي، ..[illegible] طوال تلك المدة.

وجدتُها وحدها في البيت، بعد ظهر ذلك اليوم. لعله يوم أحد لأ..ي ظللت نائمًا حتى الساعة الواحدة بعد ليلة أمضيتها، وحيدًا، .. الشرب واجترار الأحداث، ومحاولة فهم ما وقع. حالة كانت .لمّ بي ولا أستطيع التخلص منها.. فجأة يهتزّ كل شيء من حولي. أحدق فلا أرى إلا الهياكل القديمة، إلا ما ظننتُ أنه إلى زوال. جهدي وجهد الآخرين يعود إلى نقطة الصفر. لا شيء تغير. لا شيء يوحي بالتغيُّر وفق ما كنا نحلم به. أشرب وأعيد. أرفع قبضتي لأضرب شبح المؤقت الذي استحال إلى دائم. أتذكر الأصدقاء الذين هم في السجن أو المنفى، ولا أكاد أفهم...

فتحتْ لي الباب وقد وضعت شالًا من الصوف على كتفيها. عيناها منتفختان قليلًا من أثر النوم، وصفرة خفيفة تغمر وجهها. لم أفهم، أول الأمر، كيف أنها وحدها في البيت واليوم يوم أحد. شرحتْ لي بأن هناك مناسبة عند أحد الأصهار، وأنها متوعكة فبقيت لتستريح. حاولت أن أكون مرحًا معها كما اعتدتُ في السنوات الأخيرة، لكنها لم تستجب كثيرًا، ربما لأنها أحست أنني أيضًا على غير عادتي، مقلوب المزاج. ران صمت ثقيل قطعته قائلًا إنني سأحضّر لها برّادًا من أتاي الفاعل التارك، وسأقرأ على رأسها لتصحّ من توعكها.

بعد فترة، ونحن نحتسي الشاي، قلتُ لها هل تعلمين بأنني أحبك

أكثر مما يحبك أولادك وربما أكثر مما يحبك سي إبراهيم نفسه؟ تمهّلت قليلا قبل أن تنبر: «إيوا خَتّي الله اللّي عالم بالقلوب».

أحسستُ أن تصريحي أخطأ الهدف. حاولت أن أتدارك فقلت لها بأن نوع الحياة الذي أعيشه يجعلني دائما أجري وراء سراب، مهملا الحقائق التي تعيش على مقربة مني. وأنني، عندما أفكر بتلقائية، فإن صورتها وصورة أمي تقفزان إلى المخيلة والوجدان فأناجيهما ولا أستطيع ـ في الواقع ـ أن أعبر لهما عن تعلقي وحبي بما فيه الكفاية.. وجدتني أتكلم مندفعًا بحرارة مفاجئة، مذكرًا نجية كيف أنها وضعت شهادتي الابتدائية ثم الثانوية في إطار وعلقتهما ببيتها، وكيف كانت تحث أولادها وبناتها على أن يصبحوا مثل خالهم.. ذكرتها كيف كانت تغدق عليّ النقود والشيكولاتة والملابس، وتطبخ لي، بعد وفاة الأم، أطباقي المفضلة.. كنتُ أغرق في التفاصيل وأردد بين الحين والآخر: ماذا يبقى لنا سوى هذه العواطف التلقائية التي نعيشها ونختزنها؟

ران الصمت من جديد، ثم جاءني صوتها في إيقاعه الهادئ المتساوي «شْنُو عندك اليوم: يَاكْ ما شفتي شي منامة البارح؟ خير وسلام.. إيوا خَتّي أنا شحال من مرة قلت لك، والوالدة حتى هي الله يرحمها غيات ما تقولك، باللّي تْيْخصك تتزوّج. بْرَاكا. اللّي ثم راك شفته، هنا وفي الخارج. الواحد لازم لُو يعمل محلو ووليداتو. هاذي حكمة ربانية ما عندنا لأيْنْ نهربو منها. انت راك قاري وفاهم كْثَر مني، وأنا ما نبغيكش تبقى بوحدك. ولكن انت تْعْرفْ...».

هل أنت سعيدة؟ سألتها. ابتسمت. تنهدت ثم استغربت أن أطرح

عليها هذا السؤال بعد أن ختمت حياتها أو كادت، بعد أن ولدت أحد عشر ولدًا وبنتًا، معظمهم تزوجوا وولدوا بدورهم. وهل لديك دواء يسعدني، استفسرت ضاحكة. وقل لي أنت أولًا ما هي السعادة لأرى ما إذا كنتُ قد عرفتُها... واستمرت تتكلم بطلاقة وبنغمة لا تخلو من مرارة عن طبع زوجها، عن أولادها وبناتها وعن الأقارب. غمرني شعورٌ غبطة وحنان وأنا أتساءل لماذا لم أسعَ من قبل إلى مثل هذا التواصل مع نجمة. نجمة التي كنت أثبّتها داخل إطار وأتعامل معها ضمن تصنيفات العواطف العائلية، تتحول الآن أمامي إلى إنسانة «ناطقة»، لها آراؤها وملاحظاتها وتقييماتها للناس وللدنيا. أية لغة نلجأ إليها في مثل هذه الحالة عندما تكتشف أنك أمام إنسان موجود في جوهره متشبثا بحياته كما عاشها، لا يتنكر لها؟ أبدًا لم أحس مثل هذا الثقل الوقور الذي بدتْ لي به نجمة عند أصيل يوم الأحد ذاك من خلال حديثها ونظراتها. كانت تردد أنها سعيدة لأنها تحمل في قلبها قناعة الآخرة. لكنني عندما ألاحقها بأسئلة عن تفاصيل حياتها، تتدفق بانتقادات شاكية. فزوجها ضيع فرصًا كثيرة، وأولادها وبناتها يأخذون ولا يعطون، والناس طامعون فيك ما دمت تملك. ما عدا ذلك، كل شيء يفوت، وكل الآلام والمصائب نتحملها وننساها في غمرة الحياة التي تجرفنا. المهم ألا نلتجئ للآخرين. عزة النفس رأس مال المرء.. هي تتحدث وأنا أستمع في دَهَش. أسئلتي تبدو بدون وزن أمام صوتها الواثق ممّا تحكيه.

في حديثها، قرأت بين الكلمات حبا شفيفا لزوجها سي إبراهيم، تنامى عبر العِشْرة ورحلة العمر. قرأت انشغالًا للبال بسبب الأولاد والبنات الذين يفتقرون للتعاطف ويتطاحنون بالكلام ويتذمرون

بمعاملات الرياء. لكن سعادتها، هي، إنما تجدها في بسمات الأطفال من أحفادها وحفيداتها. أنظر إليها وأنا أبتسم في خبث، مذكرًا إياها بأنها، رغم كل شيء، تتألم وتبكي حينما يبلغها كلامُ سوء في أولادها وبناتها. تتنهد وهي تقول: «قلبي ما يْهنيني. قالوها لُوالا: يَدّيك مَنَّك ولو كانت مَجْذامة».

هل كنتُ، في ذلك اللقاء، أحاوِرُ، عبر نجية، الأم لالّة الغالية التي اكتشفت أمام قبرها ـ قبل أن يُهيلوا عليها التراب ـ أن بأعماقي أشياء كثيرة فاتني الإفضاء بها؟

الطايع في حومة الكبار

عندما أتكلم الآن، وأنا في العقد الخامس من عمري، أحس أن كل ما تلفظته من قبل لا يرتقي إلى النغمة الصحيحة.

الآن انجلت الأوهام، أو هذا ما أحسبه على الأقل، لأنني أستقبل الأيام بدون أن أنتظر منها مفاجآت سارة وبدون أن أتوقع تحولات تخُص الزُنبُرك المترهل في داخلي، لتُعيد له النبض والتحفز. حالة غريبة بالمقارنة إلى ما كنت عليه قبل ثلاثين سنة. كأن دائرة الحياة انغلقت من حولي وأنا مستمر فيها بقوة داخلية لا أعيها تمامًا. هل أستمر في العيش من أجل الأولاد، أم لأن التفرج على ما سيحدث يجتذبُني، أم استجابة للغريزة وحسب؟

أنا في العادة لا أفتح صُنْبور الأسئلة والهواجس والتخمينات مثلما يفعل أخي الهادي. لا أقدر على التفكير بصوت مرتفع كما يقال، ربّما لأنني أصبحت سجين عادة التكتّم على مشاعري وإخفائها،

الانغمار في الحركة متناسيًا ما ألحظه من تصدّع أو فتور. وقد وذلك إلى أنني ألفتُ الصورة التي كوّنها عني الآخرون بدءًا من جتي. معها، لا أستطيع أن أفضي بما يترسب في الأعماق. حديثنا ق في العموميات وفيما يتصل باليومي، ضمن المبادئ الفضفاضة الـ... «جمعتنا». الآن، أدرك أن زواجنا، غرامنا، قصتنا، انتسجتْ ...ل شرنقة المبادئ وإغراءات المناخ العام. قد أكون مخطئًا في ... الاستبطان، غير أنني لا أزال أذكر فورة الاستقلال، واشتعال العواطف، وحماسنا، وتوقنا إلى أن «نشيّد» ونزحزح الجبال، ونطال السماوات.

كنت أحس الأعباء مضاعفة لأنني أحمل صفة «فدائي» بعد مشاركتي في خلية بالرباط. كانت الخلية الثانية قد اعتقلت وجاء دورنا. عرفت منظم خليتنا، من قبل، في اجتماعات الحزب. المهام التي أنيطت بي: مراقبة تحركات بعض مقدمي الحكومة، توزيع المناشير، تجميع بعض الأخبار. حين اعتقال أحد أفراد خليتنا، صدر الأمر بأن أختفي خارج الرباط. لم أجد سوى سي إبراهيم زوج أختي، لمساعدتي. بعثني عند أحد أبناء عمه بالقرب من مدينة القنيطرة مكثت عنده طوال شهرين لم أتحرك خلالهما. مرت المحنة وأعلن الاستقلال، فعدت إلى الرباط والتحقت بمدرسة حرة معلما للتلاميذ. هناك التقيت زوجتي، فكان التقارب عبر لغة المبادئ آنذاك. قد لا تصدقون هذا الكلام لأنكم لا تتصورون ذلك المناخ الذي جعلني «أهرب» من نساء أخريات كُنّ أقرب إلى مزاجي وذوقي الغريزي، لأرتبط بامرأة وجدتُ في كلامها ما يلائم حماسي ومثاليتي. شَرَكُ الغرارة الذي لا نستطيع له دفعًا، سيقول الهادي. ولكنني أحسبني

كُليًّا في قراراتي، معاندًا للماضي، معاندًا لطفولتي ومستجيبًا لعنصر متطرف في شخصيتي.

ما جدوى أن أحكي عن حبي المبكر لابنة الجيران عندما جئنا إلى الرباط؟ وعن تنقلي بين الدكاكين والمهن لأعول أمي وأختي ثم لأسدد نفقات تعليمه مكتفيًا أنا بالشهادة الابتدائية؟ ما جدوى أن أحكي عن تلك الفتاة اليهودية التي تعلقت بها عندما كنتُ أشرف على دار الخياطات التي كلفني بها تاجر مشهور في ذلك الوقت؟ جزء من طفولتي في فاس. مباريات كرة القدم صحبة الهادي في الرباط غاراتنا على الجنانات والعرّصات الواقعة، آنذاك، في ديور الجامع وحي الليمون. اشتغالي بأوطيل «فاليما» وارتداء البدلة والطربوش، والاختباء تحت الكونتوار عندما ألمح واحدًا من أصحابي مارًّا بالقرب من مدخل الأوطيل... مشاهد قلما أسترجعها أو أدَغْدغها بيني وبين نفسي. يقول لي الهادي في صيغة متفلسفة وهو يقصد التعريض بي: «... أظن أن الكثيرين يشقون لأنهم عاجزون عن استرجاع طفولتهم وإدماجها في حياتهم الراهنة. ما عاشُوهُ في الطفولة كأنه وقع لغيرهم. ربما لأن الطفولة أقل جديةً مما يتوهّمون أنه لازم للحياة...».

هل يُعقل أن أستأصل طفولتي، طفولتنا، من الذاكرة؟ إنه يلتذ بأن يصوغ عبارات يلخص بها حالات الآخرين. أستمع إليه وأبتسم. ومع الأيام أحسني أغوص تدريجيا في سديم العلائق المكرورة والمواضعات الاجتماعية. والآن لا أستطيع أن أحلل شيئًا يتصل بجسدي وحياتي الزوجية. لقد تعودت على أن أُعْطي الأسبقية لما هو «عام»، يمس المجتمع في كليته. الزوجة غمرتني بعواطفها

[...]ن إلى جانبي في اندفاعي، حدّ التدهور، لتحقيق ما حلمنا به أيام المقاومة. انغمرت في النضال بما يشبه الهوس، على حساب حياتي الخاصة كما كان يلاحظ الهادي من حين لآخر. كيف ألخص ذلك الحماس الذي كان يلهيني عن كل شيء؟ أظن أنني سأكون قريبًا [...]لغة تلك المرحلة لو قلت عنه «النضال من أجل الهدم والبناء من أجل التغيير». هذا ما تعلّمناه في الحزب والنقابة: نهدم البالي المتجمد، ونُشيّد الجديد الملائم لتضحيات الجماهير. عشرون سنة من الحركة المتواصلة. أهرب من البيت إلى البورصة ومقر الحزب. أدمنتُ الاجتماعات والتجمعات واللقاءات. كانت النشوة تستبدّ بي وأنا أرى جموع العمال والموظفين والمثقفين والتجار تتجاوب مع [...]طالبنا وشعاراتنا، فأعتقد أن التغيير بات وشيكًا.. وتأتي بلاغاتنا وتصريحاتنا لتُرسخ نفس الاعتقاد وتوصي بمتابعة السير في خاتمة حفظناها عن ظهر قلب: «... ولا يفوتنا أن نُهنئ أنفسنا على هذه المكاسب مستحثّين الجميع على مضاعفة الجهد وعلى اليقظة لتحقيق المزيد من...».

داخل دوامة الحركة كنت أبذل كل وقتي للنضال والتعلم. قرأت كثيرًا من الكتب والمقالات الاجتماعية والأيديولوجية، وسعيت لتحصيل كل ما يساعدني على الاضطلاع بمهماتي النقابية والسياسية. كنت سعيدًا باكتشاف الثقافة التي تسند ممارستي وتُعوّضني عمّا حرمني منه انقطاعي عن التعليم المدرسي المنتظم.

عشرون سنة تعلمتُ خلالها أشياء كثيرة. غير أنني لم أكن أتصور أن تخفَّ درجة حرارتي، ويهدأ الغليان إلى هذا الحد الذي أستطيع

معه أن أتكلم عن سنوات «الهدم والبناء» بمثل هذا التباعد، بل السخرية أحيانًا.

الجمر فيّ تحول إلى رماد؟

بل إن رمادي احتضن جمرًا آخر هو الذي يجعلني أنظر إلى تحولاتي بنوع من المرارة والعنف. أنا الآن مثابر على قراءة القرآن والدراسات المبشرة ببناء مجتمع إسلامي تُبعث فيه حضارتنا التليدة الأصيلة. لست مُتعصبًا؛ وما تعلمته خلال العشرين سنة الماضية أثناء الجري في حومة النضال واكتشاف الحقائق الحياتية، يجعلني بعيدًا عن التشبث بوهم جديد. إنما هو ملجأ يمنحني نوعًا من الاستقرار والعزاء، ويستجيب، ربما لنزعة عميقة في نفسي نحو التوحيد والتعالي. لا أستطيع أن أفسر كيف حدث ذلك التحول. أذكر فقط أن نُتفًا كثيرة احتزنتُها من تجربتي جعلتني أبتعد تدريجيًا عن نمط العيش المألوف لدى قادة النقابة والحزب وأطرهما الفاعلة. بدأت أتبين أن المسافة بينهم وبين من تدعوهم الجماهير، تزداد اتساعًا. ولم يكن الخصوم عشوائيين في سياستهم كما كنا نُردّد. كانوا متنبهين لمصالحهم، مراهنين على عنصر الزمان ومفعول القمع. مع الأيام اتضح لي أننا ننطح بقرون واهية. كأننا سيزيف يدفع صخرة على أرض مسطحة لا نتوءات فيها ولا هضاب.

خلال أحد لقاءاتي مع قادة الحزب والنقابة طرحتُ بعض هواجسي وتخوفاتي. أجاب أحدهم: «إذا كانت الشروط الموضوعية لم تتوافر بعد، فإننا لا نستطيع أن نُغير الأوضاع. هذا قانون التاريخ وعلينا انتظار نضج تلك الشروط».

وقال زعيم آخر: «نحن نحمل مشعل الحقيقة، والتاريخ سيحكم بصواب دعوتنا. لذلك لا تقلق مما تراه، فالجماهير ستكتشف صحة أطروحاتنا، وتُعرض عن أكاذيب النظام ووعوده الفارغة...».

ما بدأت أكتشفه أنا، أكبر من أن تُفسره تلك التحليلات. كان معظم المناضلين والأطر النقابية، من حولي، يعيشون التبدل من خلال تطبيع العلائق مع من كنا نعتبرهم خصومنا. المغازلة تأخذ أشكالاً مختلفة، يتلوها تبادل الزيارات، ثم الوساطة لقضاء مصالح العائلة.. وفجأة، ينتقل أحدهم إلى منصب رسمي بدون أن يُخبرنا، وتأتي الأوامر من القيادة، بأن علينا ألا نقطع «الخيط» معه، فقد يُفيد المنظمة!

عشرون سنة حدثت فيها تغييرات كثيرة، متلاحقة، رعناء، داخل المجتمع كله، لكن خطابنا استمر كما هو مع تحويرات طرفية. والتجمعات تقلص عددها من المئات إلى العشرات، والإعياء ظهر واضحًا على أصلب المناضلين.

كانت زوجتي، منذ عدة سنوات، تحتج على إسرافي في الاجتماعات وإهمال الأولاد، وتُنبهني إلى أن كل مناضل «عمل بلاش يرجع»، وأن عليّ أن أفتح عيني لأرى حقيقة ما يجري؛ فكنت أعتكف بضعة أيام ثم أعود إلى الحلبة مدفوعًا بشيء ثاوٍ في الأعماق. لكن الشرخ كان يستعصي على المسكّنات جميعها.

علاقتي بالهادي أيضًا اتخذت طابعًا حادًّا، عدوانيا، يتعدى نطاق التنافس الذي كان بيننا. أحار في تحديد شعوري نحوه، لأن حبي له كان بدون حدود منذ الطفولة، وازداد عندما سلك سبيله إلى

الجامعة بمساعدتي. لكننا اختلفنا في التفكير ونمط العيش. أصبح نقيضي: دائمًا يفترض أشراكًا منصوبة أمامنا، وعلينا أن نتجنّبها لكي لا يُغَرِّرَ بنا. لا بد من تحليل كل شيء، يقول. والمبادئ، على أهميتها، لا تكفي لحل المشكلات، في رأيه. أنا مندفع وهو مُتأنّ أنا متقشف مع نفسي وجسدي، وهو مفتون بالجسد واللذة. أصفه بالأناني فيقول: فعلاً، لا يمكن أن نعيش بدون أنانية. أحثّه على الزواج، فيرد بأن الزواج ليس غاية، وأن التجربة أوسع من ذلك، والزواج صورة من صور البحث عن توازن العاطفة والجسد... دائمًا يُعطيني الانطباع بأن حياتي منغلقة، موضوعة في قماط، وبأن زواجي لا يستجيب لرغباتي.. في حين تبدو حياته مشرعة النوافذ على ما تحتويه الدنيا من تفاصيل ومناطق غرائبية مثيرة.

صارحته بالتصدع الذي بدأت أعيشه في الفترة الأخيرة. سكت قليلاً دون أن تفاجئه اعترافاتي، ثم قال بطريقته الخاصة في التعبير:

«.. أنت الآن بدأت تدرك أن المناضلين لن يصلحوا، بالضرورة، للسياسة عندنا. السبب؟ قد لا يُقره العقل والتفكير الجدلي، لكن يدعمه واقع الحال. فأنت لا تنتمي إلى عائلة كبيرة، إلى رموز في الجاه والمال والشرف، تدعمك وتقف وراءك في رحلة العبور من النضال إلى السياسة. ومثل تلك الرموز ضرورية، الآن، بعد أن تبدّد الحماس وتصدّعت المبادئ، وطفتْ المصالح على السطح. ماذا تستطيع أن تفعل بإيمانك وإصرارك وقد تبدّلت دورة الأفلاك فانتقلتْ من الاحتقان الأيديولوجي إلى جزر الإفراغ؟ انتظر. قد يكون لك

-ما إذا مدّ الله في عمرك، فتشهد من جديد، دورة امتلاء. لكن، من ...سمن أنها ستكون على ما ألفْتَ من أنغام؟».

سرقتْنا العشرون سنة. أحسني مخدوعًا ولا أستطيع أن ألقي التبعة على أحد.. أشعر بالنفور من نمط عيش النخبة ومن تفشي العصرية وأدواتها. أجد نفسي أكثر في انكفائي وقراءة القرآن والصلاة مع الجماعة. عدة أشهر وأنا أحس الانهزام والحرمان بسبب العجز عن متابعة الطريق التي نذرت نفسي لها. اكتشاف التناقضات حيث لا تتوقع، وتراكم الصدأ الذي يُرسّب في الأعماق تكرار الأشياء والأحداث، ضخّما لديّ ضُمورًا معنويًا أشلّني. بدأت أتطلع إلى الانكفاء بأقل ما يمكن من الخسائر، أي أن أعيش دون لجوء إلى الخصوم، ودون مدّ اليد للحصول على نصيب من كعكة ما يسمونه عهد الرفاهية والاستقرار. هذا هو التحدي الذي أعيشه الآن: الاهتمام بالعائلة وضمان الستر إلى أن يحين موعد الرحيل. أحيانا تستيقظ في أعماق جَذْوَتي الغافية، فأتحول إلى متتبع لأغلاط خصومي وسقطاتهم. لكنني عاجز تمامًا عن أن أفعل شيئًا، لأنني عاجز عن أن أخاطب الناس بخطاب لا يمتّ بصلة إلى ما يعيشونه ويتطلعون إليه.

جسدي لا أستطيع أن أتكلم عنه.

في لحظات الكآبة والشعور بالوحدة، أفكر كثيرًا في الأم، وفي الموت. أقول إن عليّ أن أهيئ نفسي للقاء الرّب.

أثناء آخر مرة زارني فيها الهادي، كاشفته بما يخامرني، ابتسم وهو يقول: «يخيل إليّ أن أحسن طريقة نهيئ بها أنفسنا للموت،

هي أن ننتظره وكأننا سنرتاد مهرجانًا للضحك...» أكره ردود فعله، لكن كلماته توقظ في نفسي حنينا إلى أيام الصفاء والتواطؤ، حين كان يجعلني أضحك في أحلك الأوقات.

تعتيم

رجعت بعد الظهر إلى البيت بعد حصة مادة التاريخ، أول سنة التحقت فيها بالمدرسة الثانوية. كان الخريف بكَلَحه وغيومه، والرباط برطوبتها اللزجة ينشران غلالة دبقة تلف النفس والجسد لتجعلك مُنهكًا، مفكك المفاصل. طرقتُ الباب عدة مرات ولم يُفتح. انتظرت قليلًا ثم عاودت الطرق. أخذت أتنصت، وخُيل إليّ أن هناك أصواتًا تعلو وتنخفض كأنها في خصام أو جدال، من بينها صوت أمي. لم أكف عن الطرق. وبعد فترة جاءني صوت الأخت في استنكار لهذا الطارق المتعجل. حاولت أن تأخذ مني محفظتي وأن تصرفني لألعب في الزقاق، لكنني ألححت على الدخول إلى المرحاض.

في الغرفة، كان الطايع يبكي ويشهق بصوت مرتفع ويقول كلمات لم أتبينها. ومن حوله الأم والأخت تمسكانه وتمنعانه من الخروج. أول مرة أراه فيها باكيًا، عنيفًا في حركاته، وأنتبه إلى أن صوته قد اخشوشن. لم أجسر على أن أسأل. كانت أمي تشير إليّ أن أبتعد.

نزلت إلى القبو وأنا نَهْب لكل التخمينات. كان الطايع قد بدأ يعمل في فندق «فاليدا» الذي ينزله كثير من الأمريكان. وكان سعيدًا بعمله لأنه استطاع أن يكسب ثقة الزبائن وأن يحظى ببقشيش سخي من أبناء

العم سام. كان هو وأمي اللذين قررا أن ينقطع عن الدراسة ليساعد .. إعالتنا فلا نثقل كاهل سي إبراهيم. وعليّ أنا ـ التلميذ النجيب كما الذ يسميني ـ أن أنوب عنه في تحصيل العلم. سرعان ما دخلت في علاقات جديدة مع رفاق المدرسة الثانوية، وبدأت أبتعد قليلًا عن الطايع الذي كان يخوض تجربة العمل والحياة في نهم شره.

كل ما خمنته عن مشهد بعد الظهر كان بعيدًا عن واقع الأمر. .. بيجة، ابنة الجيران، ابنة خالتي كنزة كما كنا نناديها، هي لا غيرها، .. ب هذا المشهد الرومانسي الذي لم أتوقعه بالرغم من معاينتي .. عض الأمارات. لعلني كنت لا أزال أعتبر الطايع طفلًا مثلي مع أنه كان في عز المراهقة ولعلني كنت أعتبر لقاءات صبيان وبنات الدار محكومة بلعبة التمثيل والتسلي، ولا يمكن أن تُجاوز تلك الحدود لتنقلب إلى تجربة جدية. خلال لعبة الدخلة على العروسة، وخلال أسمارنا البريئة بمناسبة الأعياد والأفراح، كنا نحن صبية الـ .. ت وصباياه، نلهو في طلاقة وتعاطف، ونكتشف متعة الضحك .. مرقين في تقليد لغة الكبار وحركاتهم. كانت ذاكرتي ملأى لا تزال، بما التقطتُه في فاس خاصة عندما كان خالي سيد الطيب يصحبُني معه إلى النزهة، فأختزن ما يتلفَّظ به أصدقاؤه أثناء تعليقاتهم الإباحية .. لى قصص ألف ليلة. بدوري، كنتُ أتوجه إلى خديجة (كانت .. نساء، فتخاء، رموشها طويلة، ولها رَفَّة أهداب مغرية عندما تخجل .. تتورد وجنتاها) وأصيح:

«يخلّي لي الحوت البُوري. أنا نموتْ في الجبّن الطري. أنا عبد الحلوى الشّبَّاكيّة...».

وتتعالى الضحكات والتعليقات، وترف رموش خديجة وهي تسترق النظر إلى الطايع الذي يُداري حرجه قائلًا: «هذا خديدان الحرامي هاذ الهادي، ما عرفتشي مْنَاين جابْ هاذ الشي...».

قبل العشاء، كان الطايع يتسلل إلى الدرج ويقعد مع خديجة يتحدثان، وخالتي كنزة تلحظهما، راضية، من مجلسها بصدر الغرفة؛ ومن حين لآخر ترفع صوتها ليسمع من بالسفلي:

«مَا عيبتوش من الهَدْرا؟ يْقَدْكم من تْوَشْويش والهدرا فَ الشُّونْ...».

الآن، أعلن والدُ خديجة أنه زوّجها للفقيه الحاج عبد السلام، الخطيب المِصْقاع، والمحدّث البارع الذي يسكن في الدرب المجاور. خديجة تبكي في الفُوقي، والطايع يشهق في السفلي لأن «يدَيهم طاحت في التراب»، وكلمة الأب هي العليا، والطايع لا يزال مراهقًا بدون عمل «يحمّر الوجه» ولا بد له، هو العارف بدواير الزمان، أن يؤمن لابنته مستقبلًا لائقًا...

لا يزال ذلك المشهد عالقًا بذاكرتي يثب إلى ذهني كلما فكرت في تجربة الطايع. شيء ما، يُوهِمُني بأن الأمور كانت ستكون مختلفة لو أن تلك البداية اختلفتْ.. لو ماذا؟ لو أنه لم يكفر بالحب ولم يحتكم إلى عقلنة العواطف والعلائق؟ كأنما ـ فيما استقبل من حياة، وبقدر ما لاحظتُ ـ أراد أن يئد في نفسه ما قد يجعله ضعيفًا، هشًّا، ومُحبَطًا في تجارب القلب والجسد. حياته كلها سيختزلها إلى التفاني في حب الوطن، وخدمة «الصالح العام»!

وبدأت ألاحظ أن التيار الواصل بيننا، أخذ يتعرض لانقطاعات مفاجئة، فلا نكادُ نجد كلاما نتبادله. نلفّ وندور. ينتقد الجميع ثم يلومُني لأنني لم أعد أهتم به.. أؤكد له عكس ما يقول فلا يُبارح الارتيابُ عينيه. أقول له إن المناخ العام هو الذي يجمعنا.. يُقاطِعُني في ترفزة لأنني دائمًا ألقي التَّبعة على غيري. أصمتُ. يَحْزُنُ. يظل التوتر قائمًا بيننا. كنت، مع ذلك، مُوقنا بأنه يحبني مثلما أحب، لكن اللاّمبالاة عرفت طريقها إلينا.

كيف حدث ذلك؟

لست أدري، مثلما أنني لا أدري كيف اكْتَسَحَتْني اللاّمبالاة تجاه الكثير من الأصدقاء والصديقات والعشيقات، وتجاه العديد من الظواهر. هل أقول هي العشرون سنة التي يعتقد الطايع أنها الحاجز الذي حجب عنه رؤية ما كان يتحوّل ويتوالد؟

على العكس منه، عشت تلك الفترة دوما كأنني داخل كابوس تتناسل مشاهِدُهُ المفزعة وتتلون أقنعته بدون أن يفقد أبدا، في ناظري، كُهُوبته ورُعبه المبتسم. كابوس أنيق، كابوس مُمَثِّل. كابوس بألْفِ شكل، لا تفارقه الابتسامة حتى عندما يضغط بقوة على رقبتك.

عشت العشرين سنة في توتر دائم يتوزّعني الحب والكراهية، لكنني لم أكن قط لامُباليا، مثلما الآن، بالنسبة لكثير من الأشخاص والأشياء.

يستعيد القلب ارتجافاته وترتجّ الأعصاب المرتخية عندما ألتقي أناسًا لا يُموهون لإظهار انهزامهم نصرًا. برغم الأصباغ والأقنعة التي

يلجأ إليها الجميع الآن، تجدهم لا يفقدون وعيهم، ولا يتهافتون على لعبة الكلام المُزلَق.. كلام يعين على بيع الذات، وتذويب قيم الرفض. أحدهم قال لي، من داخل جزيرته المضيئة: «لا نستطيع توقع ما ستئول إليه الأحوال، لكن ما يحزّ في النفس هو أن لا أحد يلتفت إلى عناصر المساخر الملتصقة بما نعيشه من حالات غنية بتناقضاتها؛ لذلك نعيش محرومين أيضًا من الضحك على أنفسنا...».

الضحك يقترن عندي بالطفولة، وأنا مسرف في حب طفولتي. اتخذت من الضحك تسلية وأعطيته أشكالًا متنوعة. في لحظات الكآبة وفترات الرتابة والتكرار، ألتجئ إلى الضحك فيصبح العالم مُبَرّرًا بكل لُبُوساته ومسوخاته. أحيانًا تُراوِدُني فكرة غريبة أستبعدها إلا أنها تلاحقني: ابتعدت عن أخي لأنه وأد طفولته وأعرض عن مخزوننا من الضحك المشترك!

أيُعقل هذا؟ أن يحملني تعلُّقي بطفولتي على مجافاة الطايع الذي تنكر الآن لما عشناه سوية وأباح لنفسه أن يُعْدمه من ذاكرته؟

تعليل فانْتيزي، ومع ذلك يغريني فأحاول أن أنبش جوانبه لأربط بينه وبين ما انتهينا إليه من تجاذب ثم تباعد، ثم لامبالاة.

أذكر زيارة الصيف الماضي. كانت قد مرت عدة أشهر دون أن أرى الطايع. لم يعد هناك الحافز الداخلي الذي كان يجعلنا نلتقي أكثر من مرة في الأسبوع. قلتُ إن عليّ أن أفضي له بما تجمع في دخيلتي، فقد تُسْعفُ المكاشفة على استرجاع الصفاء المندثر. لم تكن زوجته بالبيت، وأخبرتني الخادمة أنه في الصّالة الفوقانية. صعدت الدرج ثم نَقَرْتُ الباب فجاءني صوته بالعربية الفصحى: ادْخُلْ.

كان جالسا على الشُّدَّاري وحوله مجموعة من الكتب والمجلات، و..ديا قميصًا أبيض وجلاّبة شفافة من نفس اللون، والمخدّة فوق ..ره وعليها كتاب مفتوح. رفع رأسه مندهشًا أول الأمر، ثم انتصب ..قبًا فاتحًا لي ذراعيه. هذا هو الطابع الذي قاسمته طفولتي يتراءى لي في هذه اللحظة كما عهدته.

لحظات وفاق مشرقة، لكنها مرّت كلمح البصر، ثم ساد الصمت. ..ألته عن أحواله. قال إنه يريد أن يعتزل ويتفرغ إلى دراسة كتاب الله، وإلى العبادة والتأمل، لأنه تبيّن أن عشرين سنة من حياته تصرّمت ..ثلما يتشرّب الرملُ الماء، بدون أن يتحقق شيء مما كان يعمل ..ن أجله: «.. إنما الخير والبركة في المتعلمين أصحاب الشهادات العليا الذين يعرفون ما فيه صلاح البلاد، ويُحسنون التكيّف واقتناص الفرص...».

قلتُ مصطنعًا الهدوء: لا داعي للتلميح وَحَشْيانُ الهدرا.. لماذا ..تجنّب الحديث بصراحة؟ كلما التقينا افترقنا وقد ازداد التباعد بيننا. أصبحت لقاءاتنا لعبة مقرفة نخبئ وراءها ما يوجعنا. لماذا تدفن فشلك، فشلنا، وراء الآيات والأحاديث واستحضار الموت؟

قال: أنت أخي، أحْبَبْت أم كرهت. وأنا أكبر منك سنًا، ولا يعجبني ..بك نكران الجميل والانجذاب إلى الغواية. أنت تعلم أنني تحملت ..ن أجلك..

قاطعته بحدّة: لا تَعُدْ إلى ترديد هذه الأسطوانة. أنا لم أُرغمكَ على مساعدتي، ولست مستعدًا لأن أصبح تابعًا لك، جزاء ما أسديته لي. إنك تهرب من مشكلتك الحقيقية. افترض أنني لستُ

أخاك. وأنني صديق رافقك في تجربتك وجاء اليوم ليتفهم معك ما عشتماه سوية أو على انفراد، ألا تكفّ عندئذ عن لعبة الغماية التي تلعبها مع أفكارك ومع ما استحصدته في مسيرتك؟ إذا كنت طوال عشرين سنة لم يراودك الشك في شيء، فكيف لا تُطيق الآن مواجهة الصرح المهتزّ، وتسارع إلى الاحتماء بيقينيّات تظنّ أنها محصنة ضد الشك؟

قال: اسمع يا الهادي، كلامك ليس جديدًا عليّ. أنا عشت وسط الفعل أكثر منك. خَبَرْتُ، وعاينتُ، وتعلمت. لم أكن أسمح للفتور أن يتسلل إلى نفسي. لكنني الآن لم أعد أستطيع. لك أن تُحلل كيفما شئت. أما أنا، فمقتنع بأن ثغرة عميقة نسفتْ ما كنت أحلم بتشييده.. أليس هذا شيئًا مألوفًا في التاريخ؟

- مألوف. إنما ليس مألوفًا أن تتوقع خلو طريقك من الثغرات. قد لا يكون انهزامك سوى انهزام مؤقت. لماذا تدير ظهرك للوسيلة التي تعبر بدقة أكثر عن وضعيتك وعن مطامح من تلتقي معهم في الأمل والاعتقاد؟

- أنت تعرف أنني كنت دائمًا متدينًا، فما الذي يضايقك في هذا التحول؟

- ليس التديّن هو المعضلة.. إنما الدفاع عن الحياة هو المعضلة.. حياة الذين انحدرت من صُلبهم وأصبحوا هم وأبناؤهم مهددين بالقمع والقهر والموت البطيء. لا حقّ لك، بعد عشرين سنة، في أن تعتزل معايشة الناس البسطاء الذين جعلوا منك رمزًا وأملًا.. تنسحب لأن آخرين استفادوا وتعبتْ أقدامهم؟

قال بنفاد صبر:

- اسمع. لستُ محتاجًا لوعظك. أنت وضعت دائمًا الذين بين قوسين. افتح عينيك لترى الآن كيف تعيش النُّخب القائدة، وكيف يعيش عامة الشعب. تغيُّرات حتمية تقول لي، أنا معك؛ إنما لماذا لم نعرف كيف نتواجد داخل هذه التغيرات بنفس الفعالية التي كانت لنا من قبل؟

- لأنك لم تشكّ حين وجب الشك.. استيقظت متأخرا!

- وَقِّرْ وقاحَتَك واحفظ لسانك. أنا الآن أكثر رضى عن نفسي بالرغم من المرارة والإحباط. لا أنتظر شيئًا. أفكر في لقاء ربي وتأمين العيش لأسرتي. ما عدا ذلك لا يهمني. أنت أيضًا خيبت ظني: تعتنق الأحلام وتُمنّي النفس بانتصار ينبثق من داخل الهزيمة. انس أنني أخوك، أو بتعبيرك، أنني صديقك.. فأنا أصبحت منتميًا إلى عالم آخر...

ودعته بفتور.

كان المساء يتقدم بعشوته رغم نُتَف قرمزية من سحاب لم تشمله بعد عَتَمَة الليل الزاحف.. وكنت أردّد مع نفسي بيت شعر تذكرته في تلك اللحظة: «أن ننظر إلى الليل المهزوم حتى الموت، وأن نستمر في الاكتفاء بأنفسنا داخله».

يقول راوي الرواة

أكثر من علامة تجعلنا نحس أن العالم كَبر كثيرًا بالنسبة لما كان

مألوفًا لدينا. يبدأ هذا الإحساس حين نعجز عن احتواء جميع ما وقع وعن اختزاله في كلمات ومسافات. بدورنا نتيهُ وسط خضَمِّ العالم ونلهث، عبثًا، لنوهم النفس أن الأشياء لم تتبدّل عمّا كانت عليه. لكن الدليل العكسي يأتي في شكل انفجار يجرف المقاييس والقيم، ويُخلخل العلائق. هذا ما وقع للهادي والطايع فيما أظن، بينما استطاع سي إبراهيم ولالة نجية أن يمتصا هذا العالم، كأنهما إسفنجتان، فلا يَبْدُوان على خلاف معه. ظلاّ في أحشائه دومًا، لكن كأنما عاشا مُسَوَّرَيْن داخل هذه الدنيا، تحرسهما عناية خفية من أن تُصيبهما شظايا الأيام...

لعلني تسرعتُ في الإفضاء بتأملاتي هذه حول ما حكاه لنا رُواةُ هذا الفصل. وقد لا يكون ذلك هو ما قصد إليه الكاتب لأن التعليقات التي أثبتها على الهوامش، تلح كثيرًا على أن الزمان لا يُوَقِّر أحدًا، وأنه غير مطمئن إلى الطريقة التي تصوّر بها علاقة الطايع بالهادي. وفي رأيه ـ إذا جاز لي أن أغامر بالاستخلاص ـ أن استقصاء الحالات وتشخيصها، عملية لا تقف عند حد: فكلما توخينا الدقة، اتسعت الدائرة وبرزت عناصر أخرى لا تخلو من تأثير. فتتوالد افتراضات تتقاطع مع الأولى. من ثم فإن الكاتب ـ إلى جانب ما سجله من أحداث وتفاصيل، سلّمني مجموعة أوراق ملحقة، تشتمل على بلاغات وخُطب وقصاصات صحف، وربورتاجات مُستنسخة عن الإذاعة.. فوجدتُني محتارًا عند الاختيار. لذلك آثرت أن أكتفي، هنا، بإيراد عيّنة فقط من تلك الأوراق الملحقة:

الأولى، عبارة عن بلاغ نقله الكاتب من صحيفة أو مذياع، أو لعله حاكى فيه ما كان شائعًا ـ وربما ما يزال ـ من خطب وبلاغات كانت تُنْثَرُ على الناس خلال العشرين سنة التي يشير إليها. وغالب الظن أنه بلاغ صدر عن حكّام الوقت.

والثانية، وصف إذاعي مباشر لحفلة مسابقة الجمال العالمية التي كانت قد أقيمت بفندق هيلتون ـ الرباط.

والثالثة، مراسلة صحفية عن استغلال عيْن مائية بقرية «دَبْدو» (إقليم وجدة) سنة ١٩٧٨.

بلاغ بدون مناسبة

«نَحمدُه ونُعيد، وفي كل مناسبة نطلب عَوْنَه ونــستزيد، على أن هدانا للمحجّة البيضاء، وأسبغ علينا العزة والنعماء، وفتح أمامنا كل الأبواب، فتذكروا يا أولي الألباب.

إن ما نبلغكم إياه، يُلغي كل ما سواه. وهو إن دلّ على شيء، ولا بد له أن يدل بحوله وقدرته، فإنما يدل على تقدمنا المطرد، نُحققه بما أفاء الله علينا من خيرات، ووهبنا من نعم وقدرات. ونحن إذ نزفّ إليكم هذه البشرى، توخيا للعظة والذكرى، فإنما لنحثّكم على اليقظة والتمسك بأذيال الفضيلة الربانية، دفعًا لحسد خصومنا ونواياهم العدوانية؛ فجمال طبيعة بلادنا، وأصالة تاريخنا وأمجادنا، تجعلنا غُرضةً لطمع الحاسدين، وقبلةً لذوي الفتنة الناقمين. فحافظوا على التشبث بالصبر والوحدة، لتدوم لكم ولنا الحياة الرغدة، واعلموا أن المحاكم والجيش والشرطة والوزارات، ساهرة لحماية البلاد والعباد

من اللغو والمزايدات، ولإعطاء الحقوق لمستحقيها، والضرب على أيدي منتهكيها.

إننا نؤكد لكم أننا على هذا الطريق القويم سائرون، وللمثل العليا حارسون، فلا تصدقوا ما تتناقله ألسنة السوء، ولا تُلقُوا بالاً لما يصيبكم من عنت وبلاء، لأن نتائج سياسة الحكومة الرشيدة ستظهر حكمتها عند من يليكم من أجيال وأبناء.. فناموا هادئين، واستيقظوا مستبشرين، وكونوا لما نطلبه منكم باذلين، وصلّوا لربّ العالمين قانتين....».

مذيع يصف مسابقة الجمال

«سيداتي سادتي طاب مساؤكم. أحييكم من فندق هيلتون - الرباط، وأنقل لكم صورة صوتية عن مسابقة الجمال التي تتام هذا المساء بمشاركة حسناوات من أوربا وآسيا وأمريكا وإفريقيا، كلهن جئن إلى بلادنا الساحرة البديعة، ليتملّين بمناظرها الخلابة، وليتنفّسن هواءها العليل فيزداد جمالهن نضارة، وبهاؤهن إشراقا وحلاوة. وكما قيل، سيداتي سادتي، ما أروع الجمال عندما يحوطه إطار من الطبيعة الفتانة. ولا شك أنكم ستوافقوني إذا قلت بأن هذا المهرجان الفينوسي شرف لبلادنا، وتعريف بإمكاناتها السياحية، وفرصة لحكومتنا الرشيدة كي تستفيد منه أكبر الفائدة.

سيداتي سادتي، أرى من حولي الوجوه متألقة مبتهجة، والجميع من مغاربة وأجانب، يتبادلون الأنخاب والكلمات والوشوشات، وينتظرون بداية العرض في شوق وتحفز.

الآن، سيداتي سادتي، نغمات الموسيقى الحالمة تهمس تمهيدًا ل... العرض، وقد جلست هيئة التحكيم في صدر القاعة مواجهة المنصة، من بينهم أحد وزرائنا السابقين عُرف بذوقه الممتاز، وخفة ...، وسهولة جريان لسانه في فمه.. ها قد لاح أول قدّ ممشوق يحمل : ربطًا أبيض يمتد من الصدر إلى الخصر وقد كتب عليه اسم البلاد الي ينتمي إليها: «النامسا». ثم تتوالى القدود وجميعها هيفاء، رخصة، أمواجُها وجوه صبوحة متلألئة.. يالهُ من منظر يبعث النشوة والدفء في صدور الرائين وقلوبهم.. آه! لكم أتمنى، سيداتي سادتي، لعيونكم أن تكون إلى جانبي لأنني أحس بالعجز عن الوصف. ماذا أقول عن السيقان المنحوتة، والأفخاذ الملفوفة، والخصور الرقيقة، والنهود الممتلئة الباذخة؟ الله أكبر! يا للابتسامات الجذابة تملؤني ثقة وإيمانًا بقدرة الباري الصنّاع، وبإبداعه الذي لا يطاله إنس ولا جان. إن المرء لا يتمالك نفسه من أن يصيح من أعماق قلبه مصفقًا لهذه الروعة، ولهذا الجمال. إنها لحظات خالدة يمتزج فيها الحسن بالنشوة، فتغمر هذه القاعة المسرةُ والهناء، وتصفو القلوب، ويتوقف الزمان!

نعم، سيداتي سادتي، إن العقل ليحتار، وإن الأدلاّء ليَتيهون. ولا أفهم كيف سيستطيع هؤلاء العارفون - ومن بينهم وزيرنا الذوّاقة - أن يفاضلوا بين هذه الآيات الجمالية. إن كل واحدة منهن قادرة على أن تذيب الحديد بابتسامتها كما قال شاعرنا العربي، وإني لا أتردد، سيداتي سادتي، في أن أسجد أمامهن إقرارًا بتفوقهن، وإثباتًا لضعفي، وما أظنكم ستفعلون إلاّ ما فعلت لو أتيح لكم، سيداتي سادتي، أن تحظوا بمشاهدة هذا الاستعراض الذي سيُتوّج الجمال خلاله ملكته... التصفيقات تعلو، والهمسات تُتبادل، والفتنة تستحوذ على الألباب. إنني عاجز شخصيًا

عن أن أفضل إحداهن على الأخريات. حقًا، هذا فخر لبلادنا وأي فخر، أن تطأ أرضها أقدامُ تلك الحسناوات. وما أظن إلاّ أن التاريخ سيُسجل بمداد الفضة والذهب، هذه المأثرة التي تحققها حكومتنا الرشيدة في هذه الفترة، لِيَخْلُدَ اسم المغرب ضمن أحبّاء الجمال والخير والفضيلة وما أجمله من شعار، سيداتي سادتي، نعتنقه ونستوحيه وسط أمواج الدنيا المتطاحنة المتهالكة على الماديات!

سيداتي سادتي، إنها لحظات قلّ أن يجود بمثلها الزمان الأيدي الناعمة، الرخصة، تتمايل في حركات رشيقة لتنقل القبلات المنثورة من ثغور ملكات الجمال إلى الحضور الكرام.. وألاحظ أن معظم الأنظار تتركز على الحسناء اليوغوسلافية ذات العيون الخضر والصدر الريان... ولا غرو، فالجمال قد أقام معبده من قديم على جبال البلقان، وفي سهول مملكة صربيا قبل أن تصبح إحدى جمهوريات يوغوسلافيا الآن....».

عين تافرانت بدبدو تحتكر من طرف من لا حق لهم فيها

منذ أن فتح سكان دبدو أعينهم على عين تافرانت وهي تُستغل في سقي حدائق سكان قبيلتي قوبيان والقصبة. حتى إذا جاء عهد الحماية، تحول جزء مهم من المجاري إلى سقي بُستاني المراقب المدني، وتزويد مسابح «البيرو» بما تحتاج إليه من ماء، من أجل استحمام الجالية الأجنبية.

وبالرغم من أن «البيرو» لا حق له في هذا الماء، فقد فرض نفسه على السكان، وأخذ نصيب الأسد بقوة السلطة والبطش اللتيْن كان لا

. , الى في استعمالهما ضد كل من سوّلت له نفسه الوقوف في وجهه.
..ا كان على أصحاب الحق إلاّ أن يرضخوا للأمر الواقع. وجاء عهد الاستقلال، وظن الجميع أن هناك شيئًا سيتغير، وسيسترجع كل ذي .ق حقه، وسُترفع المظالم عن المواطنين. ومرت الأيام والشهور والسنون، وجاءت الأشياء على غير ما انتظره السكان، إذ ما لبثت أن حولت مياه العين كلها، أو الجزء الأكبر منها، لا إلى سقي حديقتي الملحقتين اللتيْن أصبحتا في خبر كان، وذكريات السكان، بسبب الإهمال والتفريط اللذين أصابهما، ولكن إلى استعمال ماء العين لري .دائق رجال المخازنية التي أحدثت هنا وهناك على القطع الأرضية الجماعية التي أعطيت لهم من أجل استغلالها كمرعى لتربية خيولهم، أو زرعها بالحبوب لمساعدتهم على مواجهة «العلف». عوض هذا، فضل رجال المخازنية، ما دام الماء موجودًا ولا يكلف مشقة، أن يحولوا هذه المراعي البورية إلى بساتين يغرسون فيها الخضر والفواكه على حساب بساتين القبيلتين المذكورتيْن، الموجودة في المنحدرات، فأصبح هؤلاء الموظفون الذين يتمتعون بدخل، بحكم وظيفتهم الرسمية، يمولون سوق المدينة فيما تحتاج إليه من خضر، ويزاحمون البُستانيين الذين لا دخل لهم إلاّ ما يجنونه من أراضيهم. فهل ينتبه المسئولون وعلى رأسهم المجلس القروي إلى هذه الوضعية فينصفوا أصحاب الحق؟

ذلك ما نرجو ومعنا جميع سكان دبدو.

صحيفة (...) يناير ١٩٧٨

قلت وكم يهواك من عاشق

ارتعاب خفيف يعروني وأنا أرتاد الغرفة صحبتها. كنت أدرك أول الأمر أنها ليست جميلة، ثم تبينت، من خلال المشهد، أنها بشعة، رعبة في بشاعتها: تتكلم بطلاقة وتعرف ما تريد، وبي تريد أن تحقق رغبة دفينة. إنها تعتبرني «القطة» نادرة، فهي لم تضاجع من قبل مراهقًا أو رجلًا وسيما. بالصمت أحتمي، وبابتسامة الخائف أمام كلماتها المتدفقة وغزلها المكشوف. والشهوة، تلك التي تنامت في سريرتي خدرا لذيذا، تتبدد أمام هذا الرعب المنتهك.

لم أكتشف شيئًا مما كان يتخايل لي في عالم شهوة الجسد، واكتشفت فقط رغبة امرأة بشعة، باحثة عن ارتواء. شاهدا كنت لعملية المفروض أنني أحد طرفيها... ظل المشهد ولم يتطور. قالت أخيرا وهي مستمرة في هذيانها:

يا خسارة! الحلو ما يكملش.

كان ذلك في القاهرة ذات خريف. لم تكن الساعة تجاوزت الحادية عشرة صباحًا، ونداءات باعة الخضر والترمس والفواكه

تتناهى إلينا من النافذة المطلة على الشارع. أصوات الجارات تصلنا عبر مصاريع النافذة المغلقة، وهن يتحدثن ويعلقن ويتعاتبن، واقفات في الشرفات أو مطلات من النوافذ.. أصوات ذات نكهة خاصة استشعرتها وأنا في موقفي المحرج. كنت منفصلاً عن المرأة الموجودة لصقي في الغرفة، ومشدودًا إلى تلك الأصوات فيما يشبه الاستنجاد. وبعد قليل عندما ودّعتها، هرعت إلى الشارع أندس بين الناس والأصوات، وأبحث وحدي عن لذتي المتخيلة...

هل تمنيت أن تكون أمي معي في لقاءاتي الأولى بالشهوة؟ هذا الطقس الذي طالما ملأ الخيال وأجّجَ الدم تحت الجلد، كيف أرتاده هكذا بدون احتراس ومراعاة لما يستحقه من مقتضيات دقيقة؟ كأنني أهرب من حلم جميل ظل يفتنني.. وطال الانتظار فلم أعد أقوى على الإعداد لمراسيم الطقس، ونفد صبري أمام دلال زميلات الجامعة الضنينات بجمالهن.

ها أنا أحول الطقس إلى حقيقة منفرة مدفوعًا بقوى غامضة اجتذبتني نداءاتها القدرية إلى منطقة لها - رغم بشاعتها - أسرارها وروعتها.

خيالات وهواجس كثيرة لازمتني طوال النهار. وكان طيف لالّة ربيعة بعينيها اللوزيتين الضاحكتين، هو ما بدّد وحشتي وأنساني صورة المرأة البشعة.

* * *

يشتعل الخيال أمدًا طويلًا قبل أن يلتقي الجسد بالشهوة، قبل أن يرتاد بابها الضيق. تختلط اللحظات والمشاعر، تتعدد الأجساد وتتناسل في الذاكرة، لكن خيط الشهوة يسلكها في عقد كأنه الجمر يلسع المسام ويوقظها.

كيف يمكن أن نعيش بدون أن نختزن أجسادًا في جسدنا؟

قلت لها وأنا أتجه نحو الطاولة التي كانت تجلس إليها في المقهى الصيفي بالهواء الطلق، غير بعيد عن ساحة البريد المركزي بمدريد:

ـ لا أحد يستطيع أن يمنعني من الحديث إليك، ولو أنني لا أعرفك. عدا ابتسامتك ونداء عينيك، هناك رغبة قوية في داخلي تسلطني عليك.

ـ ولكنني أنتظر صديقًا... إلا أنني لا أمنعك من الجلوس.

في عتمة الغرفة، ونحن عاريان فوق سرير ضيق، كفَّ الضحك والابتسامات التي رافقت حديثنا من المقهى إلى ذلك البيت البعيد الذي أعارتك إياه إحدى الراهبات التي تعرفت عليها بعد مجيئك من وراء البحار... كنت تقهقهين وأنت تردّدين:

ـ ليغفر لنا الإله والأخت الراهبة فضيلة تدشيننا للبيت على هذا النحو!

كفّ الضحك والابتسامات، ورأيت لأول مرة القلق اللامرئي الكامن في عينيك والذي أشعل، لدي، المخيلة، والجسد. تلكأت نظراتي فوق منعرجات الخصْر والنهدين، وعند العينين سربلهما

حزن عميق، ونقط النمش توشي الوجه والصدر، وتلفهما في غلالة مثيرة.

تكلم الجسدان بنشوة واشتعال.

تكلم الجسدان حتى اقتنعنا أن كل حديث عدا ذلك، باطل. لا نريد نهاية للقائنا. خرجنا هائمين متشابكين. شوارع مدريد ملأى صاخبة. مياه النافورات ترش وجوهنا. نحكي عن كل شيء ونطفئ العطش المتجدد بكئوس البيرة ولا نتعب. وفي الساعات الأولى من الصباح، يضمنا الفراش وكأن الشهوة بكر لا تزال في جسدينا.

هل تذكر أيها الجسد العاق؟

في غمرة النشوة، في اندفاعة الجسم والنفس نحو المتراقي المنفلت باستمرار، يعاودك الوهم القديم الجديد: أن تمسك بما لا تستطيع أن تسميه أو تطاله.. أن تذوب في الجسد الآخر، في الكيان المستقل المثير بتفاصيله وفتنته وتمنعه...

تستلقي على ظهرك وتغيم عيناك في السقف المزركش بخطوط ضوء يتسرب عبر مصاريع باب البلكون الخشبية، ثم تهمس متحدثًا إلى المستلقية بجانبك الغائصة فيما لا تدري من مشاعر واستيهامات:

«هل تحسين مثلي بظلال الحداد تغمر تدريجيا فرحة النشوة العارمة التي تراءت لنا عبر رحلة جسدينا؟ أفكر الآن في امرأة عبرت معي من صحراء اللاشهوة إلى رحاب الشبق والخلاعة الجميلة. عشر سنوات عاشتها مع زوجها وما ذاقت هزة المجامعة. كان يضاجع

نفسه تقول. كانت تحس جسده بعيدًا عنها، والطهرية تقضي بأن نحترم طريقة الزوج في استحضار شهوته... ونحن نهتز معًا على مشارف الشبق المندلع من جسدينا، أحسست بها امرأة أخرى. جسدها المتواري قبل، خلف الخجل والحرمان، اكتسح أثاث السرير والغرفة وانتشلني من اعتيادية قد تضفي السأم على طقس اللذة. ومع ذلك ظللت أترقب شيئًا آخر...».

«معك الآن يختلف الأمر: تلقائية جسدك تجعل الشبق ينسكب في عذوبة توقظ ذلك الوهم في دخيلتي. أعي جيدًا أن هذا الفعل الطقس لا يمكن أن يتكرر.. لا يمكن أن يتكرر... هل تتابعين ما أقول؟».

نفس القلق اللامرئي يطل من وراء ابتساماتك وأنت تديرين نحوي وجهك. تصعدين زفرة وتنتصبين. أتابع ما تتفوهين به: «ليس لي ما أقوله. لا بد أن نغادر الغرفة. ثم إن المساء يقترب وهذه ليلتك الأخيرة بمدريد. ألا تريد أن تودع المدينة التي قلت إنها تسحرك؟».

وأنا أنهض لارتداء ملابسي تذكرت أننا لن نلتقي بعد تلك الليلة. كانت اللحظات المحظوظة تستعيد طابعها السرابي.

* * *

أحسست منذ أول لقاء أنها تختلف عمّن عرفت قبلها من الفتيات والنساء. لم أكن بحاجة إلى أن أراها تلك الليلة، بعد أسبوع من تعارفنا، ترقص بخطوات رشيقة لا تكاد تلامس الأرض، لأتأكد من أنها مختلفة عن الأخريات.

صيف ١٩٦٨ والساعة الخامسة بعد الظهر، وهي إلى جانبك في السيارة تدخن صامتة وتنظر بعينيها العسليتين المتناقضتين بهدوئهما الظاهري لغليانها وفورتها. تبتسم لها وتقول (بحثًا عن أي كلام):

- هل تضايقك السرعة؟

- أبدًا. على العكس، أحب أن تسير بسرعة أكثر رغم أننا نتجول بدون هدف....

والحديث يبدأ من حيث أتت من باريس التي لا تزال تعيش امتدادات الربيع الساخن. ووجهها الأبيض واللثغة المحببة عندما تحدثك بالعربية، يذكرانك بالطفولة ومدينة البدء...

تحدثنا في كل شيء كأننا نستأنف علاقة سابقة. كان التواطؤ بيننا ضد الآخرين وضد العالم ينسج خيوطًا تشدنا بقوة إلى وهم ضرورة خلق كل شيء من جديد. ووجدت أنها هي، الجالسة إلى جانبي في السيارة، الراقدة معي فوق الفراش، المتجولة عارية داخل الشقة، المحاكية في رقصها لـ«إزادورا»، الحالمة بمجتمع لا تحتقر فيه المرأة... وجدتها تجسد نموذجًا كنت أضعه دائمًا في منطقة الأحلام الممتنعة.

قلت لها يومًا:

- «أحيانًا أرتعب أمام جرأتك مع أنني أجدك في الفكر والسلوك، المخرج الوحيد من وطأة زنزانة يخيل إلي أنها تزداد إطباقًا علي...».

ابتسمت ابتسامتها الساخرة قبل أن تجيب بهدوء يقنعني دائمًا أنها من عالم آخر رغم اقترابي منها:

- «عندما غادرت البيضاء لأدرس في باريس، لم تكن سني تتجاوز الثامنة عشرة. كانت مراهقتي جحيما لأنني فقدت أمي في فترة التحول ولم أطق زوجة أبي فالتجأت إلى العزلة والقراءة. وفي باريس تراءى لي أن بالإمكان أن أجرب الحالات القصوى في الفكر والجسد والعلاقات. لعل هذا هو ما يخيفك: امرأة تهدم الليل بحثًا عن نهار مستحيل؟».

بدأت أشعر أنني قاصر عن التحليق في سماواتها. وهي على رحلتها مصممة.

استمر الحوار عبر الرسائل زمنا ثم انقطع.

ابتلعتني الدوامة. انشددت إلى اليومي المعاد. وفي لحظات الملل والكآبة يلتمع وجهها، يرقص جسدها الرشيق مجنحًا ليمسك بأطياف بللورية. بدأت ألتجئ إلى ظلال ذكراها لأحتمي من وقدة الهجير... امرأة من عطاءات الطفولة المنغرزة بين الحنايا.

هل تذكر أيها القلب الفالت؟

بعد خمس سنوات تراها جالسة في ركن أحد المقاهي بحي سان ميشيل، منطفئة النظرة، باهتة اللون، فاقدة لأناقتها المميزة... رأتك ولم تكد تحرك ساكنًا. تنظر إليك وكأنها تراك لأول مرة مذهولًا تقترب منها. تنحني لتقبلها على خدها وكأنك تقبل رخامًا. صوتها واهن يرتجف والسجائر المتتالية تدبغ أصابعها بصفرة داكنة.

أحسست أن كل كلام لن يكون إلا زائدًا. بل جلوسك إلى جانبها الآن نشاز، إعدام لانتصارات المرأة الحالمة المجنحة التي كانتها.

هل تذكر أيها القلب الفالت؟

هي، لا غيرها، التي ملأت فجأة فضاءك المقفر. حملت إليك «كل شيء»: من سفر الثورة حتى لذائذ الجسد القصوى. من فرويد وهيجل حتى حركة تحرير المرأة.

وتلك الليلة هل تنسى؟

مسربلة في ثوبها الأسود وشعرها المضموم في شكل حدوة حصان، والعينان العسليتان الدافئتان.. وأنت وأصدقاؤك تحيطون بالشاعر الوافد من بلد شقيق. يتعثر الحديث قبل أن تبدد الكئوس الخجل. وهي في تلقائيتها المعهودة تبدي رأيها وتمزج العربية بالفرنسية. لا تقبل أن يكون الحديث قاصرًا على الرجال. لا تقبل أن تطغى المجاملة والتكرار. لها رأي في كل ما يطرح. وصديقك الشاعر غير معتاد على هذا النوع المقتحم من النساء. حضورها ينفخ في جمر السهرة فتتداعى الأسوجة والأقنعة.

ولماذا لا نرقص؟ تقول.

امرأة واحدة ترقص معنا جميعًا؟

لا كل واحد يترك لجسده أن يتكلم.

في رشاقة تنتصبين. تنتقين أسطوانة وتشرعين في الرقص. نحاول أن نجاريك ولكنك تحلقين بعيدًا. شيئًا فشيئًا تنفصلين عن الأرض فيبدأ الشاعر يصيح:

ـ رائع.. منتهى الروعة.. جميل (ويُعَطِّش الجيم محركا يديه المكتنزتين).

شعشعت الخمرة في مسامنا، وفتّنا جسدك الهامس بحركاته المشبقة المتناسلة. ألاحق في يأس كل اهتزازات جسدك محاولًا اختزانها وأنا أردّد بيني وبين نفسي شعرًا قديمًا:

قلت وكم يهواك من عاشق   قالت: ومن يهواني فقد كفر

فجر تلك الليلة بعد أن ودّعنا أصدقاء السهرة، كنت في قمة الانفعال كنت أرتجّ وأنا أجُوس بشفتي عبر مناطق جسدك الشفاف. كنت أقول لك فيما يشبه الهذيان:

ـ حركات جسدك لا تنسى.

استمر الحديث بيننا. كان كلامك عن تعثر الانطلاقة، عن تبدد مطامح المنظمة ينقلني إلى منطقة الحقيقة التي كنت أستشعرها ولا أريد أن أفتح العينين لرؤيتها في واقعها لا كما كنا نوهم النفس. وحدها كآبة ذلك الحديث هدت في داخلنا استنفار الحواس والمشاعر، فاستسلمنا للنوم.

ثلاثة أشهر وجسد كلّ منا لَصْق جسد الآخر. الجدال لا يكاد ينقطع. كنت أقول لك إنك تُشْرعين أبواب الأمل والتحدي من خلال كلامك المتمرِّد، لكنك أيضًا تحملين في الأعماق كل يأس الدنيا والآخرة.

ـ من أراد أن ينتظر شيئًا من الحياة لا يملك إلا أن يعانق الأمل اليائس...

هل ذلك ما لم أدركه إلا حين رأيتك بالمقهى غارقة في سهومك المسترسل؟

كانت قدرتك على التركيز والوضوح تذهلني. كلما تاه بنا الحديث في مسالك المنظمة وإحباطاتها، تقولين بحسم:

«سيطول بك الانتظار، إذن... ولن يتغير شيء. أنا هنا في داخل الوطن أحس أنني لن أستطيع بعد أن أنسجم مع الناس. ما من لغة مشتركة بيني وبينهم. لا أستطيع أن أؤجّل حياتي إلى ما بعد. أهون عليّ أن أمتطي صهوة الجنون أو أن أرتاد السجن من أن أستمر هكذا أعيش بالتقسيط كما تفعلون...».

كانت تلوح، عندئذ، حياتك في صورة قَدَر محتوم، متهيئة: بين الجلد والعظم سكنت فيك لوثة المغامرة - الشهوة - التمرد - الرفض.. ولا تستطيعين أن تتنصلي منها. أنت من قبيلة الذين يشربون الكأس حتى الثمالة، يركبون الموج حتى الأعماق ويكتبون صفحات حياتهم من دواة الجرح.

أحسست بضآلتي وأنا منفي في عالمي المعتاد أتطلع إلى عينيك الساهمتين تحدقان في لا شيء وأنت تنفثين دخان السجائر ولا تجدين جدوى في الكلام. نفس الإحساس سحقني وأنا أزور ضريح «بويا عمر»، ملجأ الحمقى بالقرب من مراكش. كانوا مشدودين إلى دواخلهم تصدر عنهم صيحات أو بكاء. يطوفون حول ضريح السيد. يغرقون في سهومهم. وسط الباحة المفتوحة على السماء، وعلى جدرانها المطلية بالجير، تستند الشخوص - الأطياف. تسهو. تَتَمَلْمَل. فجأة يصيح صوت. تجري بنت إلى قبة الضريح وتهوي بيديها إلى

الكساء وهي تندب وتتشفع. يعود الصمت. والرجل الأعمى الموثوقة يداه بسلسلة حديدية يقوم بين الحين والآخر بحركات رياضية.. حركات يروض بها عفاريت تحركه من الداخل، ثم يعود إلى ركنه وصمته.. يغرقون جميعهم في سهوم ثقيل.

لن أعرف قط ما الذي اختل في جهازك أنت التي كنت تبدين في عنفوان التماسك والصلابة والإصرار على تفجير كل شيء. ولأنك جزء من «طفولتي» فأنا لا أذكرك، الآن، إلا ضاحكة واثبة، راقصة. لا أذكر إلا هُيامك بالفرح: عناقيد ورد أو أكاليل دم، أو أعراس حلم. لكنه الفرح. الفرح، تقولين، يستغني عن كل عقل...

أتذكرك وأحاول أن أقنع نفسي بأن صورتك في المقهى لم تكن سوى كابوس عابر اختلط بأحلام يقظتي، بعد الظهر، ذات خريف.

باريس ١٩ يونيو ١٩٧٠

عزيزي الهادي

لم أخطرك بمغادرتي تجنبا لمناقشة غير مجدية، فأنا مقتنعة بعجزي عن العيش تحت وطأة توجس وانتظار وأمل كاذب تصنعه كلمات لا تعي طبيعة الكابوس، وشراسة سدنة المعبد. ثم إنني تعودت ـ بسبب استلابي، ستقول ـ أن أعيش حاضري كلية وفق ما يشعرني بالامتلاء وتحقق الذات. لست أدري كيف عشت ـ من جانبك ـ علاقتنا. أما أنا، فقد عشتها من خلال التلقائية التي علمتني إياها تجاربي في باريس. تلقائية تستجيب للآني، لنشوة اللحظة، ولتوفر التواصل وجريان الكلام: ذلك ما يبدد السأم ويضوئ النفس.

متى اشتعلت الشرارة بيني وبين الآخر ضمن التواطؤ، والانجذاب، وإعادة ابتكار اللغة والأحلام، استجبت بدون إبطاء، تاركة للمحللين ومراقبي السلوكات أن يرصدوا هذه الظاهرة ويؤرخوا لها....

أعود إلى باريس، إذن، وأنا مدركة أنها تغيرت عما كانت عليه سنة ١٩٦٥ عندما وصلتها أول مرة، وواعية بما أحدثته إقامتي من تبدلات لديّ، حدثتك عنها كثيرًا خلال سهراتنا الممتدة في شقتك بالرباط. لقد كنت تستغرب كيف أن فتاة مثلي استطاعت أن تستجيب لإغراء تجريب كل شيء، والتطلع إلى الحالات القصوى في مغامرات العقل والجسد. قد تكون قراءاتي هي التي وجهتني أول الأمر. لكنني سرعان ما تبينت أنني مقبلة على اكتشافات لن تتركني على ما كنت عليه من قبل. قالت لي باريس:

«كل تحول يبدأ من الجسد، ونحن لا نعيش مرتين وإذا لم نندرج ضمن الحركة ولم نبتكر لغة تُسْنِدُ تغيرنا الحتمي، أغرقتنا المواضعات، ولفّنا الموت البطيء...».

كلام بسيط، إلا أنني وجدته مجسدًا من حولي في الخطابات والسلوكيات. وبدأت المقارنة: ماعشته أو يمكن أن أعيشه في المغرب، وما هو متاح، هنا، في شكل تجربة ـ مغامرة، مفتوحة لا أعلم إلى أين ستنتهي بي.

لم أكن، أول الأمر، أعيش مغامرتي كامرأة مشروطة بنظرة الرجل، لأنني كنت أعتبر نفسي في وضعية مماثلة لوضعية زملائي الطلاب المغاربة. كنا نعيش مرحلة التحولات والمخاضات المنذرة بالتحرر والثورة. وكنت مفتونة بالحالات القصوى، كما قلت لك. ولَدَيّ

شغف أن أجسد ما قرأته وعاينته.. وكلما استوعبتُ قسطاً، طمحت إلى ما هو أبعد.

عشت بكلّ كياني فورة مايو ١٩٦٨. كنت أحضر التجمعات في باحات السربون، وأناقش وأستشهد بسارتر، وماركوز، وفرويد... أنتقل من علاقة لأخرى بحثاً عن مطلق يتخايل لي في كل حين. من حولي، كان عشاقي يستغربون وينفضّون عني، تخوفاً من نهمي وجرأتي على طرح الأسئلة. لم يكن اصطياد زوج هو ما يشغل بالي. كنت مشدودة إلى محاولات التركيب بين ماركس وفرويد، وإلى أطروحات تحرير «الجنس الآخر». لعلك تذكر مناقشتنا لفيلم «حكاية أو» (Histoire d'o)، وطريقة فهمي لهذه الرواية المبتذلة فنيا (كما كنت ترى). إن قيمة الفيلم - في نظري - تمثل في طرحه لسؤال دقيق: كيف سيصبح موقف الرجل، من الحياة، عندما تجرؤ المرأة على محو نفسها، «حرمتها»، من خلال المنح المطلق لجسدها؟ ماذا سيفعل، ذلك الرجل، عندما لن يعود هناك مخلوق يتأبى على رغباته ونزواته، وعندما تصبح المرأة أقوى لأنها استوعبت واستجابت لكل «طلباته»؟ وكنت تجيبني ساخرًا:

«لن يبقى أمامه سوى الانتحار بعد أن يكون قد «انتصر» على جميع من كان يجرب عليهن تفوقه!».

لعلك لا تستطيع أن تدرك تماماً حالة من يعيش «حياته» من خلال سلطة قبلية تصادر أحلامه وأهواءه، وتحرمه من أن يكتشف، بجسده ومشاعره، أوهام الفعل الحر والانتشاء بالتجربة. وحين يكون الرجل المتشبث بامتيازاته هو من «يعطيني» متعة التجربة، فإن المرأة تطمس ما

عداها. هل هذا هو ما جعلني، دومًا، حذرة من الوقوع في شبكة العلائق المبتذلة: رجل يجرب سلطته على امرأة تقاوم تسلطه أو تستكين... كان شيء أهم يملأ مخيلتي ويشدني إلى المغامرات الواعدة بالتجدد والاحتراق.

أكتب لك هذا الكلام وقد مرت سنتان على إشراقات مايو ١٩٦٨، وبدأت الأحلام المتوهجة تخفت، وسلطة المؤسسات تسترجع سيطرتها، وأفعال التغيير تتحول تدريجيا إلى خطابات تحليلية... لكنني مدركة، الآن، أن اختياراتي لم تكن فقط تحت تأثير ثورة الشباب هنا. أشياء كانت مهيأة في أعماقي لأصير الفتاة (العانس؟) المغامرة، الظمأى، المتحدية للحدود والمواضعات. بل منذ وصلت إلى باريس، أول مرة، وأنا أجري وراء صورتي التي أعايشها الآن: امرأة لا تعترف بغير ما يستجيب للرغبة، تتكلم بصوت مرتفع لتفهم ذاتها وتنفذ إلى ذوات الآخرين، تناهض رموز التسلط والوصاية في مجتمعها (وفي كل المجتمعات)، تحلم بأن تُجسد نموذجًا آخر مغايرًا لنموذج المرأة ـ الدمية. وكما قلت لك ـ عندما سألتني ـ فإن هذه الصورة ـ الحياة لا تعطيني سعادة متوهَّمَة. إنها ترسم لي أفقا، غير أنها «تعزلني» لكنني أتشبث بعواقب الاختيار، وأتحمل ما يتراءى لي، وراءه، من عذاب واختبارات قاسية.

لغيري أن «تراجع» النفس أو تميل لنصائح الأهل، فترتد إلى طريق الصواب وتنتج البنين والبنات. أما أنا فلا مناص لي من متابعة التجربة مهما يكن المآل. أتابع السير حتى وأنا أعلم أنني لن «أحقق» شيئًا. ليس هذا هو المنطق الذي أقيس به حياتي الآن. بل إن التدمير،

الانتحار البطيء، الجنون... احتمالات لا تخيفني. لقد بلغت نقطة اللارجوع. وعندما أبتعد قليلًا عن تجربتي، وأطل من بعيد على «سار آخر «ممكن»، لا أقوى على تحمّل صورتي في إطاره: لا أحتمل فكرة أن أعود إلى تحليل أوضاع المرأة والرجل، ووسائل التحرير... أتخيل زميلاتي أو فتيات أخريات ينسجن هذا السيناريو ن تحرير المرأة وقد انغمرن وسط دوامة التبرجز، محاولات تقدد في الوقت نفسه، مثلما تفعلون (وأنا كنت معكم) للتبشير بمجتمع اخر. لم أعد أستطيع أن «أمثل» دورًا أظهرت لي التجربة عبثيته، أو بالأحرى، سخفه: أكون فيه أنا العارفة، المتمردة، الجريئة، الداعية لخلاص «أخواتها» المقهورات المظلومات... إلخ.

لكنني وأنا أتحدث إليك هكذا بقلب مفتوح، لست متأكدة من أن إرادتي وحدها هي التي تملي عليّ ما أفعل. ربما صرت جزءًا من «بنية» كما يحلو لك أن تفسر.. جزء من رؤية توافرت شروطها فلم أعد أستطيع الانفلات من قبضتها.. لا يهم التفسير لأن «ذاتي» ممتلئة باللحظة ـ الحلم ـ الجنون، بما لا تلبّيه الكلمات ولا السعادة المبتذلة.

-

ماذا أقول لك بعد؟

لن أصف لك حركة «الحي اللاتيني» كما كنت تصر على تسميته، فهي الآن حركة مكرورة مع ضمور الحماس واسترجاع اليومي لقوته الامتصاصية. وأنا لا أقرأ كثيرًا مثلما كنت من قبل. أعيش متنقلة بين الوجوه والأجساد وعلب الرقص. أرقص حتى الإنهاك على طريقتي. أخلق لحظات «محظوظة» كل مساء وأغوص في تفكير

بلا حدود (أغوص: ربما هذا هو اللفظ المناسب). وأنا أغوص، أحس باقترابي من رؤية تنتفي من أفقها مقاسات الربح والخسارة، هالات الطهر والعهارة.

لك تحياتي

ف/ ب

زمــن آخــر

استهلال نوبة العشاق

كون منغلق ومفتوح، أقول دائما كلما اجتزت «باب الجلود» أو «البطحاء» في طريقي إلى منزل الطفولة ومرابع الشيطنة وفسحات اللعب والسمر. أتمتم بأشياء كثيرة، مختلطة، مبهمة، غالبا بدون معنى، وأنا أرتاد سبلك ودروبك وأزقتك للمرة التي لا أدري موقعها في ترتيب الألف. أتمتم حتى أدفع عني الغربة وأؤكد الانتماء لأحجارك.. حتى أتحمل الدهشة المستولية علي أمام جدّة السحنات والكلمات والرطانات، أمام الألوان المتناسلة من بلورة موشورية تظلل فضاءاتك: «قد سمع الله لمن حمده» تأتي من مسجد صغير مشرع الأبواب، «تْعَالُوا على لَمْليح» يقولها بائع الفواكه، «ثلاثمائة وخمسين ريال... حراج» ينادي الدلال وسط زحمة الشرابليين. «أنا عبد الزين» يصيح خراز من داخل دكانه وهو ينظر إلى سِرْب من العيون المشعة، المتلألئة، وراء اللثام، «بَرّدْ يا عطشان» يردّد بائع المشروبات غير بعيد من أحد أبواب مسجد القرويين...

جلاليب بيضاء تحاذي جلاليب رمادية وبُنّيّة وسوداء، والطرابيش

الحمراء تطيل هامات أصحابها، والعمامات البيضاء والصفراء تزين الرءوس بجدائلها المتراكبة عبر تموّجات محبوسة. والبنات والنساء المرتديات تنّورات وبنطلونات وأقمصة مفتوحة يُقدّمن نسخة أخرى للأجساد والوجوه المتوارية وراء جلابيب فاتحة اللّون في معظم الأحيان.

أنظر إليك كأنما أبصرك لأول مرة: أبصر الحياة داخل محارة مفتوحة الصدفة. لا يكفي أن أجوس عبر جزء من أحيائك وأسواقك تظل النظرة ناقصة. يظل الفضول متحفزًا قبل أن أستكمل التطواف وأملأ العينين والحواس بناسك وأشيائك ومعمارك: الطالعة الصغيرة، كرنيز، سيدي موسى، باب مولاي إدريس، الشماعين، القرويين، المركطان، القيسارية، العطارين، الرصيف... المسارب متداخلة كالمتاهة، غير أن لكل حومة وكل حي ألوانه ونكهته وقطعة فضاء تسمُه. وعندما أتمم الجولة وأستكمل النظرة أبدأ أستعيد ذاكرتي فيك: تنبثق صوري ورموزي داخل عالمك المتجدد وأشيائك المتحولة.

هل أنا ذلك الطفل الذي كان يظل الساعات الطوال، برفقة أولاد الحومة، ينبش رماد «العطارين» بعد أن ابتلعت النار دكاكينها وسِلَعَها وتوابلها، بحثا عن قطع نقدية معدنية صَمَدَت في وجه اللهيب؟ «عاود ثاني شعلت العافية فالعطارينْ» يقول الخال بصوته الجهْوَري ذي القرار المهول، فتتسرّب الفرحة إلى نفسي، لأن عملية التنقيب وسط الرماد ستحمل المفاجآت وتجدد إيقاع اللعب، وتلوّن المسرّات.

كيف كانوا يعيدون بناء دكاكين العطارين وترميمها بسرعة بعد

«ا. . ريق؟ دائما أُفاجأُ بأطلالها تقف على قدميها في وقت قصير، ا. . د الحركة، ومعها الزحام واللغط، إلى ما كانت عليه كأن اللهيب ا م ، مس بألسنته الثعبانية طوال الليل ملتهما سقف القش الممتد ا. فضاء العطارين ومن دكاكينها؟ أنظر الآن إلى هذه الفسحة الـ . يلة ترتادها من العطارين، حيث بضعة دكاكين تبيع أواني الفخار والماواجين والحناء والقطران، وحيث مسجد صغير يترقرق ماؤه ، ، ، انقطاع في ظل شجرة فارعة امتدت فروعها وأغصانها القوية الى ما فوق الدكاكين والبنايات، غير بعيد من المارستان. انظر الآن، والـ. ـال كيف عجزت النار عن أن تبيد الحياة في هذه الرقعة المنحشرة بين السنازل والمساجد والمتاجر، عشا بين الأعشاش.

تحول الأشياء وتبقى الصورة؟ تبقى الأصوات وما اختزنته الحواس؟ أم إن الفضاء يبقى والزمان ينقضي ويحول ليعبر عن صوره في أشكال ومشاعر أخرى؟

كأننا نستعيد الزمان ـ الفضاء دائما على حساب حاضر غير مطمئن.. كأن ما يحدث الآن قد حدث في منطقة تقع بين المعيش والمتوهم، بين المحسوس والمتخيل كل شيء ممكن، والرحلة يمكن أن تبدأ من جديد بنفس الحماس والاندفاع، لولا ثقل التجربة وانجرار الزمان!

هل تكذب المدينة؟ هل فاس تكذب؟

كل صباح، كنا نسمع حوافر بغلته المحذوظة بصفائح حديدية، تصلصل عند ارتطامها بالأحجار الصغيرة المنغرسة في تربة الطريق المنحدرة من سيدي موسى إلى النجارين.. وأبادر إلى الباب

لأتابع حركـات «الحاج عبـد الواحد» من فوق البغلة وهو يرد على تحايا الناس في وقار ملحوظ.

انقرضت البغال المطهَّمة وبقيت الحمير!

هل تكذب فاس أم الذاكرة جلّلَها النسيان؟

أكثر من عشرين يوما والمدينة القديمة محاصرة، تغلي بشيوخها ونسائها ورجالها وأطفالها. حركة لا تهدأ والمساجد تصدح جنباتها بتلاوة القرآن والأذكار وترديد اللطيف. تفجّر التحدي في وجه السلطات الفرنسية وأعوانها، واشتعل الحماس الوطني على الوجوه والجدران وعبر الحناجر، ولم ينفع التخويف بالتجويع وقطع المئونة. يتظاهر الناس ويهتفون، والأزقة الضيقة مكتظة، والنساء يُزغردن من فوق السطوح وعبر الطّاقات. الألسنة لا تتوقف عن نقل الأخبار، والآذان مشدودة إلى الإذاعات الخارجية، والمناشير تنقل التعاليم وتبتدع لغة الرفض. من الصباح إلى المساء، و«فاس البالي» على قدم وساق: عشرات الشباب يسهرون على توزيع الخبز والمواد الغذائية،ويواسون عائلات الذين اعتقلتهم سلطات الحماية.

تغير وجه فاس في عيون أطفالها: الكبار هم الذين يصيحون ويجرون ويتلامسون، ويقضون الساعات الطوال في الأحاديث والتعليقات مضربين عن العمل. يتوجسون عبر الأمل، ويجرفهم التوتر والاندفاع. ونحن الأطفال نحاول أن نستعيد داخل ذلك الجو المكفهر، المثير، مجالنا الحيوي من خلال ابتكار لعب أخرى ومحاكاة إشارات الكبار وأصواتهم.

هذه الأزقّة نفسها التي تَمسَحُها الآن بنظرتك المتهيّبة لملصقات ..؟ حي الانتخابات التشريعية ذات الشعارات الطنانة الواعدة، هي الـ.. كانت تزلزل تحت هدير الأصوات المنادية بالاستقلال والحرية، الـ.. ملاحمة في حماس تلقائي يستمد نسغه من اقتناع غير مكتوب على الـ.. لصقات.

لا تحاول أن تقارن أو تُعلل، فالأشياء والعلاقات تشي بحمولاتها .. ستغني عن التفسيرات.. وقد تكون، في اختلاطها وتمازجها، تمهد .. فضاء آخر له شعريته وميثولوجيته. غير بعيد، يطالعك دُكّان الخياط المكسوة جدرانه، منذ زمن طفولتك، بصور لاعبي كرة القدم وصور الملاكمين.. صور نصلت ألوانها إلا أنها تسترعي الانتباه: اللؤلؤة السوداء، العربي بن مبارك كما كانت تسميه الصحافة الفرنسية في الأربعينيات، وهو يوقف الكرة برجله استعدادا للمراوغة فيما رسمت يداه حركة تقاطع تُعينه على خداع اللاّعب الذي ينتصب أمامه. وعلى الجدار الأيسر، صورة مارسيل سيردان، بطل الملاكمة العالمي بوجهه المكتنز وصدره الكثيف الشعر، ويديه المتدثرتين وراء جلد قفاز الملاكمة السميك. احترق سيردان في الطائرة وظلت بطولته خرافة في أذهان المعجبين. وفي الأيام الأخيرة، عاد الناس إلى نبش ذكرياتهم عنه بمناسبة عرض فيلم سينمائي فرنسي يحكي غرام سيردان بالمغنية إديت بيّاف.. والحاج العربي بن مبارك تذكروه في التلفزة أخيرا فقدموا عنه فيلما وثائقيا: كان يبكي وهو يتذكر زوجته الراحلة وابنه المعوّق.

وعند عتبة باب ضريح مقفل، تكوم قارئ القرآن، الأعمى بطاقيته

الصوفية وجلابيته المهترئة كأنه ذلك المقرئ القديم نفسه الذي كان صوته يحدث في نفسك انقباضا تحار في تفسيره.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ...﴾ يقرأ وعيناه المطفأتان، المكشوفتان، يصبّ بياضُهما في بياضِهما كلما مدّ النبرة ونفرت حباله الصوتية من خلل عروق عنقه...

والعجوز بجلبابها ولثامها المنحدر إلى ما تحت الأنف، تستند إلى عكاز لتصعد عقبة «سويقة بن صافي» فتبدو مهددة في كل لحظة بأرتال الحمير والسابلة المتعجلة، لولا أن يدا تمتد إليها لتُسعفها على شق طريقها وسط الحشد المتدافع بالمناكب والأكتاف. والدكاكين غيرت من سلعها: سراويل جينز وقمصان أمريكية، معاطف وبدلات جاهزة، صدريات مزوقة بشعارات وأسماء أجنبية، أحذية الرياضة ونظارات الموضة البراقة.. والصبايا والصبيان يستفسرون عن الأثمنة ويتبادلون المعلومات عن أجود الأصناف والأشكال قبل أن يمتد الحديث، احتمالا، إلى المغازلة وضرب المواعيد!

وأنت، مأخوذا بما ترى، تظل مع ذلك مشدودا إلى العيون الوسيعة الواشية بابتسامة خلف اللّثام. كأن هذه الأزقة والدروب لا تزهو وتتألق إلاّ بالجمال المحجب المنطوي على أسرار الهوى والفتون... وأذناك تسقّطان ما قد تلفظه شفاه النساء في حديثهن، وخاصة الأصوات ذات اللثغة الموقظة لذكرياتك الغافية: «سيد المصطفى وأجرك على الله، يَرْضَمْ على الزبيبة وتطلع معه حلاوتها..» لا تتوهّم، فالأصوات قد تتشابه ولكن التي تحاصرك صورتها منذ وصلت إلى حيّها، غير موجودة. رحلت، شاخت، ماتت؟ سيّان تقول ما دمت أستطيع أن

ا بعد عينيها اللوزيتين الضاحكتين، وأستحضر بسمتها الآسرة ،،ـازتها المميزة.. كيف أنسى قدمها الأهيف وهي ترقص وسط ال ،اء المفتونات أيضا بجمالها؟ لالة ربيعة طيف من عوالم ألف ليلة ،الف تقول لك ذاكرة الطفولة الممتلئة بما سمعته خلال أيام النزاهة ،م خالك «سيد الطيب». ترقص لالة ربيعة فيتغير المكان والزمان. ،،،س أنها ترقص لك وحدك، لأنك الطفل الوحيد الشاهد على ،،مها الأنثوية. تقبلك وتداعبك فتوقظ فيك الشهوة المبهمة وتقود ،طواتك الأولى على طريق تقديس حضور المرأة. محفوفة كانت ،الأسرار والغموض: كنت تغار عندما ترى نساء الحفل يحطن بها ،ي وشوشة تقطعها الضحكات والخبطات على الأفخاذ مع عبارة ،ضاعف غموض الحديث لديك: «يَعْطيك هَدَّة يا العفرية».

تنزل وتصعد، والأزقة المستوية السطح قليلة، مما يجعل نظرتك إلى الناس والأشياء دوما من فوق أو من تحت. لا تتعب قدماك من التجوال عبر مسالكها ومساربها، وتخال نفسك، الآن، في مدينة الأحلام: موادُّ التغذية تجاور الملابس، وبائع الحليب غير بعيد عن بائع الفواكه، والمكتبة محاذية للخياط، وأغاني المذياع ونشرات الأخبار وتراتيل القرآن تختلط بالكلام والصياح والضحكات... بل حتى الكلام الأجنبي يَنْدَسُّ وسط جوقة هذا الكرنفال اليومي من خلال أفواج السواح والسائحات. تنزل وتصعد محاولا أن تتذكر متى بدأت تتساءل عن تلك النكهة التي فقدتها منذ رحيلك إلى المدينة الشاطئية... نكهة لها رائحة مع أنها متصلة بمناخ بشري: رؤية البنات والنساء البيضاوات الفتخاوات يَبْشرتهنَّ الحليبة الناعمة، وعيونهن الناعسات،وإشاراتهن الرقيقة... أبدًا يُعطينك الإحساس

بأنك لو اتكأت عليهن «لا نهدمن» تلك الرؤية التي فُطم عليها خيالك الطفولي، لها الآن في ذاكرتك نكهة الحبق المطل بخضرته المقببة فوق أواني الفخار المبثوثة في الدار الكبيرة. لها الآن رائحة الياسمين المتضوعة، ليلا، في رياض ابن الخالة بحيّ «الدُّوح» أثناء ما كنتم تسهرون برفقة بنات مُترفات الجمال... ولو استرسلت لقلت إن لها نكهة طبق «المروزية» عندما يسخن بعد مرور شهر على إعداده في عيد الأضحى، فتنتشي النفوس بروائح التوابل الزكية: القرنفل، قاع قلة، الزعفران...

تصعد وتنزل والأزقة ماضية في التواءاتها، في لعبة الانحدار والصعود، الانفراج والتلاصق، أبواب البيوت تغري بتخمين ما تنطوي عليه من معمار وزليج وبشر. هل تستطيع بعد، أن تميز ـ عبر روائح الطناجر والقدور ـ أصناف المأكولات وأساليبها، الطبخية؟ كأنك تقترب من الدار الكبيرة وتتناهى إليك رائحة طَبَقك المفضل «اللحم بالكرنينا»، والرجل الفارع قاعد في صدر الغرفة بقميصه الأبيض ينتظرك وتحني رأسك لترتاد عتبة السطوان الأول، ثم تخطو وتجتاز عتبة السطوان الثاني، ثم تتخطى عتبة الباب الصغيرة لتطالعك الباحة والخصة الملجمة، وترفع بصرك فيرتدّ عند الدفتين المتعانقتين والصمت المطبق. بعد قليل يأتيك صوت «رقية» من الصقلبية وهي تتساءل: «شكون؟» وتردّ أنت: «غير أنا أمّي رقية» فتتعرف عليك وتبادر بالنزول حاملة فوق ذراعها طفلا في الثانية من عمره، أبيض، مدور الوجه، بدون سروال، وتغمرك بالقبلات وهي تردّد: «الريحة العزيزة». تجلس على عتبة البرطال وهي تُصِرُّ على أن تعد لك الشاي وأنت تمسكها من يدها وتداعب الطفل، ابن ولدها، وهو فَرْحَان بهذا

الزائر الغريب فيجري ويدور، وخَمامُته تهتز داخل حِجْره في تلقائية إبلياج...

أنظر إليك من فوق التَّل، من فوق سطح فندق المرينيين، من حيث تبْدين بعيدة وقريبة: خلايا نحل بدون طنين، وفي دخيلتي ترنّ الكلمات وتتحاور، لتنسج صفحاتك التي ترَتّج بقراءتها الأعماق. أقول إن مصنع الأحلام توقف ونضب خياله بعد أن أبدع صورتك، وخلائق الناس في فضائك ودروبك المتشابكة. توقف الحلم بعدك لكنني أحس فيما يشبه الومض، أن بالإمكان أن أرْتجِلَ فيك، عبرك، الحلم. كل الشخوص انبثقت من أحشائك وعاشت تحت سمائك، غير أن حيواتٍ غير مسبوقة يمكن أن تُبْتَدَع بعد، داخل أزقتك وبيوتاتك وأسواقك ومساجدك. كل الزمان انحسب عبر سَرْمدك الآني، فلم يعد هناك مجال للمفاجأة والدهشة، ومع ذلك فجميع الذين يرتادونك يَحْذُوهُم أملُ إطالة الزمن – الوهم، بين حناياك.

الشخوص جميعها جاهزة لتبدأ وتعيد لعبة الكذب / الحقيقة، لعبة النسيان من أجل الوقوع في الخطأ، وإعادة ابتكار لعبة الحياة.

إضاءة

عند مدخل الفيلّا بطريق إيموزار، وتحت أسلاك مرصعة باللُّمبات، يقف سي إبراهيم وإلى جانبه ابنه العريس عزيز، وخاله الطايع، مرتدين جلابيبهم البيضاء وبَلْغَاتهم الصفراء «المدفونة» لاستقبال المدعوين إلى حفل العرس. إحدى الأمسيات الربيعية بفاس، بعد أن رحل الجفاف ومنَّ الله هذه السنة على عباده بمياه

الرحمة والخير. أنغام الموسيقى الأندلسية يعزفها جوق الحاج عبد الكريم الرايس مصحوبة بإنشاد جماعي ومواويل فردية. الوافدون رجال في أغلبهم، ومن حين لآخر يصل بعض المدعوين أزواجا أزواجا، نساؤهم مرتديات القفطان والمنصورية بدون جلاّبة، فيسلم عليهم سي إبراهيم في حرج لأنه لم يقبل أول الأمر أن يكون الحفل مختلطا لولا إلحاح من ابنه عزيز الذي يحرص على مسايرة رغبة زوجته العصرية. وشارك الطايع في إقناع سي إبراهيم مستشهدا بقول مأثور عن الإمام علي يحث فيه الآباء على تعليم أبنائهم ما يناسب زمنهم.. اقتنع سي إبراهيم وهو يردّد: «اللّي جابتو الوقت ما عندنا هروب عليه. حنا نبغيو لهم غير السعادة والرفاء والبنين». وكانت العائلتان قد اتفقتا على إقامة العرس بفاس، حتى تتمكن أغلبية الأقارب والأحباب من حضور الحفل، وأيضا تيمُّنا بمولاي إدريس وبركاته.

يبدو عزيز مسرورا رغم توتُّر خفيف تشي به حركاته وضحكاته المقرْلَبَة في إيقاع متقطّع. أرهقته الاستعدادات، ويتبعه، الآن، أكثر التفكير فيما سيحمله هذا الزواج من تغيير إلى حياته. فمنذ تخرج في كلية الحقوق، مجازا من شعبة الاقتصاد، وهو يعمل بدأب وتفان في مكتب التسويق والتصدير، حريصا على إرضاء رؤسائه وعلى تسلق سلم الترقيات.

كان سي إبراهيم من قبل، يلح على ابنه أن يتزوج «ما حدّ العود طْرِي»، سارِدًا عليه مزايا الزواج المبكر، مبديا استعداده لتحمل تكاليفه المادية. لكن عزيز كان يتشبث بضرورة البدء بـ«بناء مستقبله»

، الاعتماد على نفسه. آثر أن يستعيض عن الحب ببعض المغامرات العابرة المدروسة العواقب سلفاً، فاستطاع أن يُبَرمج لَهوه في حدود اللائق المقبول، مستعيناً بأداء الصلوات في أوقاتها، وبمزاجه المعتدل ، طبعه الحذر المتوجّس خيفة من كل شيء. حتى عندما كان طالباً، في بداية السبعينيات، وحركة الاحتجاج الطلابية في أوجها، عرف كيف يتحصن داخل سوء ظنه وحذره، مردداً أمام زملائه المندفعين: «لا بد أن نعرف وجهات النظر جميعها قبل أن نختار...» وكان الطايع والهادي يمازحان أختهما لالة نجية قائلين لها: «هاذ الولد مناين جبتيه؟ ما اطلع يشبه لحبابْنُو حتى فحاجة...». ولم يكن عزيز نموذجاً فريداً على كل حال، فكثير من أصدقائه كانوا مثله «داخلينْ سوق راسْهم»، يواظبون على الدراسة ويستفيدون من وقتهم للنجاح في الامتحانات، قبل الالتحاق بِسِلك الوظائف والشركات لمتابعة نفس السباق المأمون العواقب. كل ذلك كان يتم في سياق بناء «أجهزة الدولة». وعلى الرغم من مواقف الاحتجاج والرفض، وارتفاع أصوات المعترضين، فإن منطق الواقعية والتسابق إلى الانتهاز فرض نفسه، وشيئاً فشيئاً خَفَت بريق الشعارات الوطنية، وخلفه شعار: «لا تشييد بدون دولة قوية». البناء يتشيّد، والذين يسهرون على سيره لا يتورعون عن استعمال العنف ولا شيء أفضل من أن تفوز - أيها الطامح - بموقع جيد وإن لم يكن القرار من نصيبك. العجلة تدور، عليك أن تحتل مكانك وتنتظر. انتظر لأن شعار المرحلة المقبلة، كما قال أحد الظرفاء، هو: «الدولة تمضي ويبقى الموظفون والتقنوقراطيون»!

وبالإمكان أن نرصد تفاصيل هذه العملية من خلال سلوك عزيز

وعلائقه، ولكن ذلك سيبدو مكرورا لكثرة ما نصادفه الآن من عينات مماثلة تجسد النموذج الناجح للذين خمنوا اتجاهات رياح الولاء قبل أن تهب العاصفة.

وما دمنا قد بدأنا بالزواج، فَلْنُشر إلى خلفيته لأنها قد تكشف ما لم نتحدث عنه. منذ ستة أشهر، تقريبا، تعرف الأستاذ عزيز على الآنسة سعيدة، عروسه وعروس الليلة، أثناء حفلة عشاء أقامها أحد زملائه الموسرين، وحضرتها فئة من «زبدة» المجتمع البيضاوي الجديد. أكثر من أربعين مدعوًا، وقد صُفَّت الطاولات في الحديقة، والأكل على طريقة «اخدم نفسك بنفسك»، والرجال والسيدات والشبان والآنسات يتحدثون الفرنسية المخلوطة بالدارجة، والجدية المطلوبة تتخللها ابتسامات وتعليقات مرحة. معظم الحاضرين تلك الليلة ممّن درسوا بباريس أو مونبوليبه، بالإضافة إلى أطر متخرجة في الجامعة والمعاهد المغربية. الحديث يدور في وقار مصطنع، ومناخ هذا العشاء يزكي الاعتقاد بأهمية «العلاقات» والحرص على ترك انطباع جيد لدى الآخر... والآنسة سعيدة عادت من مونبوليبه منذ ست سنوات، متخرجة في الصيدلة، فاستطاعت بمساعدة والدها مدير أحد الأبناك التجارية، أن تفتح صيدلية نافقة، غير أنها لم تعثر على ابن الحلال الملائم، وسنها يناهز الثلاثين، فضلا عن جمالها المتوسط.

عزيز وسعيدة، في حديثهما يحلقان ويحومان أول الأمر، لكن كل واحد منهما يريد الاقتراب من لبِّ الموضوع:

ـ هكذا هي الأمور عندنا.. الشبان يبحثون عن اللهو أكثر مما يفكرون في الاستقرار.

ـ لعلك تبالغين يا آنسة سعيدة، فليس الشبان كلهم كما
تقولين...

ـ ربما. لكنني أتحدث عن الذين قابلتهم، وعما أشاهده من
علاقات بين صديقاتي وعشاقهن... أنا أعرف أن البنات أيضا يتهافتن
على اللهو والمتعة، لكن الرجال أكثر...

الرجال أم النساء أكثر ميلاً لِلَّهو، وأنت من أي صنف، ولماذا
لم تتزوج حتى الآن، وكيف تتصور الحياة الزوجية، وما رأيك في
التقاليد، وهل تحب أن يكون لك أطفال... وعزيز يجيب باتزان، ثم
يسأل بدوره الآنسة سعيدة عن صورة الحياة التي تتطلع إليها، وعن
وعن... ونوع من التقارب ينتسج بينهما كلما امتدت السهرة وطال
الحديث، من حين لآخر، يفاجئهما الداعي إلى العشاء، وهو من
أقارب الآنسة سعيدة، بجملة لا تخلو من التباس وتشجيع:

ـ آش هاذ الشيء الأستاذ عزيز؟ بنت خالتي خليتها بلا عشا.

والبقية معروفة ما دمنا نشاهد الليلة حفلة العرس. وعلينا ألا نعير
اهتماما للتعليقات الصادرة عن بعض أصدقاء العروسين، سواء ما
تعلق بسنّ العروس أم بطمع العريس، فكل واحد منهما قد "جاب
الآخر في الشبكة"؛ وهما بعد كل شيء، زوج متناسق: صاحبة صيدلية
تقف إلى جانب إطار اقتصادي طموح، ويتجهان إلى هدف مشترك،
هو الاستقرار والإنجاب. فَلْنَتْرُكْهُما يواجهان مستقبلهما الذي لا يعلم
ملامحه إلا الخالق الباري جلّ وعلا، ولْنَعُد، أيها القارئ، إلى حفلة
العرس وما يجري فيها.

بعد التقبيل والتبويس، يرافق عزيز المدعوين إلى داخل الدار حيث يقف شبان العائلة لالتقاط إشارات العريس التي تحدد الغرفة التي سيقاد إليها المدعوّ: غرفة لكبار الموظفين والشخصيات البارزة، وأخرى للكهول أصدقاء العائليتين، وثالثة للأزواج المرفوقين بزوجاتهم، ورابعة للشباب المراهقين. ويتم التوزيع خلسة من غير أن يشعر المدعو بعملية التصنيف. في باحة الفيللا تتولى جماعة من «الحجامة» تحضير الأتاي وتوزيع الحلويات، لكن ثلاثة من أصدقاء عزيز يتولّون تمرير الويسكي عبر زجاجات الكوكاكولا بدون إثارة انتباه من قد يعترضون. من تحتها لتحتها تسير الأمور، وكل واحد إن شاء الله بالغ نشوته، والجوق الأندلسي يتأجج الآن أكثر ومن حوله المدعوون يرددون معه بصوت مسموع ويهتفون إعجابا وانتشاء. الكل مع الجوق والكل يتكلم في نفس الوقت مع من هو إلى جانبه أو جالس أمامه في الغرفة، واللغط لا يفتر، وتبادل التحايا والقبل، والعريس يبدو ثم يختفي، والضحكات والزغاريد...

في الغرفة التي استقبلت الشخصيات البارزة والأطر الصاعدة، يدور الحديث حول بعض الذكريات وحول الطقس وأسعار البترول.. يتكلم الكبار وينصت الشباب في انتباه واحترام، والابتسامة لا تفارق شفاههم. تجرّأ موظف شاب وسأل نائب مدير مكتب الحبوب:

ـ أظن أننا، هذه السنة، سنستورد قمحًا أقل مما كنا نستورد؟

ـ الأمر يتوقف على الجهود التي سيبذلها الفلاحون للاستفادة من الأمطار.. ولكن في جميع الأحوال التوجيهات صدرت للسهر

على مضاعفة إنتاجنا من القمح حتى نستغني عن الاستيراد ونوفر العملة الأجنبية.

- شيء عظيم، لأن اقتصادنا محتاج إلى أن يتحرر من هذه الأعباء.

وردّ نائب المدير في نغمة تنهي الحديث حول هذا الموضوع:

- الخير أمام، وعلينا أن نتعاون جميعًا لخدمة البلاد.

وتساءل البعض عن مدى صحة شائعات تغيير الحكومة، فرد ملحق بديوان أحد الوزراء أن ما يقال هو مجرد اختلاق صادر عمن لا شغل لهم، لأن المواطنين راضون عن نتائج سياسة الحكومة الرشيدة المنبثقة عن انتخابات نزيهة على الرغم مما تدعيه صحف المعارضة من تزوير. إن ما نحتاجه، يقول، ليس هو كثرة التعديلات الوزارية، بل أن نتعلم السكوت حتى لا نشوش على الوزراء المنهكمين في العمل ليل نهار. بعض الابتسامات المتشككة تطوف على الوجوه، وبعض الموظفين يهزون رءوسهم تأييدا لما قيل، والحديث أشبه ما يكون بنغمة زائفة لأن لا أحد يتكلم حقيقة بما يعتقد.

في الغرفة الثانية، يأخذ الحديث مجرى تلقائيا بين الكهول وشيوخ العائلتين. تستغرق الأحوال الصحية قسطا كبيرا من كلامهم، وتستأثر هموم الدنيا بما تبقى. الغلاء نار حامية، والدرهم طارت بركته، ولا أحد يعرف إلى أين سنصل ويردد أحد الشيوخ وهو يُمسِّد لحيته البيضاء المسترسلة:

«الله يخيّر ويختار. هنا جاء الحديث النبوي: وقيل في كل ساعة

ترذل». ثم يستجيبون لنغمات الأندلسي فيرددون الأشعار وهم يضبطون الإيقاع بتحريك الأيدي فوق ركبهم، فلا يلبث أن يَلُفَّهم الفرح ويأخذهم الطرب بعيدًا عن المنغصات التي تطارحوها قبل قليل...

إلا أن غرفة الرجال والنساء المختلطين تبدو أكثر تألقًا ونشاطا وامتلاء. كأنها غرفة حشدت فيها المرايا طولا وعرضا، والحركات الأنثوية عبر الملابس السابغة والحلي والمجوهرات تخط لغة تقرؤها الأبصار منتشية، فلا تفتأ العيون والبسمات والإشارات أن تتعانق، وشيئا فشيئا تتسلّل الألفة، وتتحرك الألسنة مفضية بما تختزنه الصدور. سألت امرأة تقترب من الخمسين امرأة شابة تجلس بالقرب من زوجها المحامي:

ـ هاذا التّكشيطة دايزها الكلام، وَاثاثك تبارك الله. شنو سْميْت الثوب اللي فصلت منّو قفطانك؟

ـ هاذا تيسميوه «أنت عمري» جابولي راجلي من دمشق.

ـ بالصحة والعافية.. هذا ثوب الموضة الجديدة عمري ما شفت بحالو. كل شهر تيخلقو لنا موضة ما بقات استطاعة باش نشريو الثوابات اللّي تّيْبَل. اليوم القفطان تَيخَصّو بالقلة القليلة أربعين ألف ريال...

ـ أنا هذا طاح عليا بمليون فرنك.. ثوبه حرير والخياطة غالية...

ـ هالك أمالي مليون فرنك؟ تبارك الله رجلك شنو تيخدم؟

ـ محامي مشهور في الدار البيضاء.

- ربي يزيدو من خيرو... الأيام كيف تتغير.. أنا منابن تزوجت، هذا لي رجلي قفطان ديال «الدنيا جات» بعشرة آلاف ريال فذاك الوقت، بْقيت نلبس فيه، ونزد كثر من عشرين عام...

زوجة المحامي المشهور تتكلم باعتداد واعتزاز وبصوت مرتفع حتى تسمع النساء الأخريات المتطلعات إلى قفطان «أنت عمري» الجديد على ساحة أسماء القفاطين المعروفة «يوم سعيد»، «ممنوع الحب»، «عمر الخيام»، «لا تكذبي»، «أمل حياتي» (لكن ثوب «أمل حياتي» لم ينجح كما توقع له مخترعو الأسماء في القيسارية، لأن عامة الشعب أصبحت تكني عن داء الجرب بـ«أمل حياتي»). كانت زوجة المحامي تتكلم وزوجها مستغرق في حديث الصفقات مع زبائن محتملين.. وما لم تقله للجالسة بجوارها هو لماذا يغدق عليها زوجها الثياب الفاخرة كلما سافر إلى الشرق أو أوربا لمتابعة قضية من قضايا زبائنه المستفيدين من قانون الاستثمارات المغربي. توقفت عن الدراسة بعد أن كررت السنة الأولى بكلية الحقوق عدة مرات (زميلاتها كن يقلن عنها بأنها تريد التخصص في برنامج السنة الأولى!)، وأتاح لها مستوى عائلتها أن تتألق بجمالها وغناها داخل الوسط الفاسي بالدار البيضاء، معلنة عن نفسها في الأفراح والمناسبات طرفا ملائما للزواج «المرتّب». الآن، تولي كل اهتمامها لإعداد العشاءات والسهرات الناجحة في الفيللا التي تحمل اسمها بحي «أنفا» الشهير، وتتفنن في ابتكار الأطباق الشهية، وتتبع ما يجدّ في هذا المجال. نصحتها صديقة بأن تلعب التنس وتمارس التزحلق على الجليد بميشليفن في الشتاء حفاظا على قوامها، فلم تجد اعتراضا من المحامي المشهور. وفي المقابل تحرص على

تلبية رغائبه واستيهاماته: في الليل، وبعد أن ينام الأطفال، يحب أن ترتدي له قفطانا ومنصورية وتتزين بالحلي والمجوهرات، وآلة التسجيل تصدح بإحدى النوبات الأندلسية، والشامبانيا تعرق وسط مكعبات الثلج، وهو بقميصه الأبيض الفضفاض يقترب منها في حركات متذللة، متغزلة، تكشف تلذُّذه وشبقه بصوت مسموع وهذيان محموم يضفي على الزوجة ـ الدمية صفات من نار ونور. يقترب منها ليُقَشِّرها كما يحلو له أن يردد. يبدأ بأن ينزع عنها المنصورية والقفطان فالقميص الحريري (في مثل هذه المناسبة، غالبًا لا ترتدي حاملا للنهود ولا سروالا...) ثم يمرغ وجهه في كومة الثياب الجميلة ويشم رائحة جسدها العاري المنعشة، ويصب من القنينة كأسا لها وآخر له وهو يشدو مع الجوق، ثم يخلع قميصه ويشرع في التقبيل واللّحس إلى أن يهده التعب فيغفو على صدرها... عادة استغربت لها أول الأمر، ثم ألِفتها واستكانت إليها وأصبحت طقسهما السري الذي يجعلها متواطئة معه. خلال تلك اللحظات، تحس أنها تسترجعه من دوّامة مشاغله وأسفاره، ومن دوّامة السهرات والحفلات وولائم المجاملة... ولم يكن محامينا الشهير يمل من تكرار هذا الطقس كلما أتيحت الفرصة، لأنه مقترن في ذهنه باستحضار صورة ترسبت لديه عن المتعة و«الزّهْو» في الأندلس الفيحاء، وطالما تحدث إلى أصدقائه عنها. فكأن هذا النزوح عبر الاستيهام يخفف عنه ضغط إيقاع حياته السريع وهو يركض وراء القضايا والصفقات. ومن يدري؟ فقد يكون نفس الاستيهام هو ما يحمل بعض الرجال والنساء، في هذه الفرقة، على ارتداء ملابس الأجداد السابغة المترفة، تطلعا لتحقيق توازن متوهّم بين ماض موروث وحاضر يشع بالبريق.

قبالة المحامي وزوجته، جلس شاب نحيل بارز الوجنتين، شعره مرسل، يرتدي بدلة أوربية بنية اللون، وإلى جانبه زوجته أو صديقته السمراء، بفستان بنفسجي منقط، مُقوَّر عند استدارة النهدين، فلا تلبث عين الناظر أن تنجذب إلى نقطة التقاء المكشوف والمكسوّ. كانا يضعان اليد في اليد وينقلان بصرهما بين بقية الأزواج مستمعين إلى خليط الأصوات والأقوال. تتبعا الحوار حول قفطان «أنت عمري» في تلذُّذ وتسَلٍّ. بعد قليل، همس الشاب في أذن الجالسة لصْقَه:

ـ امرأة المحامي غلاَّت علينا السوق!

ـ أنت عمري من غير ما تشري لي القفطان.

رغم نبْرة الصدق في صوتها، جاء حوارهما شبيها بلقطة سينمائية في أحد الأفلام المصرية.

وتبدو الغرفة الرابعة، حيث تجمع أولاد العائلة وبناتها وأصدقاؤهم، عالما مستقلا عن الغرف الأخرى. كل مجموعة في ركن، وكل ركن له حديث، والسجال حامي الوطيس. دخان السجائر يكاد يحجب الملامح، وحديث الجد مختلط بالمناوشات والمغازلات يتبادلها الصبيان والصبايا.

أكبر حلقة التأمت حول فتاح بن الطايع، وبجانبه إدريس أخو العريس الأصغر، وعبد السلام ابن عمه، ونادية أخت العريس، طالبة في باريس تتخصص في الترجمة الفورية... والآخرون طلاب في الآداب والحقوق والهندسة والطب. كان منطلق الحديث هو

الموضة الجامعية الجديدة: بضعة آلاف من المتخرجين العاطلين كل سنة، تهديهم الكليات إلى الآباء والأمهات جزاء ما تحملوه من تضحيات! ومن ثم يبدأ التساؤل عن المستقبل والشكوى من هذا المجتمع الذي يوصد الأبواب في وجوههم. لكن فتاح يحاول أن ينقل الحديث إلى مجال أوسع ليذكر الملتفين حوله بأن المسألة أعمق من ذلك وأن على الطلاب والشباب أن يفكروا أساسًا في مصير الجماهير المبعدة عن القرار بواسطة لعبة مزيفة توهم بوجود مؤسسات تشريعية هي في الحقيقة مفرغة من جوهر كل سيرورة ديمقراطية: تغيير القوانين والهياكل لصالح الأغلبية. كيف تكون هناك ديمقراطية إذا ظلت دار لقمان على حالها؟ ورد عليه عبد السلام بأن هذا كلام متهور، متطرف، لا يأخذ في الاعتبار الأزمة الاقتصادية العالمية وفشل تجارب العالم الثالث في الديمقراطية، فضلا عن أن تقاليدنا وخصوصيتنا تستلزم التدرج والتبصر... وعلى كل، فإن حالتنا أفضل ولله الحمد من أحوال أشقائنا في البلدان العربية الأخرى.. وتتدخل نادية لتقول بأن فرنسا نفسها تعاني من بطالة المتخرجين وأن على شبابنا أن يخترعوا «أشغالًا صغيرة» يثبتون بها ذكاءهم ومرونتهم. فسأل إدريس عن العمل الذي ستخترعه بعد التخرج. أجابت بأن أباها حصل لها على تعاقد مع مؤسسة تجارية متعددة الجنسية، ومع ذلك فهي تستطيع أن تقترح مشروعا لتكوين مئات الطلاب والطالبات في مجال الطبخ المغربي وإرسالهم إلى أوربا وأمريكا ليعملوا مع العائلات الكبيرة على غرار ما يفعل رجال ونساء الفلبين وماليزيا... قاطعها إدريس: اسمعي أنا لديّ مشروع أفضل من ذلك. عندما سأحوز على إجازة الاقتصاد في السنة القادمة، أنوي أن

أشتري مكتبا لتصدير الهندية، والزريعة المقلية، والخروب، وبُوخنّو.. فهل تقبلين أن تعملي معنا مترجمة للمراسلات والفاتورات ومزايا المواد المصدرة؟

صوت آخر يرتفع ليذكر بأن من واجب طلبة الجامعة أن يبحثوا عن أصل الداء ليواجهوه بجذرية ودراية... وفي رأيه أن ما جعل الأوضاع تئول إلى ما هي عليه، هو التفريط في مقوماتنا الروحية وتعاليمنا المقدسة، حتى لم نعد نعرف ما إذا كنا نعيش بمجتمع إسلامي أو بإحدى ملحقات الميتربول.. يكفي أن تشاهدوا ما يقدمه التلفزيون في طبعاته وأشكاله المختلفة، ويكفي أن تلقوا نظرة على المقاهي والمراقص والسهرات الخصوصية حيث يختلط الحابل بالنابل وتتحول الأمة إلى شعوب وقبائل. والذين لا يزالون متشبثين بالتعاليم الصحيحة و السنة المحمدية يجدون أنفسهم غرباء وسط الحشود المتهافتة على الربح والزنا، لا تتورع عن الغش والكذب والربا. أنا أسألكم ببساطة هل هذه هي المحجة البيضاء؟ هل تعثرون في حياتكم العملية على شيء من العدالة وعفة النفس والتكافل والتسامح وجميع الفضائل التي جسدها محمد بن عبد الله وأوصى بها سلالات المؤمنين؟ ألستم أشبه بالكلاب الضالة تتجه صوب اليمين وصوب الشمال متبعة صدى أصوات صادرة عن طبول جوفاء لا تجدون عندها نبتا ولا ماء ولا شجرًا يقيكم حر الهجير؟

تحفّز فتاح للرد وعيناه تشعان بالتماعة المقبل على المبارزة، لأن ما سمعه نقل الحديث إلى المستوى الذي كان يريده. وبادر إلى الإشادة بما قاله المتحدث وأنه يشاطره، إجمالا، انتقاداته

للأحوال التي وصل إليها المجتمع وتشخيصه لأوضاع الشباب، ولكن الخلاف يكمن في طريقة التحليل وفي الإيحاءات الضمنية لمواجهة المستقبل. فهو لا يتفق معه على أن التدهور ناتج عن إهمال الدين وتعاليمه بل مصدره عدم وعي التحولات الحضارية والثقافية في أبعادها العامة وتوجيه تلك التحولات وفق منطق التاريخ بما في ذلك الدين وعلائق الحاكمين بالمحكومين. فنحن لا نستطيع أن نحتمي من التحولات التي هي جوهر الحياة، بالعودة إلى نموذج تحقق في عصرنا الذهبي. ولذلك، أضاف فتاح، أعتقد أن نقطة المنطلق هي جعل الموروث الحضاري والثقافي والديني في علاقة حوار وتفاعل مع أسئلة الحاضر ومع المعضلات التي تولدها التحولات وتناقضاتها. ولا يمكن أن ننطلق من إلغاء ما نعيشه عن طريق افتراض حلول مسبقة قائمة في حقبة سالفة لها خصوصيتها ومستواها التاريخي المعين. وبجملة مختصرة، أزمتنا مركبة معقدة، وهو أمر طبيعي، لكن مجتمعنا لا يمكن أن يستعيد دورته الحيوية باللجوء إلى اختزال التعقيدات والعلائق والتبشير بحلول أثبتت نجاعتها، نسبيا، في سياق قديم...

يعلو اللغط من جديد، وتتعانق أصوات المؤيدين والمخالفين، وتبدو حلقة هؤلاء الشباب كأنها مجلس أعلى مكلف بالوصول إلى مخرج ينهي مخاوف الأمة ويبدد الغمة. وكل واحد يستنجد بما قرأ وسمع، وبما تلقنه واستجاب له في حزبه أو محيطه السياسي. ومن حين لآخر يأتي «مرسل» من العريس ليطلب منهم أن يخفضوا أصواتهم حتى لا يشوشوا على الجوق وعلى المستمتعين بالموسيقى الأندلسية، لكنهم سرعان ما يعودون إلى مناقشاتهم ومبارزاتهم.

أطل عليهم وجه الهادي بابتسامته الساخرة وذقنه المرسل، فهرعوا إليه يجرونه إلى حلقتهم ليشارك معهم في مجادلاتهم ويكون حكما بينهم. وقال له فتاح:

ـ هذه فرصة نادرة تتيح لك يا عمي أن تتعرف على رأي الشباب، لأن ما تنشره في صحيفتك اليسارية هو كلام الكبار عن شبابهم هم، لا عن الذين هم، رسميًا، شباب الأمة ومناط آمالها...

وأجاب الهادي ضاحكا:

ـ بداية هجوم موفقة، ولكن دعني أقل لك ولأصحابك بأن صحيفتنا تنشر كل فضائلكم: من الإضرابات والاعتقالات والمحاكمات إلى تعاطي الحشيش والمتاجرة في المخدرات وتكوين عصابات السطو على المنازل... لا فرق بين غنيكم وفقيركم: أولاد الأعيان والوزراء يموتون نتيجة تناولهم «أوفر دوز» وأولاد «الأوباش» يهلكون كالحشرات وهم يكرعون عصير الجوارب.. أليس كذلك؟

وفي غمرة الضحك ارتفع الاحتجاج على ماقاله الهادي، وتساءل البعض عما إذا كان الشباب جميعهم بهذه الصورة، وهل تعود المسئولية إليهم أم إلى الساهرين على المجتمع... إلخ. وجاء صوت يقول في وثوق ونبرة حاسمة:

ـ أعتقد أن لبّ المسألة هو في انعدام الجسور بيننا وبينكم. أنتم جيل ممتلئ حتى الاكتظاظ برسالتكم التاريخية، على الرغم من أن التاريخ، كما يقول أحدكم، قد خانكم، ومع ذلك تواصلون السير على أمل أن تقتربوا من مثلكم الأعلى.. ونحن فتحنا أعيننا على

الخواء، وكثرة الطنين بعد حوادث التعذيب وهبات اليائسين. كيف يمتد الحوار بيننا وبينكم، مهما تكن القرابة، وأنتم مستقرون داخل «وضعية» مادية ومعنوية تجعلكم بشرا، بينما نحن مطلوب منا أن نعيش بلا أفق، بلا أمل، بلا عمل؟

وقال فتاح: صحيح، اللغة المشتركة بيننا وبين الذين سبقونا على طريق حلم التغيير، مفقودة مما يحيلنا إلى حاضر بدون ماض، ويحيلهم إلى ماض بدون مستقبل. ومع ذلك، فإن السؤال المشترك الذي يحاصرنا جميعا الآن، هو كيف نخلق الفعل ونعيد ابتكار لغة التواصل بين الفئات ذات المصلحة في التغيير، داخل وضع سديمي، زئبقي، يشل العزائم والإرادات فيما هو يوحي بالحركة ورغد العيش؟

وهمّ الهادي بالكلام، لكن فتاة قاطعته وهي تقول ضاحكة:

ـ لقد كنتم تتغنون في أناشيدكم قائلين: «نموت جميعا ويحيا الوطن»، لكننا نجد أن كل ما حولنا يدفعنا إلى الكفر بهذا الوطن. ثم من يضمن لنا أن موتنا من أجل الوطن، سيغير الأشياء إلى أفضل؟

ورفع الهادي يديه في حركة تترجم الحيرة ثم قال مترددا:

ـ هذه الأسئلة والاتهامات ليست غريبة عني. أنا أيضا أطرحها على نفسي وأتخيل جزءا من ألمكم داخل وضعية لستم مسئولين عنها، ومع ذلك لا مناص لكم من مواجهتها. قد يكون الفارق بيننا هو السن، فبعد الخمسين سنة، تبدأ «الحكمة» تعوض الحماس في سيرورة شبه فيزيقية يسندها منطق عقلي حذر، فنبدو كأننا تماثيل شمعية. لعل الأحلام لا تزال قائمة وتجربة الشباب لم تتبخر، لكن

النظرة تتحول تدريجيا إلى التأمل والاستبطان. ما يبقى متوثبا، متحديا، هي القيم التي أكدت لنا تجربتنا أنها ضرورة لوجودنا ولانتمائنا الإنساني، ودفاعنا عنها هو ما يمنح معنى لحياتنا وسط العبثية والوحشية وخرائب الطغيان. وأظن أن نقطة الالتقاء بيننا هي هذه القيم التي يكتشفها كل واحد عبر مساره الخاص فيختار أن ينحاز إليها، أو يفضل التنكر لها والانضمام لممثلي قيم الزيف والتحايل. والسؤال المرعب، عندي، هو: كيف سيكون موقفكم إذا استمر تدهور القيم وتزييفها بالوتيرة نفسها التي نعاينها اليوم؟ أحس، شخصيا، أن عدد الذين يستبطنون تلك القيم الإيجابية ويربطون بها حياتهم، يتناقص، ليس بسبب طبيعة فطرية في الناس ولكن نتيجة للوسائل الجهنمية التي أصبحت متوفرة لدى أصحاب السلطة. وشعار هؤلاء كما تعرفون: من يركع يعش، ومن يحترم نفسه يحاصر. أنا أحدثكم هكذا لأنني أعبر عن إحساس يلاحقني منذ سنتين، وقد يكون إحساسا مسرفا في القتامة ومتعارضا مع ما تقوله تحليلات الأحزاب والأدبيات السياسية (بما في ذلك ما تنشره الصحيفة التي أرأس تحريرها).. ذلك أنني لم أعد أجد فيما يكتب صورة لتفاصيل المعيش، والمسكوت عنه، والساري مسرى القانون.. يخيل إليّ أن هذه فترة لا يحدث فيها شيء، أو بالأحرى تحدث أشياء كثيرة بدون أن تخلف الانطباع بأن ما حدث يستحق أن يسمى فعلا. كأن التبدلات تجري خلسة. نحن هنا ننظر إلى الشاشة، نرى أحداثا مكرورة، نسمع وعظا وإرشادا وسردًا لا ينتهي للمنجزات وتأكيدا على أن مجتمعنا ثابت متماسك كالبنيان المرصوص.. ثم ندير أعيننا إلى الشوارع والبيوت والمدارس والسجون والمستشفيات، فنجد أن الأحوال

تبدلت في اتجاه غير ما زعمته الشاشات والمرايا وصناديق الصدى والانتخابات وأبواق الكلام. كيف حدث هذا ومتى؟ نحن هنا دائما نتحرك، نتكلم، نحتج ونعارض.. لكن هذه التبدلات كدخان القاطرة يجتاح خضرة الحقول فلا نرى إلا هباءً. أنا أعتبر ما عشناه بمثابة كابوس هاملت: ثرثرة بالقنطار، ثرثرة ترد على ثرثرة، والفعل غائب وراء كلام يؤجله إلى ما لانهاية. الثرثرة جميلة، كما تعلمون، لها خدرها الساحر ودفؤها الأخطبوطي.. وأظن أننا نعيش الآن عهد الثرثرة السابقة للفعل، وزمنها شبيه بزمن الاحتضار ومع ذلك نعيش على رجاء أن نولد من خلال الفعل.

ـ برافو! صاح فتاح. كل هذه الفذلكة لتعلن لنا أننا سنولد من جديد؟ نحن، إذن، الآن غير موجودين ومشكلاتنا أوهام وتخريف؟ أظن، يا عمي أن عامل السن الذي أشرت له هو الذي جنح بك إلى هذا التعالي على الظرفيات.. نحن نطلب منك ضوءا قليلا ينير خطواتنا هنا والآن، وأنت تهدينا نورا كاملا بعد الميلاد والبعث...

وتعالت الأصوات مرة أخرى، وتشعب الحديث إلى المواقف والتفاصيل ولكن الهادي وقف بعد قليل معتذرا بأن عليه أن يعود إلى مجالسة المدعوين، ثم أضاف: «لا أحد يستطيع أن ينير طريق الآخر، لكن ما آمله هو ألا تظلوا رصاصة سجينة داخل ماسورة البندقية. ليس هناك أفظع من الرصاص الصدئ. لكم أن تحللوا وترفضوا إلى أبعد حد، لكن احرصوا على أن تبلوروا لغة مقنعة تمد الجسور بينكم وبين من سيتيحون لرصاصاتكم أن تصيب هدفها...».

وعند منتصف الليل وصلت العروس مرتدية فستان زفاف أبيض

.. انسدلت شبكةٌ على وجهها ومن حولها بعض أقاربها. استقبلها
ريز على الباب. ورفع الشبكة ثم قبلها واتجها إلى وسط الدار
القرب من الجوق ليستقرّا على كرسيين وضعا فوق مصطبة خشبية.
من الأصوات تهتف: «الله يبارك في عمر العروسة والعروس،
ابيع» ثم أخذ الأهل والأصدقاء يتقدمون للسلام على العروسين
، أخذ صور معهما. والنكافة تصر على إتمام الطقوس بالرغم من
أن العروس لا ترتدي الزي التقليدي والمساحيق الفاقعة والنقط
البيضاء.. العروس تتأفف بعض الشيء ولكن النكافة ماضية في
مدادها: «ها الزين الفاسي، ها هو. ها الحوت البوري، ها هو. ها
العسل الحر، ها هو. ها قضيب الخيزران، ها هو...».

وجيء بمائدتين مدورتين لحمل العروسين. عليهما والطواف
داي البيت حسب ما تقضي به التقاليد، فهجم الشبان عليهما وأجلسا
كل واحد على مائدته ثم رفعتهما السواعد وسط الأغاني والمرددات
الجماعية، وعين كاميرا الفيديو تتابعهما لتخليد المناسبة السعيدة.
، كانت فرصة للرقص أظهرت فيها كل فتاة عزباء ما تنطوي عليه من
الدونة ورشاقة وحساسية هي من نصيب ابن الحلال الذي قد تقع
عيناه الآن عليها، وينفذ سهمها إلى حجره!

وتمتد الحفلة إلى الساعات الأولى من النهار، والجوق الأندلسي
يشنف الأسماع ويعيد، والعروسان يتبادلان الهمسات ويبتسمان
للأهل والأصدقاء، وكئوس الشاي والحلويات تتوالى إلى أن حان
موعد الخروج للطواف في السيارات عبر المدينة، تتقدم الموكب
سيارة العروسين وتعلن عنهما كلاكسونات موقّعة تصر على أن توقظ
النيام ليشاطروا أهل العروسين فرحتهم.

لم يكن الأمر هينا في هذا الفصل، ساءت العلاقة بيني وبين المؤلف إلى حد القطيعة والتخلي عن التعاون والتنسيق ولولا وسطاء الخير، لكان الذي يتحدث إليكم مباشرة، الآن، هو المؤلف، مواجها معضلات السرد والترتيب وتوزيع الكلام. والحقيقة أنني لم أقبل استئناف مهمتي إلا بعد موافقته على أن أحكي للقارئ بعضا من خلافاتنا. ولأبدأ من عنوان هذا الفصل. فهو يرى أن أمارات وعلامات وظاهرات كثيرة تفصل زمن سيد الطيب وسي إبراهيم، ولالة نجية والطايع والهادي، عن زمننا هذا، ولإبراز ذلك يلزم أن نرسم للقارئ ملامح عامة وأخرى خاصة تقنعه بأننا نعيش في زمن آخر قياسا إلى الفترة التي جرت فيها أحداث الفصول السابقة. وفي نظري، وهذا مصدر الخلاف، أن الزمان يتغير نتيجة لوعي الناس بتجربتهم مع الزمان. وقد تكون تجربة متشابهة في العمق ولكن مسافة اكتشاف العلائق مع الزمان، من الغرارة إلى النضج، هي التي تسبغ الجدة على الديمومة وتقوي الوهم بالانتصار على الموت البطيء الكامن في خطى الزمن الوئيدة. نستطيع بوعينا، إذن، أن نراقب منشار الزمن وهو يقرض ساعاتنا وأيامنا، ولكننا في غير حاجة إلى انتظار «نهاية» زمننا لنقول ما الذي تغير فيه. دائما هناك حاضر يأخذ الأولوية على الماضي ويجعلنا مع الحاضر الناقص ضد الماضي المكتمل لذلك يصعب أن نحدد زمن شخوص الفصول السابقة بفترة معينة ومعظمهم لا يزال، في النص، حيا يتكلم. وهل يكفي سخطهم على الحاضر لنعلن انفصالهم عن هذا الزمان وناسه، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار معايشتهم لأبنائهم وبناتهم وأقاربهم،

لا مجال للتردد، في نظري، إذا أردنا أن نصور الزمن الآخر من أن نفترض الامتداد والتداخل، ومن أن نجعل مظاهر الانقطاع أقل مما قد توحي به الأحداث «الخطيرة» والإحصائيات، وتبدل القيم.

قلت للمؤلف: لا داعي لأن نجزئ الزمن إلى زمنين؛ وأبسط من ذلك أن نعتبره سرمدا متجدد الآنية، له قوانينه وثوابته، وأن نتابع التغير من خلال الشخوص ومواقفها وسلوكياتها فهي التي تعاني من وطأة الزمان، وهي التي تقاوم وتتحدى وتتمرد وترضخ، وتتحايل بالفلسفات والكلام لإطالة بقائها داخل موكب الزمان. يكفي أن نستمع إلى ما يقولونه الآن وما يفعلونه ونقارنه بما كانوا يقولونه ويفعلونه لندرك ما طرأ عليهم من تغيُّر. أما أبناؤهم ومن يعايشونهم فهم بعد في تجاربهم الأولى مع الزمان.

قال المؤلف: مفهوم، وقريب من البديهي ما تقول. غير أن هذا لا يمنع كون الزمان الذي نكتب فيه نصنا الروائي له سماته المميزة مثلما لكل مخلوق: أنف معقوف أو عجيزة مائلة، أو خال فوق العين... سمة نتذكره بها ويقترن في ذاكرتنا من خلالها. مثلا، كيف أتحدث عن شخوص مستوحاة من هذا الزمان ولا أتحدث عن سماته البارزة التي غالبا ما توجِّه سلوكياتهم ومواقفهم؟

قاطعته: كلام قديم وتعميم لم يعد يقنع أحدا. انتبه فقد تنزلق إلى التناقض فتعارض ما كتبته في الفصول السابقة. التاريخ له أكثر من مستوى ومجرى، وقلما يكون في حقيقته مطابقا لما يجري في السطح وتشخصه الأحداث الطنانة.. وأنت بعد عائش في مجتمع لم يكتب تاريخه البعيد، فضلا عن أن تاريخه الحديث موصوف

بالسرية ووثائقه مكنونة في خزائن مختومة بالشمع حتى يظل سكان المملكة مشغولين بمستقبلهم! والمؤرخون يغيرون مدادهم من فترة لأخرى كما تعلم.

استأنف المؤلف: أنا معك فيما تقول، ولكن ما أقصده ليس تاريخا بل عناصر تخصص فضاء الزمان الذي نعيش فيه وإن كنا لا ندعي فهمه. ربما هي عادة بيغاوية، ولكنها قد تسعفنا على اكتشاف ماوراء السمات البارزة.

قلت نافذ الصبر: وما هي هذه الملامح التي تريد أن تقدمها سمات مميزة لهذا الزمن الآخر؟

قال: ما يعرفه كل واحد، وما هو شائع وذائع على الألسنة وأحيانا في الجرائد والإذاعة والتلفزة. مثلا، جماعة المليارديية التي أهلّت علينا منذ بضع سنوات وبدأنا نتعرف عليها من أخبار تتسرب عن الحفلات التي يقيمها كل من اتسعت ثروته وأدرك عتبة المليار سنتيم. وقد يقيمها الفرد الواحد عشرات المرات.. أليس في ذلك علامة على الدينامية وحيوية المبادرة التي أفسح لها المجال عهد الاستقلال؟

قاطعته معترضا: الحديث عن هذه الظاهرة سيُعتبر من باب التعريض بسمعة بعض كبار موظفي الدولة، وقد يتسبب لك في متاعب لست مستعدا لمواجهتها. أنسيت صفقة شركة «بناما» وتورط بعض الوزراء وكتاب الدولة في الرشوة والاختلاس، والمحاكمة التي ظنها الجميع بداية للتطهير، ثم آلت الأمور إلى ما تعرف، ولم تنقص ثروة المليارديية شبرا ولا إصبعا عما كانت عليه؟ لماذا تريد أن تفتح

بابا لن يأتيك منه إلا الوجع وصداع الرأس، مع أنك تريد الكتابة عن لعبة النسيان وطرائق تحاشي ما يؤلم النفس.

قال المؤلف وكأنه اقتنع بما قلت: طيب. لنترك هذا جانباً، لكن ألا تظن أن استحضار ما يقال عن نشاط فتياتنا في الخليج وبعض دول أوروبا، مؤشر يستحق الإثبات؟ أظنك لا تجهل دور فتياتنا في مجال التسرية عن الذين يعانون من الوحدة ويطلبون اللهو والمتعة العابرة. وفي ذلك تعزيز لرصيدنا من العملة الأجنبية، فضلاً عن أنه نوع من الحلّ لمشكلة البطالة.

قلت محتداً: أوف! أنت مصرّ على الوقوع فيما تحاول الهروب منه. هل نسيت أن هذه الظاهرة ارتبطت بسلوك بعض فتيات جامعتنا الموقرة اللائي بدأنها بالداخل قبل أن يتسربن إلى الخارج عبر شبكات تقول الشائعات إنها أخذت تشترط الحصول على الإجازة، إلى جانب إتقان الرقص وأساليب الفرفشة؟ ومعنى ذلك أن كلامك لن يفهم على أنه سمة مميزة لهذا الزمان، بل سيعتبر مسا بحرمة الجامعة التي يسهر على حمايتها جنود "الأواكس" المكلفين بردّ الصاع صاعين.. فهل أنت مستعد لمثل هذه المعركة؟

قال مصطنعا الهدوء: لك موهبة قراءة ما بين السطور أكثر من قدرتك على مساعدتي في سرد روايتي. لكن ما قولك في تشخيص بعض المحاكمات، لا أقصد المحاكمات السياسية فهي سمة كل الأزمان، ولكن أقصد محاكمة الشباب الذين ضبطوا في عمليات المتاجرة بالحشيش والهيروين ول. س. د، وبقية المشتقات؟ أليس في ذلك إنصاف لحكومتنا الرشيدة الساهرة على حماية المجتمع

وزقاية الأخلاق من الانحراف؟ وفي الوقت نفسه علامة على ما تصدره إلينا أوربا وأمريكا من أوبئة فتاكة؟

قلت مصطنعا نفس الهدوء: لا أحد يرتاح لذكر المحاكمات ولو كانت لصالحه. دائما هناك عناصر غائبة في الملفات أو ملفقة... ودائمًا هناك احتمال ظهور شاهد جديد، أو تصريح لقاض وهو يحتضر.. لذلك يسعى الجميع إلى طمر المحاكمات بعد أن تكون قد أدت وظيفتها الظرفية. ثم إن مثل هذه الوقائع والأحداث عادية ومألوفة في كل مجتمع وعلى امتداد العصور، ولا يمكن أن تعتبر سمة مميزة. وكل ما ذكرته لحد الآن يبرز السلبيات، في حين أن التمييز الذي يستحق هذا الاسم، يجب أن يتوقف عند ما هو إيجابي. انس السلبي وتذكر الإيجابي، لأنك في حالة العكس تبطل لعبة النسيان.

صاح المؤلف: ما أكثر الإيجابيات! الجميع يعرفها، وهي بالفعل سمة مميزة لزمننا. أنا أذكر لك منها ثلاثة: فوز عويطة ونوال المتوكل في بطولة العدو البري العالمية، واقترابنا من الكأس في مباريات المونديال بمكسيكو، ثم الشروع في تشييد نفق يربط ضفاف إسبانيا بأرض المغرب.

قلت مستفسرا: ظاهرة عويطة وتفوق فريقنا الكروي في مكسيكو، فهمناها، تؤكد بالعربي الفصيح: كل ورجلاه، وإذا ضاقت سبل العيش أمامكم، فاستعينوا على قضاء حوائجكم بالرجلين. ولكنني لم أفهم بعد إيجابية النفق الواصل بيننا وبين الجيران الشماليين.

قال المؤلف مبتسما: آن لك أن تفهم قيمة الجغرافيا. ستصبح

همزة وصل بين قارتين، وستحمل السيارات والشاحنات والدراجات النارية والهوائية آلاف الزائرين والزائرات من أوربا إلى إفريقيا، والعكس بالعكس... معنى ذلك أننا سنصبح امتدادا لقارة عظيمة نتزود منها بكل شيء. وكل مواطن يستطيع أن يجتاز الطريق البحرية ليفتح عينيه ويتعلم ويستفيد بالاحتكاك، أي نعم بالاحتكاك. وهذا أحسن تجسيد لتقارب الشعوب وتعاونها ويكفي أن ننتبه إلى موقعنا وأن نستفيد من منحة الجغرافيا لنحل جميع مشكلاتنا. أبواب الأمل، إذن، مشرعة لأن بلادنا ستنفتح حقا على قارة العلم والتكنولوجيا والسوق الأوربية المشتركة.. فهل أدركت الآن أهمية النفق الواصل بيننا وبين الشمال؟

طال الحوار دون أن نصل إلى اتفاق. ردد المؤلف على مسمعي أكثر من مرة، ما كتبه في مخطوطه عن أن معضلة الرواية هي الكتابة عن زمن عنته داخل سيرورة غير منتهية، مما يجعل الحديث عما هو طازج بعد، هشًا، فاقدا لتضاريسه.. وتبين لي، في النهاية، أنني لو انسقت لهواجسه وتأملاته، لأعدنا رواية ما سبق بطرائق أخرى من غير أن نتأكد أننا لن نعود إلى تحويرها. وبما أنني عُيِّنْتُ راويًا للرواة وأصبحت لي مسئولية أمام القارئ، فقد تشبثت بحقوقي المكتسبة وطالبت بإيقاف سيل الوساوس والتساؤلات، وهددت بتقديم استقالتي، أي نعم، أستقيل قبل أن أقال... فلم يبق أمام المؤلف إلا أن يلجأ معي إلى التراضي: أتولى أنا بنفسي سرد هذا الفصل الخاص بـ«زمن آخر»، آخذا في الاعتبار ما قاله ودونه عن السمات الوقتية المميزة، مُثبتًا في البداية «الاستهلال» الوارد في مخطوطه على لسان الهادي. وآثرت أن أصوغ الفقرة الأساسية من خلال وصف حفل

زواج عزيز وسعيدة، لأن الزواج ـ لحد الآن على الأقل ـ لا يزال مرآة كاشفة لبعض العلائق والسلوكيات وما يفلت من الألسنة. إنني أتحمل أمامك، أيها القارئ، مسئولية سرد هذا الفصل حتى يطمئن المؤلف.

من يذكر منكم أمي؟

لعتيم

أصباح شهر أغسطس تغزوني وأنا بعد ممدّد على الفراش، خلف جدار من زجاج يَخْتَرِقُهُ ضياء ساطع، قوي ومقتحم، شفافيته تختلف عن ضياءات بقية أشهر السنة. أحسّني أغوص في أنواره وأنا أتطلع إلى السماء الصافية الزرقة وإلى أشجار صفصاف تبدو هاماتها قريبة من مسقط نظرتي الصادرة عن الطابق الرابع أبقى مطرّحًا في أصقاع بقايا أحلام الليل، أو على حافة حُلْم يقظة يُخدّر الحواس ويشل فيّ الحركة. كم يبدو، عندئذ، صعبًا العبور إلى منطقة اليوميّ والانغمار في الأفعال المحسوبة.

تتسكّع عيناي في بطء وتثاقل وأنا أحاول أن ألتقط الأشكال المربعة والمستطيلة والمثلثة التي تبدو عند الجزء الأعلى من العمارة الجانبية، وما يصدر من أصوات عن أطفال يلعبون في حديقة العمارة، أو عن سيارات ودراجات نارية. وأحس أن التلكؤ طال، وأن ما أحتاج إليه لأغادر الفراش هو استحضار تلك الصورة المتخيلة التي توقف لديّ الإحساس بالتكرار والرتابة. أغمض

الجفنين متصيدًا ملامحها: سديم تذكّر غائم القسمات، تتوسّطه صورة امرأة هشّة الجمال، دقّت تقاطيع وجهها واستدارات جسدها حتى كأنها طيف نوراني تنفخ عليه فيطير سابحًا بغير أجنحة.. غير أنها مع ذلك امرأة أكثر جسمانيةً من كل النساء اللائي عرفت: امرأة تنبض الرغبة - الشهوة الخافية وتحيلها «حية» تزحف على قدمين.. أضم الصورة - الطيف بضع دقائق وأنا مسبل الجفنين ثم أهب، فجأة، واقفًا لأندفع إلى الحمام.

مرت سنتان على وفاة أمي. انطفأت قبل الأوان. ولم أقتنع بشروحات الطبيب، بل وجدت أن قلبها لا يمكن أن يقاوم أكثر وهي التي كانت تريد أن تحمله هموم كل الناس. غمرني شعور كاسح بالوحدة والعبثية، فحاولت أن أداريه بمضاعفة ساعات الشغل والاجتماعات، والسهر مع الأصدقاء، والبحث عن اللّذة المباحة والمحرّمة. نهم غريب يقود خطواتي، ونهيلية مريحة تنشر غلالتها عليّ، وأنا أركض بدون انقطاع. وكلما لاح وجهها في لحظات استجمام أو إعياء، تَمْتَمْتُ مترحما على روحها لأنهي المشهد. سنتان مرّتا في دوامة العمل والسهر والمغامرات العابرة، لكن وجهها المدوّر، الودود، كان قد عرف طريقه إلى ذاكرتي. كان وجهًا صموتا في معظم اللحظات، وحتى في الأحلام لم تكن تتكلم كثيرا. أنا الذي كنت أكلمها - على غير عادتي معها - بحماس وحرارة وغالبًا ما تقترن مشاهد الحلم بتقبيلي ليديها ووجهها الذي احتفظ بنضارة ما قبل مرضها.

وبدأ حوار صامت بيني وبين أمي الراحلة. لم أكن أدري ما إذا

كانت تحدثني في دخيلتها كما كنت أفعل. ووجدت أن الكلمات باهتة تغلّف أكثر مما تجلو، بل وجدت الأسئلة التي يطرحها عليّ وجهها العائد، مقلقة، وموقظة للشكوك. ما معنى أن يكون لنا أم؟ أجبْ من غير أن تلجأ إلى فرويد ولا إلى النصوص المقدسة؛ أجبْ في غيبة الأب، ودون أن تلجأ إلى العقل المحلّل ولا إلى الحاسوب المتعثم وأشهُر. الأم لا يُسأل عن سبب وجودها، أتمتم. تملأ الحيّز الهش، العطُوب، في نفوسنا وتجعلنا نرى المعنى حيث تنتفي الدلالة، وتتداعى الترابطات. أقول الآن إنها كالشعر: رغبة في معانقة المطلق، تفتح لنا أبوابها بالذات عندما تبدو الأبواب جميعها موصدة. أبدًا لم يخامرني الشعور بالافتقاد وهي حية مشعة بحضورها الذي يبدّد، عندي، سحائب الارتياب والحيرة والضياع. هل غيابها هو ما يجعلني أرسم ملامح مُثلى لصورتها؟ حتى في لحظات التوتر بيننا كنت أجد فيها ذلك الوجود لذاته الذي يتحدى غضبي وتمرداتي وأوهامي المصطنعة هي هنا، كانت، كالجذر الضارب في أعماق التربة، لا تزعزعه عواصف ولا تطاله أعاصير. سابق وممتد، وجودها، تسرب إلى ما بين المسام ليذكرني، كلما غفلت، أن شعلته المحرقة لا تخبو، كالحنين إلى الوطن، كالشوق إلى تربة مسقط رأس، وكأهازيج الشعر الكامنة في الوجدان.

واستقرت لديّ عادة استحضار الأم من خلال التذكّر، ومن خلال مساءلة الأهل والأقارب، كانوا يضحكون أول الأمر وأنا أستفسرهم: هل تذكرون أمي؟ ثم يجيبون بكلام عام: «الله يرحمها روح. من خيرة عباد الله. اللطافة والظرافة، الموت ما تَتْعبّي غير بنادم المزيان...» وسألت سي إبراهيم فقال: امرأة ربانية لالة الغالية. كانت أسيدي

مولاي دايمًا تتقوم تصلي الفجر. وكنت تَتَلْقاها سبقتني للصلاة وهي رافعة كُفَفْها تتدعي معكم. الله يلحقنا بها مسلمين..».

وكنت مرة في اجتماع حزبي يتضمن جدول أعماله السؤال الخالد ما العمل؟ على إثر سلسلة حملات من القمع والاعتقالات. كان جو القاعة مكفهرًا، وقسمات الوجوه مشدودة وشبح الخوف يطل من بعض العيون. وطال النقاش وامتدت التحليلات، وتكلم ممثل القيادة عن الظروف الصعبة وعن ضرورة الحذر واليقظة ومضاعفة الجهود لتنظيم الصفوف وتعميق الوعي.. ورفع شاب يده طالبا الكلمة، ثم وقف منفعلا وقال: «هاذ الشيء اللي سمعناه الأخوان كلو مزيان، وحنا متفقين عليه، وماشي هذي هي المرة الأولى اللي تنقولوه فيها.. إنما أنا سمحوا لي نقولكم بأنني ما شي مقتنع بزاف بأن هذا هو الطريق.. تيخصنا نفكرو فشي حاجة أخرى تكون مناسبة لهذا التصعيد ديال القمع...» سأله المسئول الحزبي: «بحالاش؟ عندك شي اقتراح؟» أجاب الشاب: لعلكم ستضحكون لكنني أرى أن ما يمكن أن نفعله ويكون مناسبًا بعض الشيء لهذه الوضعية العبثية التي نعيشها، هي أن نخرج إلى الشوارع ونطلق النار على المارة من غير تمييز.. أما أن نبقى هكذا نقول و..».

قاطعه المسئول الحزبي: «شوية ديال الجدية الأخ.. هذا اجتماع مسئول ولسنا في مقهى للسرياليين.. الطريق طويلة والتغيير لا يأتي بالتمنيات..».

خيم التوتر على الاجتماع وبقينا نتبادل النظرات في حرج والشعور بالمأزق ثم تُبَدِّده التدخلات والملاحظات والتحليلات الموضوعية.

انتابني ضيق شديد ووجدتني أرفع يدي لأطلب الكلام. وقفت بهدوء ، تنحنحت قبل أن أقول: «لا تؤاخذوني أيها الإخوان فأنا لديّ سؤال يشغلني منذ فترة وهو: هل تعرفون أمي؟ هل أحد هنا يتذكرها؟».

خَبَطَ المسئول الحزبي يده على الطاولة وهو يقول: يقينًا هذا المساء كلكم سرياليون».

صاح أحد الحاضرين في عدوانية ظاهرة: ولماذا لا تسألنا عن أبيك أيضا؟

قلت بنفس الهدوء الذي طرحت به سؤالي: أبي لا يهمني كثيرًا، مات وأنا لم أتجاوز الثانية من عمري وعندما كبرت رأيت صورته ، قالوا لي إنه أوصى بأن يدخلوني لجامعة القرويين ولم تتحقق وصيته ، لم أفتقده أبدًا، لذلك لا أسألكم عنه..».

عاد المسئول الحزبي إلى التدخل ملحا على أن نلتزم بما جاء في جدول الأعمال. وكثر اللغط ولكنني تابعتُ الكلام:إنني جديّ فيما أقول ولم أبتعد كثيرًا عن موضوع اجتماعنا. وأعتقد أنه بدلا من أن نلوك الكلمات والتحليلات الجاهزة، يمكننا أن نتعارف أكثر، أن نحكي عن طفولتنا وأمهاتنا، أن نتكاشف قليلا لنتساند في هذه الظروف الصعبة.. أما الكلام هكذا من الحلقوم إلى الحنجرة فإنه يزيد شعورنا بالعزلة والخوف والخواء.. أنا أقترح عليكم أن أحكي لكم ما فعلته أمي في حياتها وأن تحكوا لي عن أمهاتكم وآباكم ، عن كل ما يجسد القيم التي نجتمع في إطارها.. نحن الآن نعلم أن المطلوب منا هو الإصرار على البقاء بالرغم من نوايا خنقنا، وتقليص دائرة تأثيرنا.. من أين نأتي بمثل هذه القوة، إذا لم...».

كلام على كلام. قالوا، قلنا.. قالوا، قلنا.

أعصاب متوترة وشعور بالعجز. انزواء في البيت و استحضار هوسيّ للأم الراحلة. أهرب إلى رحابها لأدفع عني الشعور بالقهر والضيْم. في الشوارع، كأنما أجسام الناس تتضاءل من الخوف كلما تفاقم القمع. يتكاثر الهمس، ويعود الرجال مبكرين إلى منازلهم، وتظل سيارات «لاراقل» تجوب الشوارع في خيلاء وانتصار!

كيف يستمر المنهزمون في الحياة من غير أن يتخلوا عن قضيتهم؟ وجدت سؤالي شقشقة. وكيف يعيش المهزوم في الحب أكثر من هزيمة؟ وهل ينفعه تدبير مسبق؟ وهل يرعوي القلب الذي تُثخنه الجراحات؟

تنهشني الأسئلة. على امتداد أفق قاتم، لم تكن تتخايل أضواء أو ابتسامات. أصابني الذعر لأن الفرح هجَر النفس. وكنت في خلوة مع أمي فقالت لي: الكآبة أيضا تؤبّد الهزيمة. كان هناك، بالفعل، ستار صفيق يحجب عني الضحكة المبثوثة في منعطفات الأزقة، وبين ثنايا الأحاديث، وعلى شفاه الناس. ستار يُباعد بيني وبين الفرح التلقائي الذي يشدنا إلى اليومي ويجلو الصدأ.

لكن لا مجال، بعد كل شيء، لأن ألعب دور المخدوع. هل تُسعفني الذاكرة؟ من قال كلامًا يطابق حالتنا؟ لا بد أن من سبقونا قالوا كلامًا في الموضوع. من قال؟ هل تتغلب الذاكرة على لعبة النسيان؟ نحن أيضا نسقي شجرة تحتضر، غير أنه ليس من المؤكد أنها ستحيا؛ ومع ذلك لا نملك إلا أن نسقيها عل الأمل يُزهر فوق

أغصانها. الزمان بيننا. زمن تجدّده حيوات تحبو على مدارج الطفولة أو تتشكل، لا تزال، داخل أرحام الأمهات.

كان سي إبراهيم يجلس إلى جانبي، ولالة نجية في المقعد الخلفي، وأنا أسوق السيارة شارد الذهن، غارقًا في خواطر أسيانة. كنّا في طريقنا إلى منزل الطايع، بعد أن بلغنا خبر اعتقال ابنه فتّاح. آخر مرة رأيته فيها، كانت أثناء حفلة عرس عزيز وسعيدة. أتذكر كلماته المتحمسة وانتقاداته الجريئة. كنتُ أعزه وأخشى عليه، ولكنني أعلم أن أحدًا لا يستطيع أن يعوّض تجربة الآخر. أن يتفجروا ويرفعوا أصواتهم، أفضل من أن تُرتجر الكلمات والمشاعر في نفوسهم فيُصابوا، مثلنا، بالخُناقيّة التي تجثم على حلوقنا.

أستعيد، دفعةً واحدة، جميع ما أفرزته السنوات الأخيرة من اختناقات تسللتْ إلى حياتنا متدثرة بغلائل حريرية. كأنما العيون مفتحة ولا ترى والآذان مصغية ولا تسمع. لكن لا أحد يستطيع أن يزعم بأنه يدرك الخلل ساعة حدوثه. الأشياء تجري سواء حبذت أم اعترضت. أيْ نعم، انظر الآن حولك وحاول أن تستوعب ما ترى وتسمع، لعلك تتدارك غفلتك ساعة جريان الأمور. طارت السكرة وجاءت ساعة الولائم والغنائم. الجميع يتجارَوْن للدخول في الصف، وتلبية الأوامر خوفًا من أن تضيع فرصة الانتهاز لا مناص وماذا سيفعلون، يقولون: التاريخ حلّلناه، والاستنتاجات استخلصناها، ولكن لا حياة لمن تنادي. وأن نكون داخل الجهاز، خير من أن نظل خارجه نَتَسَوّق الريح، ويتأكلنا العجز. نحن في تجويف الموج، هذا كل ما في الأمر؛ ولا بأس أن نُجاري الزمان في

دورته ونضحك للقرد في مودّته.. وتلك الأيام نُداولها بين الناس.

أما ما عدا ذلك، فقد تكفلت به ناعورة الحياة: ليس هناك أسهل من أن تُغري الناس بالاستمرار والتسلّق، أكداسًا أكداسًا، على قاطرة العيش. كل هذه العمارات، والفيللات الصغيرة، والمجاميع السكنية التي تراها، وأنت في طريقك إلى منزل الطايع، نبتتُ كالفطر خلال عشر السنوات الماضيات. عدد منها لبعض من أصدقائك. لا يهم شيء طبيعي أن يتهافتوا على القروض لبناء بيت يأوون إليه بعد أن فتحوا أعينهم فوجدوا أنهم وعائلاتهم واقفون على «الكص» ثم إنه - يضيفون - «ما كاينْ مايدّار»، على الأقل يشغلنا الانغمار في مشكلات الاسمنت والآجور والتصاميم عن همومنا، ويقنعنا بأننا نستطيع بعد أن نبني شيئا ملموسا... ابن وعَمّرْ. من لا بيت له، لا وطن له. أي نعم ومن له بيت بدون وطن، يكون منفيا أو شريدا. فلنتشبث بالأحجار، ولْنَحْتَم وراء الأسمنت ثم نتعلم كيف نصالح المجتمع والدولة قبل أن نصالح أنفسنا...

كلام على كلام. قالوا، قلنا.. يقولون، ونقول...

أي نعم، مناخ الخوف يقلص كل شيء، وطقوس اليومي المكرورة تتكفل بما تبقى. الغلاء؟ الرشوة؟ البطالة؟ الاحتقار؟ القهر؟ ربما. لكن انظر إلى هذه الطقوس، مثل التمائم، تُزَلّق الحصْرِمَ والقتاد وما عاف السبُع، فلا تتوقف الحلوق عن البلع. صيف ساخن، أو صيف بارد، سيّان. طَنَاجِرُ المكرونة بالطماطم (مطيشة حَمْرا عكرية) وحلقات المسلسلات الأمريكية والمصرية والأبصار شاخصة مسروقة الوميض. يعتصمون بالبيوت والتلفزيون. والمدينة فارغة

إلا من رواد البارات ومن لهم القدرة على تناول العشاء في الهواء الطلق. ليل العاصمة كئيب، «مُقْنّاط»، يشيع الاختناق في النفوس، لعلك تهذي؛ ليس هناك من يأخذ بِمُخَنِّقك. اضحك. لا تنظر إلى الأمور من جانب واحد. ماذا يفيد أن تحزن من أجل فتاح الذي اعتقلوه هو وآخرين؟ عمل يائس؟ مفتقر «للشروط الموضوعية»؟ لا يهم. دعهم يجربون ثَبَج الموج ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

إذا الفُلْكُ تكشفت عن خواء

وتلاشى ما ترنو إليه

فلا شيء آخر حقيقيا سوى رقصاتك

رقصات بدون وِجْهة

محصنة ضد الهلاك

رقصة للذاكرة

وأخرى للنسيان

رقصة للصحراء وأخرى للأمواج

وعلى امتداد الآفاق

تَشْرُد آيات من ضياء

تحاصرك الكلمات والتداعيات وتشرّدك: أنت هنا داخل السيارة، وخارجها في الوقت نفسه. تمشي نحو الآتي أم تهفو للقاء الكينونة

المنفلتة باستمرار، المتمنعة خلف ثنايا الموج؟ فيم تنفع الطفولة والمراهقة والشباب وتذكارات الماضي ـ الحاضر الحلزونية؟ فيم ينفع السير نحو الكينونة؟ هل يسعفك النسيان على مشارفة رحابها؟ رحلت الأم التي أدْرَكْتَ ـ في لحظات الاسترجاع ـ أنها الكائن المتحقق خارج التبريرات والطموحات والمشاريع: كالنبض، كالنسغ، كالشوق المداهم. تُطلّ من علياء، أو تكمن في الزوايا، أو تزور في المنام. لتعلمك أن كل تحقّق يمر عبر النسيان، عبر القدرة على سلخ الجلد واستحضار منطق الموتى الذين قتلهم حب الحياة. من كان يردد على مسمعك باستمرار، أنه ما سُمّي الإنسان إنسانا إلاّ لنسيانه؟ كان ينسى أم يتناسى؟ وكان يجد في هذه الجملة اعتذارا. ولكن ماذا تستطيعه الآن وأنت محاصر بالأسئلة والوقائع التي تَبْهتُ أمامها الكلمات؟ الرغائب ـ الشهوات كثيرة. هل تزعم أنك تعرفها؟ هل نبتت في الطفولة أم عند هبوب الشباب؟ ألف شظية في الحنايا، والخيبات مكدسة في الأعماق وأنت في كل يوم تكتشف ضرورة أن تبدأ من جديد، أن تستنجد بكل ما تستطيع لتحضر في هذا العالم المندفع المتحول، المفاجئ بمساراته وكشفه للمكبوت. من وجود إلى عدم، ومن عدم إلى وجود، كاللعبة التي تفتنك بمجانيتها وجديتها في آن. ودائما تمني القلب بموعد مع الفرح الصاعق: يسرقك، يطوح بك في أصقاع الرغائب المتخيلة ويكشف لك أسرار أجنحة الطير، وعطر الورد، وانتظام مولد الربيع. «طال الليل ونعاسي قُرْبان»، تقول الأغنية. لكن الأرق مثل النوم، يحملك إلى مناطقك المنسية ويجعلك تنبش لغائفها ولغاتها على رجاء إجلاء الذاكرة من حمولاتها المعرّقة.. وتلك الملامح الفاتنة أين رأيتها؟ وتلك الكلمات النافذة أين سمعتها؟.. والذين رحلوا، والذين

قتلوا؟ ويبدأ العذاب.. تنشد الإفراغ فيهتز جسدك وتتوفز حواسك، ويعود السديم.. ونعاسك هربان.

وصلنا إلى منزل الطايع. كان مرتديًا جلبابًا أبيض ولحيته مرسلة، وتقاطيع وجهه متوترة. إلى جانبه جرائد عربية وفرنسية ومصحف القرآن. كأنما فوجئ لرؤيتي بعد الجفوة التي دامت عدة سنوات. عناق طويل وبعض الدمعات تبلل المآقي، والأخت لالة نجية تشهق في خفوت وهي تقول:

ـ يحاسبني الله وهاذ النعمة إيلا مابرح وقفت على لالة الغالية في المنام وهي تتقول لي: ف الشدة فاش لخوتْ تيحتاجو لاخُوتهم. يحاسبني ربي وهاذ النعمة باخبي.. وهي لابسة شالها الأبيض وجلابيتها الكحلة.. فقت من نعاس وقلت لسي إبراهيم: والو، لازم دابا نمشيو لعند الهادي ونديوه يتصالح مع الطايع.. وكنت ما زال ما سقت اخبار قبوط فتاح..».

وقال سي إبراهيم: هاذا الشي ما جابْ الله، حتى شدة ما تدوم، والحبس مخلوق للرجال.. إنما أسيدي مولاي، ما غاَزْفيِنْش البلاد فين غاديا، وفين غادي يوصلنا هاذ الشي.. الله يعمل تاويل...».

وسألت الطايع عن التهمة وعن المجموعة التي ينتمي إليها فتاح، وعن تاريخ المحاكمة، فكان يجيب باقتضاب مستبعدا أن يكون ابنه عنصر تخريب كما جاء في صك الاتهام. ويعاوده الغضب فيصيح: لماذا لم يعتقلوني أنا، لأن انتقاداته دائما أقولها ومن زمان.. حتى الكلام أصبح ممنوعًا؟ كيف نغير، إذن، المنكر؟

كانت لالة نجية تعود، من حين لآخر، إلى لازمتها: «يحاسبني الله، شفت أمي لالة الغالية وهي لابسة شالها الأبيض...»؛ هي تحكي منامتها وأنا أرى:

رأيت أمي

رأيتم أمي

كانت متلألئة، مُمتلئة بحقيقتها، واثقة في اطمئنان. تبتسم في رضى صوب تلك الوجوه الفتية والجثث المستيقظة من مراقدها وقد تحولت إلى غابة من المخلوقات السائرة على هاماتها، تزحف نحو المدينة. لا أعرف تلك الوجوه. ربما رأيت بعضها منذ عشرين سنة، منذ خمس سنوات، أو منذ سنتين. هيئتُهم أشبه بالاحتفال الذي يبتكر طقوسه: يَلُمُّون الحجارة، يشعلون النيران ويضحكون كالموج. وفي الليل، تنير قاماتُهم كالشموع وتتحرك صوب القصور والفيلات والعمارات الأسمنتية.. تقتحم مخازن الملفات والمصائر، تخضُبها وتنثرها قطعًا قطعًا وقوالب مفككة: أحجار فاس، منازلها وأزقتها.. شوارع البيضاء الفسيحة وكاريراتها؛ الأحياء المحيطة وصعاليكها وأوباشها يتدثرون بعنفهم الجميل ويكتسحون الفضاء. يخرج الموتى من قبورهم، ينهضون ليلًا ويسامرون الموتى الجدد.

رأينا أمنا، تراها على مدى البصر،

داخل جلبابها، مكشوفة الوجه والشال على كتفْيها.

قالت: شيء لله أمولاي إدريس، اللي قَصْدَك ما يخيبْ.

قلنا: هل تحضرين معنا طقوس «المشاققة»؟ المدينة اغتبَتْ،

وستقدم ألف ثور يُذبح في باحة ضريح مؤسس المدينة هذا العام. سيكون الدم غزيرًا، نافورةً تنبجس من الأرض، وسيرقص الأطفال والمراهقون والشبان، ثم يُعمِّدون أرجلهم الخيزرانية بدم الذبائح الدافئ. ستدوم الرقصة إلى مالا نهاية، وسيشارك في مباراة المثاقفة أطفال المدن الأخرى. سيُغنون كلهم ويُهلِّلون. أصواتهم جميلة. يا أمنا أنت تحبين الأذكار والبُردة والهمزية، وهم ينشدون أشعارًا فاتنة تصف الربيع خارج الأسوار. تصف اللمسة الأولى ورعدة الحب، ولثغة المغنين، ورقة الأهداب والورود في قلعة «مكونة»، وتصف رحلة الذين يعودون بعد موتهم، وانتظار المنفيين خلف الجدران. يرقصون بلا توقف عدة أيام.

في كل ليلة يقف الموتى، من دُفنوا ومن لم يُدفنوا. تنطفئ ذُبالات المصابيح ويختفي العسسة: يخافون فلا تسمع صيحتهم وهم يسألون عمَّن يكون القادم؟

تعلو الهمسات والهمهمات. تنسج القبلات بين العائدين والمقيمين وشاحًا شفافًا، ويبدأ الطواف عبر الأزقة والإيقاع مُوحَّد، مُتواتر واهتزازات الأجسام مضبوطة:

- حيّ.. حيّ.. حيّ.. حيّ.

نريدك أن تبقى معنا. لن تفلتي منا هذه المرة. لن نضيعك. سنستمد منك الصبر والإصرار على البقاء: نتعلم منك البسمة المتناسلة والوحدة المتعدِّدة.

أمي، سترين أنني أنا من يُحبك أكثر. سأصيح ملء القلب والفم

والكيان منشدًا لك: «عِشقي فيك مُؤبَد». وآخذك من يدك لأرتاد مفاتن العين والقلب. بلا حدود، بلا أسْوجة. أينما تشائين نُولّي وجهنا. ولن أكتم المشاعر. لن أزِنَ الكلمات. والساقي المؤدّب يسقي الأجِنَّة والورود ونحن في نشوة الامتلاء والتحقق.

دائمًا بين الواقع والحلم تتفتّق لغة القلب. ولكنك الآن ستنسى لغتك. ستنسى اللغات جميعها، ولن تستطيع، في لحظات معينة، أن تتعرف عليها مُسبقًا، فتظل زائغ الخطوة عند مفارق الفَقد والوجْد. ألم يحدث ذلك وأنت تحاول أن «تترجم» أصوات النوارس إلى حروف حين اقتربت منها على شاطئ البحر، في السنة الماضية، وهي تطير محوّمة على نتوءات الصخر الصغير المحتضن، لا يزال، لبقايا الموج المنسحب؟ فجأة، ضاعت منك الذاكرة وقدرةُ مطابقة أصوات النوارس مع ما تعيه من حروف وأصوات بشرية. لحظة معلقة. وعلى الرمل آثار أقدام النوارس ذاتها راسمة خطوطًا متداخلة بأظافرها المخلبية: مثلثات من غير زوايا، خطوط منحنية، أقواس متراكبة، ونقط متناثرة تجعل منها خربشات تشبه خطًّا هيروغليفيا... لحظة معلقة. لحظة تُنسيك لعبة الأصوات والحروف: إطلالة على أصوات وكتابة مجهولة.

لحظة بدئية، لكن نُعْبتها لن تدوم طويلًا.

امـرأة النسـيان

إهـداء

إلى:

خليل غريب

عبد الجبار السحيمي

عبد الحق الديوري

(١)

أليس من حقنا أن نفعل شيئًا
لاستدامة نَجمةٍ آيلةٍ للأفول؟!

م. ب

أنت متعجل لأن تكتب
كما لو كنتَ متخلِّفًا عن إيقاع الحياة
إذا كان الأمر كذلك، استعرض مصادرك
عجِّل، عجِّل بأن تَتَمثّلَ للآخرين
نصيبك من العجيب والعصيان والإحسان

روني شار

صباح من شهر أكتوبر، منذ خمس سنوات. سماء يلفُّها غمام خفيف يحجب شمسًا متكتّمة ستعلن بقوة عن حرارتها كلما تقدمت عقارب الساعة. مشهد مألوف في خريف الرباط المنبئ، غالبًا، عن جفاف. بقايا الأخبار الإذاعية ما تزال تحوِّم على ذاكرتي النعسانة المتلمّسة لما يُخرجها من خَدَرها.

ما تنسجه أصداء الأنباء لا يكاد يتغيّر: يوم الحشر أو يكاد في مناطق من آسيا وإفريقيا وأوروبا الشرقية، وانتفاضات متجدِّدة في فلسطين، واجتماعات لا تنقطع، وتصريحات مجلّلة بالتّعمية وإخفاء الأغراض، وأنباء مقتضبة عن كشوفات علمية ستغيّر وَجْه البسيطة ومصائر الناس في مجالات التكنولوجيا وهندسة الجينات والإعلاميات وغَزْو الفضاء..

وقد أُمضي النهار إلى حدود السادسة وأنا مشدود، كالأبله، إلى ما يتوارد عليّ من أخبار، أو إلى ما قرأته في صحف وطنية تُجيد الوفاء لثوابت خطابها وشعاراتها. لذلك كثيرًا ما أجيب مَنْ يفاجئني بفكرة جدية، أو اقتراح محفز، أنني لا أكون صاحيًا مستعدًّا للاستقبال المتفاعل إلاّ بعد الخامسة ظهرًا. في بعض الأحيان، تهبُّ كلمات

قرأتها أو مشاهد رأيتها بالأمس لتُخرجني من حالة الخَدر المستَسلم لدَفق الأخبار، ثم سرعان ما تتلاشى.

هذا الصباح، تذكرتُ فجأةً، ما قرأته خلال الليلة الماضية من صفحات أوبرا «سالومي» التي كتبها «أوسكار وايلد». تذكرتُ عبارات تتلفّظها «سالومي» وهي ممسكة برأس يوحنا المعمدان المجنون الذي رفض الاستجابة لإغراءاتها وهي المفتونة به، فاشترطت على الملك «هيرودس أنتيبا» ألاّ ترقص أمام مَدْعوي المأدبة إلاّ إذا قدّم لها رأس يوحنا:

«أعرضت عنّي يا يوحنا. رفضتَني وقلتَ لي أشياء مشينة. عاملتَني وكأنني محظية أو عاهرة، أنا سالومي ابنة هيرودس أميرة يهودا. حسناً! أنا ما أزال على قيد الحياة. لكنك أنت ميّتٌ ورأسك في حوزتي، أستطيع أن أفعل به ما أشاء. أستطيع أن أرميه إلى الكلاب وأطيار الهواء وما ستتركه الكلاب منه ستأكله الأطيار... آه! يا يوحنا، لقد كنتَ الرجل الوحيد الذي أحببتُه. كل الرجال الآخرين يُوحون لي بالتقزُّز. لكن أنتَ كنت جميلا وكان جسدك ساريةَ عاج على قاعدَة مِنْ فضَّة..».

ذهني سارح مع سالومي بأطيافها المتَعدِّدة وهي تتنقل من نغمة التَشَفّي أمام الرأس المقطوع إلى لوعَة الأسى ذات القرار الشجي. ما مِنْ حدود بين الحالتين. كل ما حولها تَمْتصُّه شخصيّتُها المكتملة بتَفرُّدها المتبرِّل، المتعشّق للغواية إلى حدّ أن الأشياء تصطَبِغُ بصوتها المتهدِّل الملتبس. وحين رنَّ الهاتف وسطَ تلك التأملات حسبْتُه، أوّل الأمر، نَبرةً من موسيقى «ستراوس» المصاحبة للأوبرا. ثم

سرعان ما أدركتُ أنه صوتُ هاتفٍ أرضيٍ يَنتشِلُني من تهويمات سالومي السماوية.

ـ آلو؟

ـ هل يمكن أن أكلم الأستاذ الكاتب؟

صوت هادئ، رزين، لامْرأة. يا فتّاح يا عليم. أوّل مرّة أُخاطَب بلقَب كاتب.

ـ طبعًا. أنا مستمع إليك.

بدأت تتحدث بلغة دارجة ثم انتقلتْ، معتذرة، إلى لغة فرنسية مُبينة.

في أوّل وهلة، لم أفهم الموضوع؛ ثم أخذتُ، تدريجيًا، أستوعب كلامها. فهمتُ أنّها صديقة حميمة لـ: «ف.ب»، إحدى الشخصيات النسائية الواردة في رواية «لعبة النسيان»، وأنّ «ف.ب» طلبتْ منها أن تُقنعني بأن أزورها في «مَحبِسها» العائلي، لأنها تريد أن تُناقشني في بعض التفاصيل التي أوردتُها على لسانها... قاطعتُها محاولا توضيح اللبس:

ـ لكنني لا أعرف «ف.ب» شخصيًا، ببساطة لأنها ثمرة تخييل، وإذا كان هناك تشابُه أو تطابق فهو محض صدفة..

استمرت مُحدثتي مُلحة بأنها هي نفسها حضرت لقاءً بين الهادي وصديقتها «ف.ب» في باريس، وأن هناك واقعًا قائمًا قبل أن يتدخّل الخيال.

ـ أنا لستُ مسؤولاً عن هذا التشابُه، ولا يتّسع وقتي للدخول في لعبة تصحيح أخطاء شخوص لا أزعم أنها تنتسب إلى ما عاشه الناس بالضرورة.

ـ بهذا التملّص، أنت تختار الموقف السهل أيها الكاتب المحترم، تدير ظهرك لما كتبتَ مفترضًا أنه لن يُحرك أشجانًا أو ردود فعل..

ـ أؤكد لك ولصديقتك، بأنني، خارج الكلمات، لا أستطيع أن أسعف أحدًا.

ـ هي لا تريد منك إسعافًا.

ـ والمطلوب؟

ـ أن تزورها. هي الآن تعيش معزولة بمعزبة توجد بنفس العمارة التي يملكها أبوها بحي «ڤيردان» بالدار البيضاء. جميع أفراد عائلتها يعتبرونها مختلة، وصديقتنا لا تطيق رؤية أحد، مستسلمة لما فرضوه عليها ومنجذبة لما تُسميه منفى داخليا. لا أُخفيك أنها مريضة وغريبة الأطوار، وأظن أن زيارتك ستخرجها، قليلاً، من وَحدتها. أنا الذي أهديتها نسخة من «لعبة النسيان» واستدرجتُها لقراءتها.

ـ لكن يجب أن تتأكدي من أنني لا أعرفها، مثلما أنني لا أعرفك.

ـ لنقُل إن الهادي حكى لك عنها، أو أن مجرد قارئة وجدت ملامحها فيما كتبت وتُريد أن.. ولم أستطع التملّص من تحديد موعد لزيارة «ف.ب» النازحة من صفحات «لعبة النسيان» إلى حي «ڤيردان» بالدار البيضاء.

عندما أعدتُ السماعة إلى مَوْضعها، لم أكد أبرح تلك المنطقة التي غصتُ فيها وأنا أستعيد كلمات "سالومي" وحركاتها المتقلبة من الحقد الموتور إلى العشق المعذَّب، المستحيل. هل هو فضاء معزول؟ أم أنه مُتواشج مع الفضاء الذي أنسجه كل يوم لأواصل العيش وسط فضاءات أمشاج؟

* * *

تأكدتُ أنني لم أر صديقة «ف.ب». من قبل، عندما سلَّمت عليَّ وأنا أنتظرها على ناصية شارع ڤيردان. شرحت لي طريقة التسلل إلى المعزبة وأوضحت لي أن البنت التي تسهر على خدمة "ف.ب" متواطئة معها وأنني في مَأمَن منْ كُلِّ إزعاج. عندما دخلنا، كانت "ف.ب» جالسة على لحاف مرتفع قليلاً عن الأرض. ظلّت جالسة ومدّت لي يدها وابتسامة شاحبة تعلو مُحيّاها. انحنَتْ عليها صديقتُها تُقبلها ووشوشت لها بِضْعَ كلمات ثم انسحبت وهي تودّعني بإشارة من أصابعها.

امتدَّ الصمت لحظات غير قصيرة فأخذت أنظر إلى جدران الغرفة المكسوّة بمستنسخات للوحات فنانين مشهورين: «غوغان»، «موني"، "ماتيس»، «بيكاسو»؛ وفوق الحيّز الذي يوجد تحته الفراش مستنسخ كبير للوحة «صديقتان» لـ«جوستاڤ كْليمت». أطلتُ النظر إلى هذه الصورة الأخيرة ووقفتُ مقتربًا منها وأنا مندهش لملامح التشابه بين «ف.ب» وبين المرأة المرتدية لفستان أحمر فاتح وقد لفّت شعرها في شال يأخذ شكل عمامة مشبوكة في الأعلى بحلي تشوبه نقط حمراء وخضراء، وعيناها السوداوان تُعبران عن انشداه

وهُموم، فيما صديقتُها العارية أو المتدثِّرة بغلالة جد شفّافة تسند رأسها إلى كتف صديقتها وتنظر نظرة جانبية وقد ارتسمت بداية ابتسامة في عينيها وملامحها تشي بأنها ظفرت بسعادة ما. ورغم الألوان الزاهية التي برع كْليمتْ في تزويجها مُؤثِّثا خلفية اللوحة وجوانبها، فإن المرأة «المكسوّة» تكتسح بقيّة العناصر لتشدّنا إلى أبعاد بلا قرار ترنو إليها عيناها الحزينتان حُزنًا لا يسمَّى..

بعد قليل، سمعتُ «ف.ب» تقول بصوت هادئ: هل نسيتني؟ ابتسمتُ مُحرجًا وأجبتُ بأننا لم نلتق من قبل. استأنفتْ كأنها لم تسمع ما قلتُه:

ـ «منذ كتبت «لعبتك» وأنت تختبئ وراءها. ألَم يُحدِّثك الهادي عنّي؟ ما أخباره؟ منذ رَأيتُه آخر مرّة، منذ سنوات، في المقهى بباريس، لم ألتقِ به. عشت تجربة مليئة بالاهتزازات، من تَدَحْرُج إلى آخر، وانتهى بي المآل إلى ما تراه: محبوسة، معزولة. أنا في نظر العائلة حمقاء، لكن الشعور المهَيْمن عليّ هو أن العالم الخارجي لم يَعُد يُغريني. يمكن أن أمضي أيامًا متتالية وأنا تائهة وسط رؤى مبهمة، هاربة من كلّ ما يلتمع في الذاكرة. أُغمض عينيّ وأجهد في البحث عن نقطة صفر لا يوجد بها شيء يشدني إلى ما حولي. وكلما وَخَزَتني الأصوات والنداءات والكلمات المتناهية إليّ من الشارع، أمعنت في ملاحقة السديم الذي ينسيني انتمائي إلى هذا العالم. أنت لم تتوقّع، وأنت تتخيّلني، أن أغدو هكذا: نقيض تلك التي أسْبلتَ عليها اندفاعات التّحدّي وشراهة الإقبال على الحياة».

توقفت قليلاً ثم استأنفت:

ـ «أوافق على ما كتبته، في مجمله. لكن هناك أشياء أفلتت من ذاكرة الهادي ولم يتداركها قلمك. تريد أن أضرب لك مثلاً؟ أنت تعرف، ولا شك، حانة «عند ألكسندر» (Chez Alexandre) الواقعة وراء صرح البانتيون من جهة اليسار. هل تذكرها؟ هناك تسللت إلى نفسي نشوة الضياع والتآكل. كنت أرتادها من العاشرة ليلا حتى الفجر. الفودكا، وألحان غجرية وأصوات مغنيين روسيين تكتسح الفضاء وتثقب سواد الليل، والرقص المحموم المكهرب للروح والجسد. هناك بدأت أقلد «إزادورا» بعد أن قرأت كتابها «حياتي» وشاهدت فيلمًا يشخص مشاهد من رحلاتها ومغامراتها ورقصاتها الساحرة. كانت تقول: عندما أسأل متى بدأت أرقص أجيب: وأنا في حضن أمي! ماتت المسكينة مخنوقة بأنشوطتها الحريرية عندما كانت تقود سيارتها. آه! لو أن تجربة الحياة بكاملها كانت تبدأ وتنتهي ونحن في رحم الأم ما نزال، ثم يعطى لنا الحق في أن نكرر التجربة فنختار، عندئذ، حياة لا يطولها الزوال!

في ذلك المرقص، كنت أتفجر حركة وحبورًا وأمسك بكل اللحظات التي أتوهم أنها ستمنحني سعادة عابرة؛ وكانت عواطفي مشتعلة تدفعني إلى الجري وراء الحالات القصوى. لكن الذين كانوا يحيطون بي لم يكونوا يدركون. وعندما تبينوا أنني كنت جادة في ملاحقة ما كانوا يعتبرونه سرابًا، أخذوا ينفضون من حولي. كبريائي تمنعني من أن أشكو أو أعاتب. ربما لأنني أدركت أن لا أحد يحمل الآخر فوق كتفيه ليبعده عن القفر، أو ينوب عنه في مواجهة رحلة التدهور..

وها أنا كما ترى: أعيش وسط مدينة تمتلئ بالحركة والضوضاء.

والكلام والصراخ، غير أنني أظلّ خارج ما يحيط بي، بعيدة عن زمن مَنْ أوجدُ معهم في نفس الفضاء. هل في هذا الزمن ما يُفْرح بعد؟ أي فرق بين أن أكون داخله أو خارجه؟ احك لي عن الهادي. هل صنع بحياته أفضل ممّا صنعت؟ انقطعت عني أخباره. أنت تختلف عن الهادي. على الأقل كتبتَ تلك الرواية وحاولت أن تفهم ذاتك من خلال ما حدث للآخرين من حولك. نسجتَ خيوطًا لتجتذب القُرّاء إلى فضاءات لم تكن مألوفة لديهم. أغريْتَهم، فتسلّلوا ليستمعوا إلى كلام الشخوص وحكاياتهم وشجونهم فأخذوا يقنعون أنفسهم بأنهم يمكن أن يتسلوا بممارسة لعبة النسيان والابتعاد عن ذاكرتهم الملأى.

أنا، الآن، أُحس بنوع من الأسى لأنني لم ألجأ مثلك إلى الكلمات. أريد أن أسألك: هل هناك، فعلاً، مَنْ يستطيع أن يُعلّم الناس النسيان أو أن يُسعفهم عليه؟».

صمتَتْ من جديد. استأنفت بصوت أكثر شجى:

ـ «لو كانت لي أم قوية، مصممة، مُجرِبة مثل أم «سالومي» لعلّمتني كيف أطالب برأس مَنْ خذلني وتركني على عطشي. لا تظنّن أنني ألمّح للهادي، لا. فعندما قابلته كنتُ، مُنْذ ذاك أروم النّسيان. لعلي أقصد ذلك الذي قاد خطواتي الأولى على طريق الرفض واستنطاق الجسد لأستكشف ترفَ الغواية والحب ثم تركني ليعود، مطمئنًا، إلى زَواج مُرتّب أعدّته له العائلة. في البداية لم أهتم. كان فضولي أقوى من كل شيء، وكنتُ أجري ـ كما قلت لك ـ وراء الحالات القصوى. ثم أحسستُ، شيئًا فشيئًا، أن ثُقبًا صغيرًا بجسدي وروحي

يُخرج هواءً مثل الدُّولاب عندما «يتنفّس»... وانتهيتُ إلى ما ترى: وجدتُني أشعر بالاختلال والتباعد عنْ جميع من ألتقيهم لأنني أرفضُ أن تغدو الأشياء والعلائق عاديةً مقبولة، مفصولة عن الزخم الذي رافقها في مرحلة الاستكشاف والاندفاع. أصبحتُ مشدودة إلى التأمل ومناجاة الذاكرة. تمنّيتُ أن أكون مخلوقة برأسيْن فلا أنام أبدًا إذْ يتناوبُ الرأسان فأضمن يقظة دائمة! لا يُفيدني النوم. حالتي هذه أفضل: أعيش متأملة، لاهثة وراء زمن يتغلغل بقوّة في الحنايا. أديرُ احتمالات العيش والتحقّق في مخيلتي بعيدًا عن التّصخّر الذي يغمر كلّ ما هو قائم ومتحقّق مِنْ حولي...».

صمتتْ من جديد.

لم تكن ملامحها متطابقة مع ما تخيّلتُ أن تكونه «ف. ب» في «لعبة النسيان». ورغم ذلك، كانت هناك تشابهات كثيرة. قلت: سبحان مَنْ يخلق من الشّبه أربعين. لا أحد يتفرّد تمامًا من شكله ومشاعره. وإذا كانت «ف.ب» قد انبثقتْ عندي من صلصال المخيّلة، فها هي أمامي، من لحم ودم: مختلفة ومتطابقة، أبعد ما تكون عن اللعبة التي أويتُ إلى ظلالها زمنًا. فكيف يستقيم الحوار بيننا وأنا مُرتهنٌ لصورة هلامية، احتمالية، فيما التي هي أمامي مُنغرسة في سياق ملموس، حيّة نابضة يخترق كلامها كل الغشاوات؟

أُخالسها النّظر ثم ألجأ، بسرعة، إلى المقارنة: نفس العينين المشعتين ذكاءً وسخرية، لكن تعبير الوجه وحركات الجسد أكثر هدوءًا من تعبيرات «ف.ب». المتوتّرة، المتوثّبة؛ فكأنّ مسافةً تفصل التي هي أمامي عمّا يحيط بها، فيغدو جسدها مُكوكبًا يشعُّ بحضور

وجدانيّ غامر، لا يمكن أن نتبيّن الجسد بمعزل عنه. نفس التلفّظ الهادئ، ونفس اللّثغة التي تخيلتها عند «ف.ب»، إلاّ أن المُعجم مختلف لأن ما أستمع إليه الآن مُصفّى من السخرية والتلميحات اللاذعة كأنما هو صادر من وراء القبْر؛ والكلمات تحمل أصداء نشيد الإنشاد، ورحابة الرؤيا الحلمية التي تلوح كَالومض المبهر. ثم إن النُّتف التي أسمعها من قصّتها تلتقي ما حكتْه الرواية باقتضاب شديد عن «ف. ب». المتخيّلة هناك. هناك إذن أكثر من ذات ومن رأس في الجسد الواحد، وأكثر من لغة للتعبير عن ذاكرة تُوهمُنا بأنها واحدة لا شريك لها!

وجاءني صوتُها مُنبِّهًا: أنتَ لا تكاد تقول شيئا وتكتفي بهزّات من رأسك.

ـ أنا أنصتُ إليك. أترك لك الكلام لتستعيدي صوتك الذي سرقتُه منك، عن غير علْم، في رواية «لعبة النسيان». كل هذا الكلام الجميل ما كان لي أن أتخيّل أنه كامنٌ في صدر امرأة مثلك من دم ولحم. أنا لم أكنْ محظوظا مثل الهادي الذي تعرّف عليك وأنت في ريعانك، في أبّهة الألَق.

ـ يظهر أن الهادي لم يخبرك بأنني غامرتُ أيضا في متاهات الكتابة. لم تكتمل التجربة ولم أرْضَ عمّا كتبتُ فدمّرت صفحات عديدة. خُضْتُ التجربة على مستويَيْن: في المرّة الأولى اجتذبَتْني فكرةُ النّفي فسعيت إلى تجميع المواد والمراجع لأكتب أطروحةً عن النّفي عند «هيجل» و«ماركس» و«فرويد». لم يكن قصدي أن أُنجز مجرد

بحث جامعي. كان شيء آخر يحركني. هل تُدرك معنى التعطُّش إلى الحرية، إلى المعرفة، إلى امتلاك العالم من خلال منهج جديد؟

عندما وصلتُ إلى باريس أدركت أن الحياة يُمْكِنُ أن تكون مختلفة عمَّا عشتُه في المغرب تحت وصاية تأخذ أكثر من شكل. وجدتُ أن الفتاة تستطيع أن تكون مسؤولة عن ذاتها وأن تواجه أعباء حريتها وأسئلتها الخاصة، الصعبة. في البداية، رُحْتُ أقرأ بنَهَم، أناقش وأكرع من كل الكؤوس التي ظننتُ أنها ستروي غليلي. وأغرتْني لحظة المراجعة وإعادة النظر في الفكر الفلسفي الفرنسي خلال الستينيات. فاستسلمت للإغراء واهتممْتُ بفكرة النَّفي التي اعتبرتُها رحمًا منها تُولد الأشياء المثيرة والتغيُّرات المجدِّدة. لم أكن أستطيع أن أثبت ذاتي إلاَّ بنفي الموروث الذي شلَّ وجودي وحوَّلني إسفنجة تمتصُّ ما يُلقى إليها من معلومات وأوامر وتعاليم. الأب، زوجة الأب، العمَّات، الخالات: عيب، حشومة، البنات ما يخرجوش مع الأولاد... في المدرسة الفرنسية فقط كنت أتنفس بحريَّة لبضع ساعات. لكنني ظللت محافظة على السلوك الذي يُرضي أبي لأُقنعه بأنني أستحقُّ السفر إلى جامعات باريس. وهناك وجدتُ، عند «هيجل» و«ماركس»، ما غذَّى لديَّ الإيمان بنفي ما هو قائم لاستجلاء ما هو كامنٌ في المجتمع والإنسان. صيرورة التاريخ تُوجهها قوى النَّفي؛ و«فرويد» نَفَى الصورة الوردية التي اصطنعتها المجتمعات المسيحية عن وَحْدة النفس والسلوك ورُجحان الإرادة. نَفَى تلك التطهُّرية المواربة وفَضَحَ الأُبوبة التي تُخفي الغليان. قدر الإنسان أن يعانق العنف الملتصق بكل مجالات حياته. والنفيُ منطلق لاستكشاف العنف، والعنف دليل الثورة وجوهرها... هكذا كنت

أتخيل العلائق والطريق إلى إعادة صوغ العالم. كنتُ أقرأ وأكتب وأنا أفكر في ما عشتُه بالمغرب، وفيما أطمح إلى تغييره لتستطيع النساء في بلادي أن يمارسن حريتهن. ولم أستطع أن أتمّم ما بدأت. كنت أوثر الاستجابة إلى رغائبي وإلى ما هو أعمق من الكتب. وفي أحيان عديدة، كنتُ أحس أن ما أسعى إلى تحليله والتعبير عنه، قد أضحى ضمْن البديهيات وأن آخرين قد سبقوني إلى قوله. ولم أكن أريد أنْ تنْقضي إقامتي الدراسية دون أن أستوعب وأجرّب ما يُوفره المجتمع الفرنسي الباحث، عبر انتفاضته في ربيع ١٩٦٨، عن صيغة مغايرة للحياة القائمة ولعلائق الأسرة والأنماط السلوكية ولبرامج التعليم وتوزيع الثروات.. عندما يمشي الحلم، فجأة، على قدميْن تنتفي قيمة الكتابة. أليس كذلك؟!

سنوات بعد عودتي إلى المغرب، وتحت وطأة الاختناق الذي تَعاظَم منذ السبعينيات، بدأتُ أناغي طيف رواية أكتبها عن عالم سرّي يوجد مُضاعفًا لذلك العالم البارز، الملموس الذي كنت أرزح تحت ثقله وكوابيسه. وكانت ملامح الرواية تقترن عندي بتشخيص «إيتوبيا» غير فاضلة، تحكمها أخلاقيات أخرى تجعل من تحقيق الذات، بحريّة وطلاقة، هدفا أسمى. «إيتوبيا» غير فاضلة تكون هي نقيض التّقييد والمساومة، والحجْر، وتوْريث العادات والقيَم والمال. كنتُ أريد أن أقترب، في روايتي، من ذلك العالم المضاعف لعالمنا الظاهر، والذي كنتُ أستشعر وجوده رغم أن الناس تتناساه، أو تَصرف السمع عن نداءاته الملحاحة. عالم سريّ تعتمد علائقُه منطقًا آخر: بقَدْر ما نعيش، بقدر ما نكتشف أن الذي فاتَ هو اختفاء لجزء من كياننا، أي لتلك الحالة التي كانت تجعلنا أكثر حماسة

وتوقُّدا وإقبالا على الدنيا.. وكُلما عشنا، احترقتْ تلك المادة الحياتية وتَلاشى قسْطٌ منها. وهذا ما نُدركه في التَّوِّ، بالحدس ثم عبر التجربة. ومن ثَمَّ يتبلور وعيُنا بالسير نحو الموت، نحو اللاّحياة. واللعبة مُسْتحكمة: حب الحياة مُتَمكِّنٌ منَّا، وما نعيشه يقودنا حتمًا إلى نُقْصان ذلك الحب وإلى ارتياد متاهات الكلام باحثين، عبَثًا، عمَّا يُوهمنا بأننا ما نزال مستمرين في حَلَبَةِ الحياة..

كتبتُ صفحات من تلك الرواية ثم أعرضتُ عنها.

توقَّفتْ بضع دقائق، فامتدَّ صمتٌ كثيف. استأنفت وهي تنظر عبر النافذة:

ـ «أليستْ المعضلة هي أننا لا نَحسم في ما نَقْبَلُه وما نرفضُه؟ قد لا نكون متأكدين من اختيارنا، لكنني أقول، الآن، علينا أن نَتحمَّل مخاطر اندفاعنا نحو ما نحس أنَّه يملأ الكيان. بعد ذلك، لا يهمُّ أن نُغير الموقف، أن نُعلن قناعة جديدة... لأن ذلك يضمن، على الأقل، اشتْعالَ الوجدان والتحمّس لشيء يَجتذبنا. أما عندما نلجأ إلى التَّوليف والتوازُن وإمساك العَصى من الوسط، فإننا نمهِّد للخمود ونَتَخطو فوق رمال رخوة سرعان ما نغُوص فيها، فلا نَعُودُ قادرين على الحركة بملء جسدنا، بكل ما يملؤنا من حبّ وكراهية وعدوانية وطيبوبة... نَغْدُو بِلا طَعْم؟ ربما هذه هي الكلمة المناسبة.

أظنّ أن أصعب شيء هو أن نتساءل: ماذا فعلنا بحياتنا؟ عندئذ يبدو كل شيء تافهًا، بدون ثقْل، خاصة حينَما نَعي مع مرور الأيام، أن العدم في انتظارنا ونحن إنما نتحايل كي لا نراه واقفًا عند الأفق يترصدنا. الحياة؟ طبعًا جذابة وجميلة عندما نَستبدلها بالموت ونتَّخذ

منها حافزًا للتفكير والممارسة. لكن كيف نقوى على معانقتها وكل ما حولنا يُبْعدنا عنها؟

قُلتَ لي منذ قليل بأنني من دم ولحم وأنا أتلفَّظ أمامك بهذا الكلام. لعلي لستُ كما تتصوَّر. يُخيل إلي أنني خُلقتُ من نسيان وإليه أعود. ليس النسيان لعبةً، النسيان امرأةٌ منها يُجْبَل المولود والمعدوم وعبرها يتجدَّد الجسد والذاكرة والنُّسوغ وكل ما يمت بصلة إلى الحياة... قد لا أكون مثل جميع النساء، إلا أنني أحس أنني أنتمي إلى قبيلة ألفَتْ أن تُحاصر بالغدر والعقوق والهجران. ألأجل ذلك أستظل بالنسيان لأتخذ منه واحةً تُنذر نفسها لكل الاحتمالات البِكْر؟

ها جسدي...

(تخلع قميصها الحريري فيبدو بياضُها المرقوش بالنمش، والنهدان في شكل إجّاصتين يانعتين. همستُ في سرّي: يا الله! مِثلما وَصَفَها لي الهادي).

ألا تريد أن تُلامسه أو تُداعبه؟ أم إنك تحسبُني في عداد الموتى فتُعرض عن مضاجعتي، مع أنك جعلتَ الهادي يُضاجع، من خلال البياض، جسد زوجة خاله الراحلة... ليس الموتُ بَشِعا ولا باردًا بالمقدار الذي تتصور.

ـ قد يكون الموت هو مستقبلُنا.

ـ هذا كلام. أي كلام. أنتَ ما تزال مشدودًا إلى الحياة. تستمع إليّ وأنت تفكر في الصيغة التي ستُشخَص بها هذا اللقاء الذي لم تكن تتوقّعه.

ـ أبدًا. أنا كنتُ أفكر في صيغة الموت كما وردت في فلسفة الزِّن: البوذيون أيضًا لا يعتبرون الموت مُرعبًا بل سبيل إلى رحلة التحقق المكتَمل والاندماج من جديد في الطبيعة حيث يظل الإنسان مُتحوِّلًا باستمرار...

ـ هذا أيضًا مجرد كلام. لا أُحسُّك قريبًا منّي عبر ما تقوله. كأنك تبحث عن كلمات تُباعد بينك وبين ما أنا عليه. أنا آفلةٌ تعيش أيامها الأخيرة وأنت تُحصّن نفسك وراء مَتاريس من ألفاظ.

صمتتُ أكثر ممّا توقّعتُ.

خَيَّم توتّر على الغرفة التي غَمرتْها ظُلمةُ الغروب. بعد قليل، قالت:

ـ آسفة. أنا أشكر لك حضورك. لا تُؤاخذني على ما تَفوّهتُ به الآن. أنا متأكدة من أن هُنَاك أشياء مشتركة بيننا، وخلال هذه الساعات التي أمضيناها معًا لم تُطوِّقني الغربةُ كَذي قَبْل. هل تَعِدُني بأنك ستعود لزيارتي؟ أنت تعرف طريق الوصول إليَّ ولا أحتاج أن أرسل لك صديقتي.

هززت رأسي موافقًا. أضافتْ:

ـ لا تَنْس أن أيامي معدودة في هذه الدنيا. نفسي تُنْبئني. لا تتأخر كثيرًا.

رغم ضوضاء الشارع وأبواق السيارات وجاذبية الوجوه والحركة، ظللتُ مشدودًا إلى ما دار في اللّقاء. أسير وخواطري تتزاحم قبل أن تتلاشى كفقاقيع الماء. هي راحلة وأنا مستمر في هذه الحياة الدنيا.

لماذا الآن يُلاحقني هذا السؤال البديهي ويكاد يشلُّ حركتي. ألأنَّ «ف.ب» تبدو في أوان أفولها مُزَلْزِلَةً لكل التبريرات التي طالما احتميتُ بها لأقنع نفسي بالاستمرار مُحتميًا من الموت بالسَّهْوِ والنسيان؟

«ف.ب» أكثر ملموسية وحيوية من أي شخص، من أي شيء آخر. هي مزيج ممَّا ابتدعتْه المخيّلة ومما صَادَفَتْه الحواس وشاهدته العيْن. لم أكن أتصوَّر أن شفافية جسدها بتأثير المرض وهشاشة روحها تحت وطأة العُزْلة وحَدْس قُرب الرحيل، سيجعلان منها إنسانة تتدثّر صَلابةَ الصخْر وتُجسّدُ منطقًا لا يُغالَب. أحسستُ، فعلاً، أن برزخًا يفصل بيننا: هي في عالم يكتسب حقيقته من مَجْهُوليته ولاَمُنْتَهَائيته، وأنا على الأرض أزحف مُتشبّثًا بذُيول اليومي المعَاد وبأوهام مُتعٍ غير مسبوقة.

لا شيء يمكن أن يجعل كلامنا مُشتَرك الدّلالة. رغم ذلك، أُحسني منجذبًا إليها، غَاضًا الطرف عن الشكوك التي تَقْضُمُني بل تُخرسني. وهي.. مُطمئنّة في تأهُّبها لرحلتها نحو عالم أخرويّ، تتكلم بما يشبه الوثوق، منفصلةً عنّي وعمَّا حولي ومحتوية له في آنٍ. تتكلم، فأحسني عاجزًا عن إدراك كلامها.

(٢)

حتّى عند مُجرَّد تحليق فراشة

تكون السماءُ بِكاملها ضرورية.

بُول كلوديل

عدتُ من سفر طويل إلى الرباط، خريف ١٩٩٨. بَدَت لي المدينة متثائبة، متدثرة بشمس متأججة أكثر من المألوف. مظاهر التباين تزداد ما بين الأحياء الشعبية وأحياء الإقامات الفخمة التي تُراكِمُ علامات البذخ. في بداية المساء، يتجمع الموسِرُون عند المقاهي والمطاعم المتحمية بأسمائها إلى العراقة الباريسية: عند پول، لُونُوتْر، ألف ورقة، النوارس... إلا أنها تجمُّعات أشبه بالفقاقيع: ازدحام السيارات الفخمة، الأطفال والمراهقون بملابسهم الأمريكية، والزوجات المصونات بفساتين الخياطة الرفيعة يتهادين على الأرصفة المجاورة للمَخْبزات الفاخرة، وتحيات متبادلة بأصوات مرتفعة وخليط من اللغات يُضفي طابعًا كوسموبوليتيًّا على تلك التجمعات. لكن سرعان ما تنفض تلك اللقاءات الراقية عندما تقتربُ الساعة من التاسعة ليلا فتعود الشوارع إلى ما يشبه الثُّبات.

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

كنتُ هذه المرة عازمًا على أن أبدأ بزيارة «ف.ب» كما وعدتها، وكانت تَوجيهات لقائنا الأخير تنقلني إلى مناخ مُغرق في المفارقة يستثيرني ويطرد الرّخاوة عن حواسي ومشاعري. غير أنني طوال الليلة الأولى استسلمتُ لمُلاحقة شعور خاص تَخايَل لي من قبل ثم حاصرني بقوّة: لم أعُدْ أشعر بالغربة في أي مكان حَلَلْتُ به. هنا أو

خارج الوطن سيّان. كأن حالة شعورية واحدة تُدثّرني وتُحصّنني ضد مشاعر القلق والانتظار والخوف التي كانت تتسلل إليّ عندما أسافر، أو كانت تنتظرني عند العودة وأنا أستعيد الإيقاع المعتاد لحياتي.

اضطررت في السنوات الأخيرة إلى التنقل بين بُلدان مختلفة. في كل مرّة كنت أحس أن مشاعر الغربة واللاانسجام التي لازمت رحلاتي أيام الشباب أخذت تتقهقر. لم أعُدْ أجد صعوبة في التواصل، بشكل أو بآخر، مع ما حولي، ولم تعد مظاهر الاختلاف تؤثر على إيقاعي الحياتي الداخلي الذي تبلور في شكل رحلة طويلة تمرّ بمحطات إلاّ أنها تظل مشدودة إلى السكّة التي آثرتُ أن أسلكها. عزوتُ هذه الطمأنينة إلى السنّ وإلى اقترابي من مرحلة التوازن والأناة في التعاطي مع الناس والأحداث. وتذكرت ما قالته «ف. ب» في لقائنا الأول: «بقدر ما نعيش بقدر ما نكتشف أن الذي فَات هو اختفاء لجزء من كياننا، أي لتلك الحالة التي تجعلنا أكثر حماسة وتوقدًا وإقبالاً على الدنيا..». ولم أتبيّن إذا كنت فعلاً أقلّ إقبالاً على الحياة من ذي قبل. ما أحسستُه، في هذه الزيارة، هو أنني مُتدثر بكساء الألفة الواقي من الغُربة وخيبات الأمل. لذلك، منذ اليوم التالي لوصولي، استأنفت حياتي كأنني لم أكن على سفر: قراءة الصحف، تليفونات للأصدقاء والصديقات، شراء الأكل ومواد التنظيف وأكياس القمامة...

في بداية المساء رنّ الهاتف ليحمل إليّ صوت أحد الأصدقاء الذي علم بوصولي. لم أكن قد رأيته أو سمعتُ صَوْتَه منذ سنة تقريبًا. إلا أنني وجدتني أهتف بكُنيته المحببة: سي مُصلح العزيز آش أخبارك؟

وغمرني بلطفه وعباراته الودية: الظريف، الغزال، الأديب، الفهيم.. ولا تعود علاقتي بمصلح إلى الحزب فقط، بل أعرفه منذ الطفولة عندما كنا نلتقي في أحياء الرباط خلال مُباريات كرة القدم، أو في شاطئ السباحة. ثم تباعدنا بعد مرحلة الدراسة الثانوية؛ لأنه سافر إلى فرنسا حيث مكث عدة سنوات. بعد الاستقلال تواجدنا داخل الحزب وتقاربنا أكثر في فترة الستينيات حينَ اشتداد القمع. وارتبطت شخصيته عندي بعلامتين: الأناقة المتواشجة بدماثة خلق نادرة، ثم تفانيه في النضال المتكتم، البعيد عن الغرض. وأظن أننا أطلقنا عليه «مُصلح» لأنه كان يحافظ على هدوئه خلال الأزمات والتوترات التي تسود بين المناضلين، فيسارع إلى دعوتهم ليتناقشوا ويتكاشفوا ثم ليتصالحوا قبل مغادرة بيته. وكان هو أحد المشرفين الأساسيين على توفير المؤونة للمعتقلين: وجبات طعام، الملابس، السجائر، النقود، الكتب... دائما يتطوع ودائما ينجح في الحصول على المال من المتعاطفين والمتضامنين، وغالبا ما يسدد النفقات من جيبه. وفاجأني ذات مرة عندما ألمحت إليه أنني لا أستطيع زيارة صديقين بسجن «لعلو» لأن ميزانيتي لا تسمح، بأنه قد ناب عني وقدم لهما مؤونة باسمي. وفي بيت عائلته العريق، وقبل أن يتزوج، كنا نغتنم الفرصة، وسط الاجتماعات والاعتقالات، لنسهر ونفضفض قليلا، فكان يحكي لي عن إقامته بباريس وعن مغامراته وعن جوانب لم أكن أعرفها من تفاصيل حياة الحزب هناك. وكان تفاؤله يذهلني إذ يحين الوداع فيفاجئني بابتسامته الودودة وهو يقول: كل شدّة بعدها الفرج. لا تبتئس، افعل مثلي: كلما ضاق بي الحال أشتري عشرة كيلوات من البرتقال وآكلها بسرعة ونهم إلى أن تنقطع أنفاسي ولا

أعود أفكر في شيء! نتعانق ونضحك بصوت مرتفع، وأعود إلى بيتي مُتطامنًا، متحديًا مناخ القهر الذي كان يسعى إلى أن يجعلنا أشبه بالجُرذان المحاصرة. وعندما كنتُ أسأل «مصلح» عما يجعله مثابرًا في نضاله، مطمئنًا إلى عدالة مواقفنا، كان يكتفي بالقول: «أنا هكذا إلى أن تتغير الأوضاع لصالح الذين ضحوا من أجل الاستقلال، ثم إنني أعرف ما يجري في أوساط الذين يحكموننا من فوق بالعنف مصادرين حريتنا. لي أصدقاء يعيشون في كنَفهم ويحكون لي عن استهتاراتهم وقسوتهم وخواء أفئدتهم...».

بَعْدَ الثمانينيات تَبَاعَدْنَا إلاَّ أن اتصالات صُدْفَوية وهاتفية كانت تحافظ على جسور الصداقة بيننا. كان يحكي لي عن تفاصيل مرحلة «مَكَانَك سِرْ» وعن التبدُّلات التي طرأت على علائق المناضلين وعن مظاهر التأزم المخترقة للحزب كما للمجتمع. غالبًا ما كان يستفسرني في نهاية المكالمة:

ـ قُل لي ألعزيزْ، أما تزال قادرًا على الضحك من قلبك كما كنا نفعل في الستينيات والسبعينيات؟

أفاجأ بالسؤال فأطيل الصمت. يضيف:

ـ أنا هجرني الضحك الصادر من الأعماق. لا أعرف لماذا...».

هل نستطيع إحصاء اللحظات التي نكون فيها منتشين بالحياة، عائشين قُرباء من ذواتنا، مستسلمين لسحر الوجود الذي لا يُقيدنا بشيء يعارض رغباتنا، فنضحك، حينئذ، من الأعماق؟

مثل تلك اللحظات تأتي، غالبًا، فجأة أو عندما يتوافر مناخ يجعلنا نحس بالانطلاق، باندفاعة توقظ مشاعر غافية، مدّخرة، فننتبه إلى

ذلك الشيء الجميل، المبهم الذي تعمى عيوننا عنه... كيف نسمي تلك اللحظات؟ كيف نعيش، دومًا، قريبين منها؟

تمضي أيام، شهور، أحيانًا قبل أن نتفطّن إلى الدوّامة التي تبتلعنا وتجعلنا نتحمل المواضعات واللّياقات بدلاً من أن نعيش ما نظن أنه جوهر الحياة..

هذا المساء، عندما سمعت صوت «مصلح»، تحرك الوجدان لأن الغياب الممتد بيننا، منذ سنة، هو أقرب إلى الحضور العام، وكأنني أستحضر ذاتي المتوارية، الراصدة لتلك الذبذبات الخفية اللاّبدة بأغوار الوعي. كنت أظن أنه سيدعوني إلى لقاء منفرد ولكنه أصرّ على أن أرافقه لحضور حفلة عشاء موسعة يحضرها عدد من الإخوان.

حاولتُ أن أتملص مُذكّرًا إياه بالخيبة التي استشعرتُها في السنة الماضية، عندما أخذني إلى حفلة أقامها أخ لنا مُستوزِر بمناسبة زفاف ابنه أو ابنته، وكانت باذخة حدّ التّقزّز (ثلاثة أجواق من مناطق مختلفة، خرفانٌ مشوية بالعشرات، بَسْطيلات يسيل لها اللعاب، دجاجٌ محمّر مكتّف داخل الطواجين، فواكه وحلويات وعصائر بكل الألوان...) غير أنه أكّد لي أن الأمر، هذه المرة، مختلف لأن هناك رغبة في النقاش وتحليل التجربة... ثم عليّ أن أرى وأسمع ما دمتُ كثير السفر ولا أتابع الأحوال عن قُرْب. وجدتُ أنه مقنع، كعادته، وأن السهرة بوجوده لن تَخْلُوَ من متعة.

وعندما انسابت السيارة مع أحد الشوارع الفرعية المكسوّة جُدْرانُها بنَبَاتات مقصوصة بعناية، التفتَ إليّ «مصلح» قائلاً:

ـ لعلك لا تعرف الڤيلا الجديدة للأخ الحلاتيي؟

لم أكن أعرفها، لكنني أعرف صاحبها عن طريق السماع ومن خلال لقاءات معدودة لم تبدّد صورته الغامضة لديَّ. هو مناضل قديم أصبح رجل أعمال. مارس المحاماة في بداية المشوار واغتنى مستفيدًا من فُرَص ملائمة ولم يكن يبخل على الحزب بأمواله. وقيل لي، ذات مرة، إنه مكلّف بربط العلاقة مع القصر والحفاظ على شعرة معاوية التي تفيد في فترات القمع والمواجهة. كان يجيد الحديث ويوحي لك بأنه يعرف أسرارًا كثيرة دون أن يتخلى عن هالة الغموض التي تَنْسِجُ حوله هيبةَ النفوذ. لكنه كان يُتْقِن المجاملةَ ويتتبع أخبار ونشاطات المناضلين القدماء والجدد على السواء. وخلال المرّات القليلة التي التقيتُه كان يبادرني بأنه ينتظر أن أهديه كتبي ليقرأها لأن كثيرين أثنوا عليها. ووجدت أن الڤيلا أوسع مما كنت أتصور: مدخل طويل وحديقة شاسعة ومسبح مُضاء يُضاهي بحجمه المسابح العمومية؛ والصالونات فسيحة مُتداخلة ومتنوعة بين النمط التقليدي والعصري، واللوحات الكبيرة تستنسخ مَنَاظِرَ الطبيعة ومشاهد فولكلورية، وأوان نحاسية وتماثيل لِبُوذا الثخين في أوضاع مختلفة مُستعملة بمثابة قوائم لمصابيح موضوعة في زوايا الغرف..

كان عدد الحضور، رجالاً ونساء، يقارب الخمسين. أعرف معظمهم بدرجات متفاوتة. لاحظت أن النساء (الزوجات وبعض العازبات) يجلسن بعيدًا عن الرجال، مُنهمكات في الحديث والمُسارَّة. والرجال في الشق الثاني من الصالون، يتناقشون ويتبادلون الأخبار، فيما أغنية عربية تتناهى إلى الأسماع من غرفة مُجاورة.

رغم التّرحيب وتَبادُل القُبَل، خُيِّل إليَّ أن معظم الحاضرين لم يكونوا يتوقّعون مجيئي. نظرتُ إلى «مُصلح» فوجدته مبتسمًا يتنقل بين الإخوان والأخوات، مُسلمًا ومُمازحًا. وخطر ببَالي أنه استدعاني لمرافقته حتّى لا أطالبه بمَحضَر عمّا جرى أثناءَ ما كنتُ مسافرًا. لعله يريد أن يتسلّى وهو يراني محشورًا وسط هذا المناخ الجديد الذي تنطق علاماتُه، وصوره، وملابس ناسه، وقاموسهم بما طرأ على حالهم (أحوالنا)، من تحولات. ولم أرِدْ أن أتصرف كدَخيل على الشّهرة والساهرين. أنا منْهم رغم ما قد أشعر به من تَباعُد، وتذكرت أنني، هذا الصباح، أحسستني قادرًا على تكسير الغربة وعلى نَسْج التآلف مع كل المختَلفَات.

بدأت أتنقل بين الإخوان مُسلّمًا، مستفسرًا عن الصحة والعائلة، مهنئًا مَنْ استوزروا أو عُيّنوا في مناصب إدارية مرموقة. والتعليقات المتبادلة لا تبتعد كثيرًا عمّا كنتُ أقرؤه في الجريدة أو في التصريحات التوضيحية: هناك إجراءات وقرارات هامّة سيظهر مفعولها بعد سنوات، الإرثُ ثقيل وأعداء التغيير يناورون ويتربصون. لا بدّ من دراسة الملفات وتعلّم تدبير شئون الدولة؛ مسؤوليتنا هي قبل كل شيء إنقاذ البلاد من التردّي الذي يتهدّدُها... إلخ.

خلال تناول العشاء، حكى بعض الإخوان نُكتًا للابتعاد قليلاً عن هموم الساعة. وروى «ج». نكتة زعَم أنها وقعت بالفعل في فاس؛ فقد خرج أحد زبائن البارات متمايلاً في ساعة متأخرة من الليل ووجد أمامه فاركونيتْ الشرطة التي تتصيّد المخمورين والمتسكعين... ولإنقاذ نفسه، اتجه نحو رجال البوليس وهو يقول بصوت رزين: تحية نضالية يا إخوان!

معظم الحاضرين في هذا العشاء، كنت ألتقيهم باجتماعات اللجنة المركزية، والآخرون أعرفهم. هل حقا أنا أعرفهم؟

دَهمَني شعور بأن العلاقة بيننا قائمة على أرْجُل من طين وأن اجتماعاتنا لم تتخللها حوارات تُخَوّل لي أن أعرفهم. أثناء تلك الاجتماعات، كانت لائحة طالبي الكلمة تتجاوز الأربعين شخصًا، وكل واحد منهم يمضي عشر دقائق في كلام خارج الموضوع وهو يُسَخِّن صوته باحثًا له عن «مقام» مناسب؛ وعندما يعثر عليه يأتي حديثه عبارة عن تصفية حساب مع مناضل سبقه للكلام أو مع أطروحة غير مألوفة اقترحها البعض للخروج من الانتظارية واجترار التحليلات الجاهزة. وخلال تلك المباراة الخطابية، كان كل يغني على «ليلاه»، واللازمات تتكرر، والساعات تمضي قبل أن يُدرك التعب الجميع وتنتهي بقراءة بيان مُعَدّ سلفًا. كنتُ أصابُ بما يشبه الخرس.

ذات مرة، منذ عشرين سنة تقريبًا، سمعت مسؤولا في المكتب السياسي يقول بأن ثورة إيران رجعية، مُشوهة للإسلام ولا تحمل نفعًا لحركات التحرير... فرفعتُ أصبعي وقلت بأنني أتحفظ على هذا الكلام، لأن تجربة إيران ما تزال في بدايتها وما حققته ليس عديم الفائدة، والغطاء الأيديولوجي الراهن قد يعرف تعديلات وانعطافات إيجابية.. اغتاظ المسؤول الحزبي لأنني ألمحتُ إلى الفرق بين التحليل الذي نُنجزه ونحن جالسون على مقاعد أو من خلال ما تنشره صحيفة «لوموند» وبين التحليل الصادر عن زيارة لِعَيْن المكان والإنصات إلى أصحاب التجربة. وردّ عليّ منفعلاً بأن هذا موضوع معقد ويُمكنني أن أنسى ما قاله بخُصوصه. وأنا،

أنني لم أنْسَ ما قاله أبدًا، إلاّ أنني مُنذئذ، لم أتدخل في النقاش واكتفيت بالاستماع إلى الأعضاء الذين يُسخنون حِبالهم الصوتية جيدًا ويُتحفوننا بالكلام المُعاد.

أعرفهم أم لا أعرفهم؟

استغرقتُ لحظات وأنا أستعرض الوجوه وأحاول استحضار ما أعرفه عن صاحب الوجه. كان أمامي «ص»، الذي لم أرَهُ منذ سنوات. سلّمتُ عليه بحرارة يَشوبُها الفُتور. كان «ص». قد لمع إبان النضال الطلابي وارتقى درجات القيادة بسرعة عندما لجأ إلى خارج البلاد بعد أنْ عرفت السلطات انتماءه إلى تنظيم سري. عاد بعد صدور العفو واستأنف نشاطه في الحزب معتمدًا بالأخص على صَوْته الصَّادح «تينُور» الذي يزيد في درجة التأثير. لكنه سرعان ما تحوّل إلى مُتَصَادح فاقد للبريق عندما سلك طريقًا ملتويًا خلال انتخابات تشريعية سابقة. الآن يوجد في وضع حرج لأنه ظل خارج التشكيلة الحكومية بالرغم من علاقاته الوطيدة بأعضاء نافذين عاشوا أيضًا معه في المنفى. ولا أشك في أنه مقتنع بأن ساعته قريبة ليلتحق بردهات السلطة من أبوابها الشرعية هذه المرة. علاقتنا سالكة بفضل المُدَاوَرة والمجاملة اللّتين يُتْقنهما ولا أرفضهما.

طَالَعني وجه «ح»، الذي تناقشتُ معه مرّةً، حول ما كتبه في جريدة الحزب عن ضرورة نقل التكنولوجيا المتقدمة وتحديث الأجهزة والآليات لنتمكّن من تحقيق قفزة نوعية... وكان قد لفت نظري، من قبل، بسمات وجهه الطفولي، المدوّر وبلهجته الواثقة في ما يقوله بصوت مرتفع، غالب الأحيان. ولم تخرج أحاديثنا عن هذا النطاق

العمومي، ربما لأن وثوقيته لم تُشجعني على أن أكتشف جوانب أخرى من شخصيته قد تكون ذات مزايا أفضل. ومنذ سنة، قيلَ لي بأنه فوجئ بعدم تعيينه في تشكيلة التناوب، فطرق باب صديق له أصبح وزيرًا، وأخذ يقنعه بأن يتنازل له عن المنصب لأنه كان مهيئًا نفسيًا للوزارة وسبق أن أخبر عائلته بأنه سيُعيَّن في ذلك المنصب المحتاج إلى كفاءته التكنولوجية!

وهذا وجه «ك»، وسيم، ضاحك، مُجامل، لبيب في إشاراته وإطراءاته. عرفتُه طموحًا منذ كان طالبًا بباريس. طالتْ فترةُ المعارضة وطال انتظاره. ناضل طويلاً، لكنه لا يرى أن المناضلين خُلقوا ليموتوا في المعارضة. فتَحَ مكتبًا للدراسات والاستشارة ووطّد علاقاته مع بعض الماسكين بالسلطة بعد أن أخذ الضوء الأخضر من الكاتب الأول للحزب. تطورت مشاريعه ففتَحَ منشأةً لتربية الأبقار واغتنى قبل أن يصبح وزيرًا. العارفون بخبايا الأمور يقولون إن سرَّ نجاحه هو أنّه التفت إلى جذوره المخزنية التي قد نسيها عندما انخرط في الحزب، ومن ثَمَّ بدأ يسعى إلى المواءمة بين المخزن والاشتراكية على غرار ما كان البعض الآخر يدافع عن توافق الدين مع الفكر الاشتراكي. وأذكر أنني التقيتُه، مرةً في عشاء بالسفارة الفرنسية أقيم على شرف مدير معهد العالم العربي آنذاك «بيزاني» وكان حاضرًا في الحفل وزير مغربي شَغَلَ منصبَه أكثر من ثلاثين سنة إلى أن أقْعَده المرض. وعندما دخل «ك»، ورآه على كرسيه الجرّار، اتّجه نحوه وقبّل رأسه وهو يقول: «أمولاي أحمد تَيَخَصّكْ تْزار. أرى ذاك الرأس نبوسو...». وعلاقتي به ملتبسة: فهو يدرك أنّني، منْ موقع المراقب غير المنافس، أعرف خطواته ومساره

الطموح الذي لن يتوقف عند الوزارة أو السفارة. ويُدرك أيضًا أنني مُبْتَلى بلَمْلَمَة عناصر روائية من بين ما أشاهده وأعايشه؛ ولذلك قال لي يومًا: «سأفاجئك، مستقبلاً، بكتابة رواية تُعجبك. اختصاصي بعيد عن الأدب، لكنك تعرف أنني أقرأ الروايات كلما أتيح لي...». عليَّ، إذن، أن أنتظر روايته الموعودة.

وكان هناك، بالطبع، «عَوّالا»، بابتسامته المدروسة التي تُداري خجلاً واعتدادًا مفرطا بالنفس، أبَانَ عنه في أول مؤتمر حَضَرَهُ للحزب، ممثلاً طُلاّب باريس المتنبّهين لما تُفرزه أزْوِقَةُ الفكر السياسي من اجتهادات وتنويعات على إيقاع صراعات الساحة الفرنسية. الآن، هو في وَضْع مريح لأنه توزَّر وهو في عزّ الشباب، وبلاغته تخدم طموحه، وخبْرتُه تفيد الحكومة فيما يُقال. علاقتنا لا تخلو من مجاملة رغم أن حاجبات تواصل كثيرة تجعلني لا أطمئن إلى ما يتفوّه به، خاصة بعد ما حكى لي صديق أثق فيه، أنه شاهد «عوالا» وهو يبكي عندما علم بإبعاده من لائحة الترشيحات البرلمانية؛ وكان يضرب الجدار بقبضته ويصرخ: «أنا أُحْرَم من الترشيح رغم قيمتي التي يعرفها الجميع داخل الحزب وخارجه. لا أصدق ذلك، لا أصدق...».

وتوجهتُ إلى السيدات، وسلمت بحفاوة على «ن». التي كنتُ تعرفت عليها منذ عشرين سنة وهي تخطو خطواتها الأولى على دَرْب النضال. وكانت علاقة ودّ غامض تتخايل بيننا أحيانًا ثم تَخْبُو، وكنت معجبًا بطريقتها في التفكير ونزوعها إلى التحرّر من وطأة التقاليد. لكنني فوجئت، منذ عشر سنوات، بزواجها من مُحامٍ مسئول عن أحد فروع الحزب بالشمال، لا تخلو شخصيته من تسلط ووصائية.

منذ ذلك، توارت «ن». عن الساحة وارتادت حَرَمَ الزوجية ولم يَعُد حضورها يتعدّى نطاق المناسبات أو التجمعات الانتخابية. قالت لي مبتسمة: أما تزال تتذكرني؟ قلت: طبعًا رغم أنك لم تستدعيني لحفلة الزفاف. أين هو زوجك لأعتب عليه أيضًا؟ أجابت: تعذر عليه الحضور لأنه مرتبط بجلسة هامّة في محكمة تطوان..

وسلمت بحرارة على «ج».، مناضل له خبرة واسعة في تعبئة «الجماهير» وتأمين استمرار الحزب في فترات التأزم والقمع والاختلاف. رغم أن مستواه التعليمي محدود، فإن له صداقات مع مناضلين من أعلى الدرجات إلى أبسطها. وقد تمتّنت هذه العلاقات في الفترة الأخيرة بعد أن تخرّج ابنه من مدرسة عليا في التدبير الاقتصادي وأصبح بحاجة إلى صفقات ومشاريع يُدَوِّر بها الناعورة... أحسه قريبًا إليّ لأنه يلعب على المكشوف ويعرف كيف يتعامل مع أنماط المناضلين المتعددي الألوان والأمزجة..

وكان هناك مناضلون من الوزن الثقيل، دخلوا السجن أو حُكموا بالإعدام. البعض ينظر إلى ما يحدث بتريُّث ويترقب، والبعض اندمجوا ودافعوا عن المشاركة في مسلسل التغيير. تذكرتُ المثل القائل: «الراس اللّي ما يدُورْ كُدْيَه». واستحضرتُ بعض الوجوه الغائبة فأخذت تكتمل في مخيلتي، ملامح هذه المنظمة التي أويتُ إليها منذ ما يقرب من أربعين سنة. أحسستُ لأوّل مرّة، أن انتمائي ملموس أكثر من ذي قبل لأنه يتوفر الآن على نسيج اجتماعي متشابك، مُتغلغل في معظم الفئات والطبقات، يُفرز أفعالاً وردود فعل، ويَنْسل رمزية تؤثر على مجرى الأحداث، ويبلور شخوصًا من دم ولحم، تصلح لأن تستوطن أرجاء النصوص الروائية، فتتعمّم

بسلوكاتها الملتبسة وصراعاتها على المواقع، وعواطفها البشرية التي تَتَأوّشُ بين السموّ والخسّة.

وأنا أجيل الطرف في الجالسات والجالسين بالقاعة الفسيحة وعلى وجهي ابتسامة بلهاء، تذكرت فيلم «السطح» للمخرج الإيطالي «إيتورسْكولا». كنتُ قد شاهدتُه في نهاية الستينيات وانجذبت إلى صورة البطل الذي يحس نفسه غريبًا وسط المدعوات والمدعوين بدلاتهم السموكنج والفساتين الديكولتيه، والإقبال النَّهِم على الشراب وملء الصحون. كان قد خرج من السجن قبل أسبوع وتلقى دعوة من صديقة له إلى هذه السهرة، فجاء مُتلهِّفًا للقاء الأصدقاء... لكنه كلما التقى نظره بوجه كان يعرفه داخل المنظمة، بادر إلى الابتسام والتحية بصوت مسموع فيبادله صاحب الوجه تحية سريعة ويتابع طريقه كأنه يبحث عن شخص آخر. أشياء تغيرت وهو داخل السجن وأمارات تُعلن عنها في تلك الحفلة الساهرة...

لم يكن سطح تلك الڤيلا الإيطالية في ليلة صيف، يُشبه دارةَ السيد الحلائبي، ولم يكن سمْتُ مدْعُوّيه يحاكي حيويةَ الساهرين الإيطاليين وتعبيراتهم الكاشفَة؛ إلا أن مخيلتي تحركت، خلسةً، لتستولي على الجالسين والجالسات وتعيد استنطاق حركاتهم وإشاراتهم وكلماتهم التي قد لا تعرف طريقها إلى الإفصاح بانطلاق ودُونما رقابة ذاتية. كانت هناك لعبة مراوغة تبحث لنفسها عن قواعد وأصول.

وخُيِّل إليّ أن هناك نماذج بشرية كثيرة يمكن أن أتصورها خارجة للتوّ من بعض روايات «ستاندال» و«فلوبير» و«دوستويفسكي»: من تلك الأجواء المفعمة برُوح التوثُّب والصعود المُنْبَتّة بمرحلة جديدة

قيدَ التخلُّق، وتستدعي استنفار كل الحواس، وكل الشراسة المطلوبة. البعض يُغمضون العيون ولا يريدون أن يبصروا الإشارات المعلنة عن نهاية مرحلة، فيزداد تشبُّثهم بمواقف الرفض السابقة، إما لأنهم لا يتوفرون على إمكانات ممارسة السلطة، وإما لأنهم يتوقعون فشل إخوانهم فيتيح لهم ذلك استعادة نفوذهم داخل الحزب. والبعض الآخر أدركوا من خلال قُرون الاستشعار، أن الإشارات واضحة ولا يجوز التقاعس عن التقاطها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، أو لوضع أسس مجتمعية أخرى أو لتعلم لعبة الحكم والديمقراطية أو لربط صلة مباشرة بالقصر وَدَهَاقنته. تختلف التسميات، لكنها تلتقي عند ضرورة استئناف الفعل وَتَحديد المنظمة عبر المشاركة والتعلّم ولسان حالهم يقول: «تحركوا تُرزقوا».

كل هذا جميل ومفهوم، أقول في نفسي. لكن لماذا لا ألمح وسط هذا الحشد تلك «الحكاية الشخصية» التي تسند كل واحد وواحدة من هؤلاء الإخوان والأخوات وتجعل مسارهم مسارًا بشريًا يضمّ إلى جانب الصلابة الأيديولوجية هشاشةَ الروح والجسد؟

أعرفُهم أَمْ لا أعرفُهم؟

لا يكفي أن أُلملم خيوطًا ونُتَفًا مِنْ ما أعرفه أو أسمعه عن بعضهم لأرسم ملامح مناضلين ومنضوين إلى الحزب وهم يستقبلون عهدًا جديدًا. تَنْقصني تلك الحكايات الشخصية التي تنقل الأحكام والانطباعات من التعميم إلى مسالك الحميمية وقَعْر المرايا. مشروع مُؤجل وعليّ أن أكتفي بظواهر الأمور.

ومن ظواهر الأمور أن الأخ المعْتَصم جلس إلى جانبي مُبديًا

حفاوةً خاصة. وكنتُ قد سمعت أنه التحق بديوان أحد الإخوة الوزراء؛ وهو معروف بقدرته على التواصل السريع وتجميع الأخبار والعزف على النغمة السائدة على ألسنة قادة الحزب أو المشايعين لهم. لكنه إلى جانب هذا الدور، لا يخلو من اجتهادات يريد أن يوحي، من ورائها، أنه ليس مجرد ناقل للأصداء. وكنت أستمع إليه بدون أن أحرص على إبداء رأيي في ما كان يتفوّهُ به.

فاجأني وهو يقول:

«ثم إنه لا يجُوزُ مُطلقًا لا يجُوز، أن نبيع القرد ونضحك على من اشتراه. قيل إن حكومة التناوب دخلت في القَالَب المخزني. أي قَالب وأي مَخزن؟ نحن دولة لها دستور، والسُّلط واضحة، محدَّدة؛ ثم إن التحجُّجَ بالشَّكليات لا يخدم مصلحةَ البلاد، وبُوسَة اليَد لها علاقة بخصوصيتنا الموروثة التي تضفي رَوْنقًا على طقوسنا. هل تُوافقني أيها الأخ العزيز؟

ـ أحتاج إلى وقت لأفكر في الملاحظات اللوْذَعيَّة.

ـ ثم إنه لا يجوز قراءة الصحف الصفراء وما تنشره من أكاذيب عن بيت فخم اشتراه سفير مغربي ثم أعاد بيعه بمبلغ يفوق كثيرًا ثمن الشراء ووضع الفرق في مكان مجهول. هذا اختلاق أليس كذلك؟

قلت: لعلك لم تقرأ ترجمةَ ما نشرتْه صحيفة أمريكية شهيرة في الموضوع وهي تؤكد ما ذهبت إليه صحفنا الصفراء.

ـ لا يجوز. لا يجوز مطلقًا أن نُصدّق الأجانب ونُكذّب المسؤولين

أبناء البلاد الذين أدّوا القسم عند استلام مهامهم. متى نتخلص من عُقدة الغرب؟

تمتمتُ: متى؟

تابع بنفس حماسه واندماجه في دور «النّاطق باسم...»: ما تنجزه الحكومة ستظهر نتائجه الباهرة بعدَ سنوات وسنوات. نحن لا نريد التغيير السطحي. وما يقال عن المفاجآت غير السارة التي تنتظرنا في انتخابات ۲۰۰۲ مجرد تخمينات واهية. وحتى إذا حصلت فسيكتُبُ التاريخ أننا جرُؤنا على أن نجعل التناوب واقعًا ملموسًا. ثم إنه لا يجوز أن ننسى وعي الجماهير.

قاطعته: قد يكون وعيها هو ما يدفعها إلى أن تعاقب المنظمات التي لم تعرف أن تجدّد نفسها حتى لا يستعملها المستفيدون «العابرون» إلى خيمة السلطة.

ـ هذا كلام متياسر لا يجوز أن تردّده أيها الأخ العزيز، أنت الذي أعرف عنك التأني في ما تكتب. لا يجوز مطلقًا أن نكون كوارثيينَ في توقعاتنا وتحليلاتنا. ثم إنه لا يجوز القول بأن هناك غموضًا في المشاورات والتعيينات، نحن واضحون وضوح هلال رمضان.

قاطعته: يا عزيزي المعتصم أنا لمْ أطرح عليك أسئلة ولستُ مغرمًا بالدخول في خصومات كلامية تتصل بمسائل أحِسني بعيدًا عنها.

ـ لا، لا يجوز أن تتفوّه بمثل هذا الكلام، لأن المثل يقول: «يدك منك ولو كانت مجذامة». وأنا أعرف أنك ممّن انضموا إلى حزبنا منذ ١٩٥٩ حين تخلّصنا...

...

ـ ولنفرض. هذا لا يمنع أن أتحفظ على قرارات لم أشارك فيها أو بالأحرى لم أكن أتوقع أن تتم بهذه الطريقة الفوقية التي تجمد أكثر من ثلثي مناضلي الحزب. نحن لا نلتزم في حزب من المهد إلى اللّحد. وما أقوله ليس اختلاقًا لأن الناس تتحدث عنه وهو جزء من هذه الفترة التي سيكون لها امتدادات وعواقب.

ـ هذا احتمال. لكن لا يَجُوزُ القولُ بأن الأغلبية لا تجد نفسها في ما تنجزه الحكومة الجديدة...

ـ يجوز أو لا يجوز سيّان عندي. أنا عشتُ وقائع وأحداثًا منذ ١٩٦٣، ولم أكتب عنها لأن منطق «لا يجوز القول بأن...» كان يُلجمنا. غير أن الأيام تؤكد أن ذيول ذلك المسكوت عنه ما تزال تعوق المحاسبة وتصفية الأخطاء القاتلة.

ـ اسمح لي مرة أخرى، أن أقول لك بأنه لا يجوز أن نُسربَ أسرارنا ومتاعبنا إلى نصّ روائيّ يُحوّل الواقعيّ إلى تخييل فتتضخم الوقائع.

ـ أنت الذي تضخم الأشياء. المسألة عندي أبسط من ما تتصور. أنا أعتبر كل الأحداث والسلوكات مادّة خامًا، متساوية القيمة، صالحة لأن تندرج في تشكيل النّص السردي. وما نعيشه هو مزيج من كل هذا ومن أشياء أخرى تَشْغَلُني وسَتُدركها إذا أتيح لك أن تقرأ هذه الرواية. أنا شبه متأكد من أن ما أكتبه لن يُشخص ما أتخيّله. وكل ما تستطيعه كلماتي هو أن تقرّبني من ذلك الذي أريد أن أقوله ويَنْفلت باستمرار لأنه لا يمتلك وجودًا واضحًا، مستقلاً. هو دائمًا مُنحشر وسط أدغال من الصور والمشاعر والأفكار المتنافرة، المتراكبة.

لم أرد أن أقول للمعتصم بأن ما أشاهده اليوم كنت أتوقعه منذ سنوات طويلة وأنا أعيش مشاهد من أزمة الحزب مُعْرِبةً عن نفسها بلا وسائط ولا استعارات. وبدأت أقتنع، مع الأيام، بأن ما سيحدث لن يكون بالضرورة كارثة، بل هو نوع من الحلّ تفرضه غريزةُ البقاء بعد أن يعجز الفاعلون عن التحكم في توجيه مسار العلائق. لم يكن المعتصم يحضر معنا تلك الاجتماعات الطويلة، المملّة، ولم يكن يستمع إلى تدخلات تُكرر وتعيد كلامًا أبعد ما يكون عن مقتضيات الوقت ومتطلبات تجديد الفعل والتحليل. ولم أكن أدرك سبب ذلك العَطَل الذي كان يجعلني أنظر إلى وجوه إخواني فأجدها أشبه بساعات توقفت عن الحركة رغم أن الظروف كانت مسعفة على قَلْب التربة وتوسيع الإشعاع. كنتُ أستسلم ساعات للتفكير في تلك الوضعية التي تُفْضي إلى شَلل غير مُبرَّر وإلى غياب للتواصل يتمثل في الاحتماء وراء حوارات جاهزة ووراء استحضار عبارات سالكة تُدين الحكم الفردي وَوُزراءَه الدُّمى..

الآن فقط، أقرأ وأسمع بعض قادة الحزب يقولون، من فوق كراسيهم، بأن سبب أزمة منظمتنا هو تَبرْجُزُنا. ليس هناك تحديد لمنْ يعود عليهم ضمير الجماعة، وليس هناك توصيف لهذا التبرجز ولا تعيين لبداياته. سبحان الله! هل ذلك التبرجُز قد نَزَل هكذا فجأة من سماء واطئة؟ أم إننا أغمضنا العين وفتحناها بين يوم وليلة فوجدنا أن كل شيء تغير وهو ما دفع مناضلي الأمس إلى الاستقالة أو التفرّج أو الاندماج السريع في طقوس السلطة وانشغالات الحكم؟ لماذا لم يقولوها من قبل؟ هل كان اعتلاء سدة الحكومة شرطًا ليدركوا أنّ سر

الأزمة المخيِّمة منذ سنوات، إنما هو كامنٌ في تَبَرْجُز كان مرتديًا طاقية الإخفاء؟ وهل هذه هي الكلمة الملائمة لتشخيص الدّاء؟

وقد يكون التبرجز هو الوصف الملائم لو افترضنا أن الحزب لم يَعُد يشتمل على العمال والفلاحين الصغار والفئات المتوسطة والمستضعَفة... وهم، مثل الأغلبية، يلهثون وراء لُقْمة العيش في فترة اشتعال الأثمنة وانفتاح السوق على الخَصْخَصَة. لو افترضنا أن الحزب أصبح يوجد بدون هذه الفئات، لأمكن عندئذ أن نتحدث عن فئات قيادية وإدارية تبرجزتْ. ليت القائد الحصيف تَمَهَّلَ قبل أن يُدليَ برأيه لتلك الصحيفة الدولية. ليْته استنجد بالناطق ذي اللسان الذَّرِب، لَكَانَ أفتى عليه بتصريح يقول: «.. إننا جزء من مجتمع تخترقه أزمة عالمية لا تُوفِّرُ أحدًا، غير أن النية معقودة لمجاوَزة جميع هذه المشكلات خلال المؤتمر المقبل!».

ثم هل المفروض أن يعيش المناضلون طوال حياتهم وهم على الحديدة لا يمتلكون بيوتًا وسيارات وملابس أنيقة؟ لعل التعبير غير مُوفق، لعله يخفي تشخيصًا آخر لا أحد يجرؤ، الآن، على الجَهْر به. الدقّة غير مهمّة، وعلى جميع المناضلين أن يقتنعوا بأن لُبَّ المعضلة هو التَّبرجز! والحلّ؟ العودة إلى صوفية النضال! حل سحري، من بُكره إن شاء الله.

استأذنتُ من المعتصم لأتحدّث مع إخوان آخرين أحسست أن عليّ أن أبادلهم كلمات تُطمئنهم وتشعرهم بأنهم رأس الحَرْبة في معركة طويلة تستدعي المثابرة والاستقرار وطول البال. كنت أستمع إليهم وهم يجهدون في أن تأتي حججهم وتحليلاتهم متماسكة،

ومعجم كلماتهم الجديد يتأرجح بين سجلات عديدة، لكنني لم أكن أملك أمام حماسهم سوى أن أهزّ رأسي موافقًا مُتمتمًا: طبعًا، طبعًا، لا شك. مفهوم...

تبقى نظراتهم وحركاتهم وابتساماتهم واتّزان النغمة: إنها تحمل دلالات يصعب عليّ أن أنفذ إلى ما وراءها خلال هذه السهرة التي تتدثر بغلائل زئبقية. هي تُؤشّر على مُتغيرات، وفي الآن نفسه تحرص على الإيهام بأن الإخوان داخل الحكومة أو خارجها هم دائمًا «ذاتٌ واحدة». وحتى تلك الثنائية التنظيمية التي طالما استوقفت الجميع وأضحت جزءًا من التعاقد غير المكتوب داخل الحزب، أصبحت اليوم تميل إلى التّلاشي إذْ لم تعد هناك ضرورة للحفاظ على الذين يُعَبِّئون ويواجهون السلطة، مُقابل الذين يقودون ويتفاوضون. نحن، الآن، بحاجة إلى كفاءات تُدبِّر المرافق العامة وتعتمد على الدراسات والإحصاءات لتُقنع بالأرقام الملموسة أفواج الناخبين وجيوب المستثمرين والسائحين. الأشياء واضحة غير اللي ما بْغَاش يفهم. هناك الثوابت التي يجب أن تظل موضع إجماع وهناك الاجتهادات التي تُبرر الاختلاف وتتيح للكفاءات أن تتفوّق. ما عدا ذلك وَهم وأحلام طفولة لا تتناسب مع سنّ الرُّشد. هناك ما يجوز وما لا يجوز.

أعرفهم أم لا أعرفهم؟ حتى هذا السؤال فَقَدَ دلالته في آخر السهرة.

حين ركبتُ إلى جانب «مصلح» ضغط على زرّ المذياع فانبعثت أغنية قديمة:

بين البارح واليوم ليلة يا ما احلاها
فيها الغرام مظلوم وعُمري ما حا انساها

ووجدتُه ينطلق في ضحكة قوية من الأعماق. بعد قليل قال لي: لا تُؤاخذني فقد كنتُ بحاجة إلى مثل هذه الضحكة.

طوال الطريق لم نقل شيئًا. كان الصمت يَشعُّ بإضاءات تتوهّج عبر مشاهد متداخلة بين ما رأيتُه تلك الليلة وما اختزَنَتْهُ الذاكرةُ منذ عقود. بين البارحة واليوم أشياء كثيرة تغيّرت خلسةً أو علانية وربما لَمْ ألتقطها في حينها. ومثل مناسبة هذا العشاء تبرزُ تضاريس تلتحفُ بالكتمان.

عندما أوصلني «مُصْلح» إلى باب العمارة التي أَسكن بها ضغط على يدي وهو يقول: دَعْنَا نراك. وكان صوتُه قد استعاد غلالة الكآبة التي جلَّلتْه في السنوات الأخيرة. أما أنا فقد خُيِّلَ إليّ أنّ هواجس الغُربة والوحدة بدأتْ تلفُّني من جديد.

(٣)

«أنْ نُضيءَ الحياةَ منْ جهةِ احتضارها»

أ. أرطو

«سيطول بك الانتظار، إذن، ولن يتغيّر شيء. أنا هنا داخل الوطن، أحسُّ أنني لن أستطيع بَعْد أن أنسجم مع الناس. ما منْ لغة مشتركة بيني وبينهم. لا أستطيع أن أؤجِّل حياتي إلى ما بعد. أهْوَنُ عليَّ أن أمتطي صَهْوَةَ الجنون أو أن أرتاد السجن، من أن أستمر هكذا أعيشُ بالتّقسيط كما تعملون...»

ف.ب

في «لعبة النّسيان»

أذكر أن زيارتي الثانية لـ: «ف.ب»، كانت عند أصيل أحد أيام يوليو. كنت وحدي هذه المرة. تسلّلتُ إلى العمارة وصعدت إلى الطابق الرابع ونَقَرتُ على الباب ثلاث نقرات متساوية..

في ردائها الأبيض والشريط البنفسجي يتخلّل شعرها عند وسط الرأس، كانت تبدو متنائية عن هذا العالم كأنها جزيرة وسط محيط صاخب. كأنها، وهي تُحدِّق، لا ترى ما هو مُلامِسٌ لبصرها.

كنتُ أُحس بصخب عارم يملأ جوانحي وأنا أستحضر كلّ ما يلاحقني من أسئلة مأزقية وألغاز تستعصي على الفهم واللغة طالما أرجأتُها بدعوى أنني ما أزال مشدودًا إلى الأشياء والناس، وَهُوَ ما يحول بيني وبين التفكير بجذرية في ما يسائلني... بينما هي، «ف.ب»، ومنذ اللقاء الأوّل، تبدُو قادرة على النفاذ إلى صلْب الكائنات وقادرة على أن تقول ما يمكن أن يُبدِّد قسطًا وافرًا من حيرتي. لكنها ترفض أن تغادر تلك الجزيرة التي تتحصّنُ داخلها عندما تُخاطبني مُفْضية إليّ بتأملاتها في شُحّ بالغ. أكثر منْ مرة حاولتُ اجتذابَها إلى اللجّة الصخّابة من الظواهر والأحداث فتظل متمسكة، من وراء ابتسامة تجلّلها ظلالُ سخرية خفيفة، بتلك النظرة التي تتخللها كلماتٌ لا

تخلو من التباس، معرضة عن التفاصيل حينًا، وساردة بعضها بتباعد وبرودة، حينًا آخر.

وهذه مسافة تُقلقني لأنها تُلغيني بشكل ما، رغم أن الحوار واللقاء يكهربان جوانحي ويُعيدانني إلى برهات الخُلوة ومُناجاة النفس بعيدًا عن كل الاعتبارات.

كنت قد تعودتُ على صمتها الذي كثيرًا ما يمتدُّ بين مقطع وآخر من حديثنا، فاكتفيتُ بالاستفسار عن صحتها، وأشارت هي إلى أن سنةً كاملة كادت تنقضي مُنذ زيارتي الأولى. بعد قليل أخبرتني أنها تنتظر زيارة خادمتها السابقة «الضّاوية» التي تَحوّل اسمُها إلى «أضواء». ابتسمتُ مستفسرًا، فقالت لي بأن حكايتها طريفة قد تُفيدُني في قصصي. الضاوية من أسرة فلاحية بسوق الأربعاء تشتغل عند العائلة منذ سبع سنوات. وعندما عادت «ف.ب» من باريس بعد طلاقها ومرضها، أصبحت الضاوية هي صلة الوصل بينها وبين العائلة بالطابق الثالث. هي التي تُنظف الغرفة وتأتي بالطعام وتحكي لها عن أخبار زوجة الأب وعن الإخوة والعمّات والخالات. أضافت:

«وجدتُ فيها مُسامرةً تبدّد سأمي عندما تشتدُّ وطأة الوحدة على نفسي. وهي، تعلّقتْ بي ولم تصدّق ما كانت عائلتي تُشيعُهُ عن حُمقي. كنتُ أستمع إليها وأستفسرها عن طفولتها وبلدتها وكأنني أتحدث إلى صديقة، وكانت تحكي لي عن أهلها وأجواء سوق الأربعاء بتلقائية وروح مرحة. وعندما أطلعتُها على بعض صوري التي أخذتُ لي أثناء إقامتي بباريس زاد تعلُّقُها بي وكانت تصيح مُنبهرة وهي تراني في تلك الصور مُرتديةً الفساتين والتّيورات والشّورتْ

والتَّبعات المختلفة الأشكال؛ وأحيانًا وأنا في حلبة الرقص. تنظر إليّ ثم تنظر إلى الصور وهي لا تكاد تُصدق أنّ الوديعة التي تجلس أمامها باهتةً، ساهيةً باستمرار، هي تلك العفريتة ذات النظرات المُقتَحِمة والأزياء الجسورة التي تبدو في الصور..

لم تُمضِ الضاوية أكثر من ثلاث سنوات بالمدرسة الابتدائية ثم أوْقفها أبوها عن التعليم وجعل يُشغِّلها في البيوتات ليستعين بأجرتها الضئيلة على مصاعب الجفاف وَسُوءِ معاملة الفلاّحين الكبار... وعندما جاءت إلى الدار البيضاء كانت تتخايل للمُراهَقة وبدأت تكتشف، بسذاجة، بعضَ أسرار الجنس والإغواءات الذكورية. أنتَ تعرف تلك العلاقة المرائية بين الخادمات البدويات والعائلات الكبرى: التّمسكن والخجل المصطنع مقابل الأوامر والتّعليقات الساخرة من مجموع أفراد العائلة. وسرعان ما ضاقت الضاوية بهذه المعاملة التي تحرمها من أنْ تعيش مُراهقتَها وتضطرها إلى التكتُّم واصطناع البراءة حتى عندما تستسلم للأحلام! وأنا كنت طبيعية في معاملتي لها. صحيح أنني وجدت نفسي لأول مرة أمام فتاة من غير طبقتي، غير مُتَعلِّمة إلا أنها تفيض حيوية وجمالاً، وتريد أن تقترب من تلك الأسرار التي تعطي للحياة نكهة وجاذبية. ثم إنني كنت بحاجة إلى مَنْ يُبعدني عن جحيمي الخاص. كُنّا نمضي ساعات في الحديث أستمع أنا إليها، وتُنصت باهتمام إلى ما أقوله لها. ولم يكن لديَّ حرصٌ على أن «أثقِّفها». نسيتُ تطلّعاتي إلى تغيير شروط المرأة المغربية وفْقَ تصورات وتحليلات متماسكة. وجدتُني أعيش التجربة من موقع آخر: أنا التي قرأتُ الكثير عن حركات تحرير المرأة في العالم، وحضرتُ تظاهرات ربيع ١٩٦٨ بالسوربون، وغامرتُ

بجسدي وروحي بحثًا عن مصير أكثر حرية، وهي الخادمة المحرومة من طفولتها، الخاضعة لإمْرَة أفراد العائلة ونَزَوَاتهم، التي يقول لها جسدُها وغريزتُها بأن في هذا الكون ما يستحق الحياة.. وجهًا لوجه كنتُ مع الضاوية ذات البَشرة الخمرية والجسد الملفوف في استدارات تَستهوي البصر. وعندما كانت تحكي لي عن البقّال الذي يغازلها ويقترح عليها أن يختلي بها في الرّدهة الموجودة داخل دكانه، كنتُ أكتفي بأن أنبهها إلى أن عليها أن تتأكد من أنه يحبها، ثم أستفسرها عما إذا كانت هي متعلقة به، فتكتفي بأن تقول لي بأنه يجذبها مثل كلّ الرجال.

تمضي أيام ثم تأتي الضاوية لتحدثني عن شاب متعلم، له شاربٌ كثٌّ ويملك مُوتُوسيكلاً ويجيد الغزَل. أنظر إليها مبتسمة فتضيف بأنه يريد أن يأخذها في جولة إلى «عين الذياب»، لكنها لا تستطيع أن تخرج في المساء. أفهم أنا قَصْدها وأعدُها بأن أكتب ورقة للعائلة أخبر بأنها ستُمضي الليلة معي. هكذا وجدتُني أسهّل لها خرجاتها المسائية للالتقاء بصديقها الذي سرعان ما استولى على حواسّها ومخيلتها. وكنت أشعر بتغيرات الضاوية من خلال ما كانت تنقُله إليّ سهراتها مع ذلك الصديق الذي توغّل في جسدها مثلما أثّر على فكرها. أصبحت لا تُطيق أوامر زوجة أبي وتتبرّمُ من حياتها كخادمة، بينما هناك مَنْ يركع عند جسدها الفتيّ ويُمْطِرها بالمديح والوعود.

وجاءت ذات يوم لتقول لي إنها ستتزوج من ذلك الشاب وأنها ستخبر وَالدَها. سألتها عن عمله فقالت بأنّه يشتغل مع السوّاح وأن ما يربحه كثير. أدركت أنها تُخفي عني حقيقة الأمر. أخذتُ أعاتبها

فارتمت عليَّ وأخذت تقبلني والدموع تملأ عينيها. ووعدتني بأنها ستأتي لزيارتي كل أسبوع وأنها ستخبرني بأشياء لم يتَّسع الوقت لإخباري بها. أعطيتها بعض فساتيني وتمنيتُ لها حياة أفضل.

مرَّ شهران قبل أن تأتي الضاوية لزيارتي. ووجدتها امرأة في حُلَّة جديدة: فستان يُظهر مفاتنها، ومساحيق تُبرز تناسق ملامحها، الشعر خارج للتوِّ من عند الحلاق، وهي واثقة من نفسها تُحدِّثني بلغة مختلفة. وفي ذلك اللقاء لم تُراوغ. أخبرتني أنّ زوجها الشاب أوْقعها في شرك الدعارة بعد أن أقنعها بأنها السبيل الوحيد ليعيشا في رفاهية ونعيم. وهي الآن تعيش في كَنَف قوَّادة محترمة لها فيلا يتردّد عليها كبارُ القوم والباحثون عن اللذة ليختاروا من بين البنات الوافدات على المبْغى السرّي من جميع أنحاء المغرب. هناك تلتقي بنات الشّاوية وبني عروس وبنات الغَرب وخْنيفرة والفاسيات والمراكشيات: كأنهن يُجسّدْن الوحدة الوطنية. تحكي وتضحك تنظر إليَّ فلا أبدي اعتراضًا على ما تحكيه. تسألني عن رأيي في تجربتها فأكتفي بالقول إن المهم هو أن تكون مرتاحة في مهنتها الجديدة. تعودتُ على زيارتها. أحسّ نوعًا من التواطؤ معها. أستمع إليها وهي تحكي لي عن نزوات الزبائن ودَلالهم. وعن بعض الغرائب التي تحصل لها معهم. وعن زميلاتها في المهنة وخُصوماتهن. وجدْتني أعيش من خلالها، بعض وقائع هذه المدينة التي أعيش فيها منزوية رافضة الانغمار في تفاصيلها اليومية...».

بعد فترة صمت قصيرة، سُمعت نقرات على الباب. أشارت «ف.ب» إلى أن الضاوية قد وصلت. كانت، فعلاً، جميلة ومثيرة للشهوة. جسد ضاجّ يختزن نكهةَ الحنْطة وفتنة سُهول الغرب،

وابتسامة تلقائية تهزم كلّ رَزانة أو تَعقّل. قالت «ف.ب» وهي تُمسك بذراع الضّاوية:

ـ ما رأيك في «أضواء» الجميلة؟

تملّصت الضاوية من يدها وهي تقول بخجل مصطنع:

ـ ويلي ويلي أمْعَلْمَتي، حشّمتني مع الأستاذ.

ولاحظت أن الكآبة غادرتْ ملامح «ف.ب» لِتَحلَّ محلّها تعابير المرح والاستئناس. قالت لها بعد قليل:

ـ الأستاذ ينتظرك لتحكي له عن بعض طرائف زُبنائك.

ردّت بنفس الخجل المصطنع: حشَّمْتني أمعلمتي.

ثم استأذنت في أن تُدخّن سيجارة وأخذت تحكي لنا عن مغامراتها مع «مسيو التهامي» الذي اختارها في الليلة الماضية لتسهر معه في شقّته الفخمة بشارع الجيش الملكي. رجل الله يعمرها دار، ظريف. (أخذت تضحك وتضع يدها على فمها) ثم تابعت: المهم، من بعد ما شربنا شي كويسات بدا تيقول لي: «ألالّة أضواء، الفلوس ما شي مهمين، نبغيك تعيشي معايا قَلْبًا وقالبًا (تنطق الكلمتين الأخيرتين مقلدةً اللهجة الفاسية لمسيو التهامي). أنا هَزّة من بطنك هي الدنيا وما فيها...». بعد ذلك طلب منها أن تنتظر لحظة ودخل إلى الحمام حيث خلع ملابسه وخرج عاريًا بكرشه المكوّرة وساقيه النحيفتين وجرى نحو الفراش مُرتميًا عليه وهو يصيح: ها أنا ألالّة أضواء زبيطة كيف خَلقتني أميْمتي. عملي يا ما بْغيتي».

سألناها: وماذا صنعت به؟

ـ هَزّيتُو، دَغْدَغْتُه، جَا هُوَ بقى يضحك وَيْفَرْكَل وعجبه الحال. ولما بَسْتُه قال: ذاك الشي اللي تتقولو الأغنية: قبلت خَدِّي فلا تبخلي على ما تحت سُرّتي!

في غمرة ضحكنا، وقفتْ «أضواء» مستأذنة وهي تطلب مني أن أهتم بلالَّة «ف.ب» لأنها معلمتها وأمها وصديقتها وأختها الغالية على نفسها. ثم نظرتْ نحو «ف.ب» كأنها تريد أن تقول لها بأنها الآن تعرف ذلك الفارس الذي كانت تُخفيه عنها!

كانت الضاوية جد طبيعية في حركاتها وتعليقاتها المرحة وكأنها فتاة تودِّع أبويْها لتذهب إلى موعد غرام، والأم قلقة بعض الشيء؛ لأنها لم تتعرف بعد على الشاب المحظوظ الذي اختارته ابنتها.

بعد مقطع الصمت المعتاد، استعاد وَجْهُ «ف.ب» سمْتَ الرزانة والوقار. قالت كأنها تُحدث نفسها:

ـ «أعيش حالةَ خوف من خلال «الضاوية». أخشى عليها من السجن، من اعتداء يُشوه ملامحها، من أنْ تستسلم للكحول والمخدِّرات. هي تُطمئنني وتُبدي ذكاءً في فَهْم الوسط الذي أصبحت تعيش فيه، لكنني أعرف أن المتحكمين فيه هم الأقوى ولهم قوانين تخضع للربح ولا تتردد في اسْتنْزاف حيوات اللاتي يَقَعْن في شِرَكهم؟ هل كان بإمكاني أن أمنعها من أن تسلك تلك الطريق؟ أنا ظننتُ أنني أساعدها على أن تعيش تجربة اكتشاف الحياة بنفسها. لست من النوع الذي يتبرع بإبْداء النصائح والتحذيرات. وما كان باستطاعتي أن أفشي سرّها لوالدي عندما تبينتُ أن الأمور أخذت مجرى منزلقاً. لا أظن

أننا نملك وسيلة لمنع التحولات الملتصقة بسيرورة الحياة. توجيهها صوب «الأفضل» مسألة أخرى، خاصة داخل هذه الجزر الاجتماعية المتفاوتة التي تعيش بسُرعات متباينة.

طبعًا، لم تكن هذه هي الصورة التي أتخيلها عن مشاركتي في تغيير أحوال النساء عندما كنت بباريس مُساهمة في الندوات وصياغة البيانات. الآن، أدرك أن التجربة ضرورية لكل واحدة، لكل واحد، لملامسة العنف الممتزج بالوجود، ولِتَعلّم التعبير عن الرفض وعن التطلّعات.

كنتُ أتكلم عن تحرير المرأة من خلال نماذج جاهزة، من خلال استعارات تمتصُّ بشاعةَ الحقائق وبؤس التفاصيل. لعلك تذكر صرخة أحد الصديقين في مسرحية «نتالي ساروت» «منْ أجل نعم، من أجل لا» وهو يقول ما معناه: «نتكلم عن السعادة من خلال الاستعارات، كفَى لجُوءًا إلى الاستعارة، أريد شيئًا ملموسًا. غير أنني أمام الملموس أبدو بدون بوصَلَة. ماذا نستطيع أن نفعل بالملموس لتبديد بؤس حقيقي، مُتجذِّر؟».

بعد صمت قصير، استأنفتْ:

«لا أُقِرُّ بأنني حققتُ تغييرًا قصديًّا في رحلتي الحياتية. كأنما سرتُ باتجاه أفق كان مرسومًا، منذ البدء، في ذاكرتي وحواسي وجسدي. لم أكن أعرف التفاصيل، إلاَّ أن طيَّ تلك المسافة من مساري التي تبدو لي الآن، طويلة، جعلني أدرك أن لا شيء تغيَّر وفْقَ ما كنت أؤمل وأحلم. الجديد، المفاجئ، هي لحظات العنف التي غيَّرت كياني وجعلَتْني أشعر بأنني مختلفة عن الأخريات والآخرين وأنا

أجري في باريس وراء حريتي. لم أكن معصوبة العينين. كان لي وَعْي ومنطق وحماس. لكن يبدو أن ذلك لا يكفي، فما الذي أحدث شرخًا غائرًا في الوجْدان والمشاعر؟ هل هي عودة المكبوت التي فَصَلَتْني عن الجذور المَوروثة لتُلقي بي وسط دوّامة مغامرة مفتوحة على المجهول؟ أم هو طيْف الواقع الذي تُواريه اندفاعةُ الطوبوية زَمنًا عن أعيننا، يَعُودُ لينتقم من غرارتنا في نهاية المطاف؟

أُحسُّني، أحْيانًا، في منتهى النشوة والرَّوْق وأنا أتماهى مع ما حولي: السطح المكلّس بجير ناصع البياض، تينُ الصبّار على قارعة الطريق يرشّه البائع بالمَاء، القطّ المزركش بجوار نافذتي يتطلع إلى ديك يغْبّر الإفريز مختالاً، وهَبّات الريح حاملة رائحة الحديد الهالك، الصَّدئ، وأصوات الباعة والأطفال والكْلاكْسَات. أنغمر في كثافة هذا اليوميّ المشْبع فلا أعود أتذكّر ما عَدَاهُ».

تعود «ف.ب» إلى صمتها وأُتابع أنا الإنصات إلى ما يضجُّ في أعماقي غير مُصدّق ما أراه وما أسمعه. إنها غير غريبة عني لكنني أتطلع إلى أن أعرف عنها أكثر. وفي نفس الوقت لا أجسر على أن أطرح عليها أسئلة مُحدّدة.

عندما استأنفتْ كلامها، بدا لي أنها تريد أن تحكي أكثر عن جوانب أخرى من حياتها. كان تساؤلها مُعلنًا عن ذلك:

كيف أستمر مقتنعة بتصوراتي وأفكاري وسط محيط يُعْدم الطموحات؟

ذلك هو السؤال الذي كان يواجهني كلما قطعتُ شوطا من مساري. كان تجريب الحالات القُصْوَى وَسيلةً من وسائلي لأنه

مرتبط بمغامرة الحرية. وكان النضال وسيلة أخرى لأن التغيير يقتضي مدّ الجسور وخلق مُناخ مُغاير. لكن الوسيلتين معًا لهما سَقْفٌ وحدود. تبقى الكتابة التي تُعطينا، ربما، وَهْمَ الانعتاق ولا مُتناهية التحقق. إلاّ أنني اكتشفتُ قدرتها متأخرة. وعندما حاولتُ كانت الدُودة قد توغّلت في الخلايا لتعطلها. لعل ذلك هو ما حبّبَ إليّ أن أحادثك، أن أحكي لك وأن أستمع إليك بدون هدف مُنتظَر. لديّ وَهْمٌ، بعد قراءة «لعبة النسيان» أن هناك مَنْ يستطيع أن يساكنني في فضاءاتي وأنني لستُ واحدة لا ثانيَ لها، كما كنتُ أعتبر نفسي إلى بداية الثمانينيات. وقد تستغرب من قصة زواجي في مطلع ١٩٨٠. فعندما التقيتُ «جليل» الذي كان يُنهي تخصصه الطبي، كنت مُتْعَبة مُعْرضة عن الحياة التي عشتها من قبل. قد أقول بأنني لم أعد أحبّ نفسي. كانت الأشياء الكثيرة التي عشتها تبدو مختلطة تُكوّن ما يُشبه غلالة حاجبة للرؤية. ووجدتُ عند «جليل» استقرارًا داخليًا فوجئتُ به. كأنه، في تفكيره وتصرفاته سيعيش ألف سنة. كان من بيئة مغايرة لبيئتي؛ لأنّ أسرته من «الراشدية» وأبوه تزوج من ثلاث نساء وأنجب صبيةً وصبايا عديدين، ولعلي فتنتهُ بجُرأتي وتطلّعي الدائم إلى أشياء غير قائمة في واقع الحال. كنت قد جاوزت مرحلة المغامرات العابرة، وكان هو أيضًا يبحثُ عن الاستقرار. وولدتْ علاقتنا منطقةً مشتركة تقدم على توازنات بين الأضداد وعلى عاطفة مشبوبة رغم كل شيء. عندما عرض عليّ الزواج والعيش معه في مسقط رأسه «الراشدية» ببيت عائلته الكبير، انجذبتُ إلى التجربة وإلى تلك الفضاءات التي أجهل طقوسها وسُننها. الأهم هو أنّ «جليل» متعلق بي وأنني في حاجة إلى اختبار قُدرتي على العيش

وَسطَ مُجْتَمعي. خلال سنة من الحياة الزوجية، تقلّص رصيدي من الحب والرغبة في الاكتشاف والقدرة على التعايش مع أهل زوجي في تلك الدار الكبيرة الضّاجّة بالصبية والصبيان والزوجات والعمّات والخالات والأخوال. بقَدْرِ ما كنتُ أتقوقع وأنطوي على نفسي، بقدر ما كان «جليل» يتمازَج معَ عائلته ويَتَناغَم مع محيطه: يتردَّد على السوق الأسبوعية كل خميس، يحضر في الأفراح والمناسبات التي يُسْتَدعَى إليها، يحرص على صلاة الجمعة، يشارك في سهرات نادي القضاة والمحامين. كنتُ أعرف أن وضعه كطبيب له عيادة خاصة يقتضي مُسايرَة المواضعات، إلاّ أنني تبيَّنتُ مع الأيام، أنه سعيد في أعماقه بذلك التناغم الاجتماعي الذي لَمْ يَعُدْ يترك له وقتًا لنفسه أو لزوجته الباحثة عن صيغة ملائمة للحياة في وسط جديد. كان يكتفي بأن يَحُضّني على أن أندمج بالعائلة وبالناس، وبأن أَنْخَرِطَ في مشروع يتيح للآخرين أن يفيدوا من ثقافتي. وفي كل مرّة يُلمح إلى الإنجاب؛ كأن الدكتور جليل لَيس هو ذلك الذي عاش سبع سنوات بباريس. تلك مرحلة قد انطوتْ وما يحفزه هو الانغراس أعمق فأعمق وسط بيئته وبلدته. لكنني، أنا، كنتُ أواجه ذاكرتي التي تستيقظ. كانت تَتَثالُ عليَّ المشاهد التي انطبعت في المخيلة، والصفحات والأفكار العالقة بالذهن، وتطريزات الفضاءات التي حلمتُ بها. أَدركْتُ أنني لا أستطيع أن أتحوّل إلى امرأة تعيش كالخُلْد: تَحْفر جُحْرَها وتنكفئ على تَغَلُّبِها. الحياة، كما ترسَّبت صورتها عندي، مقترنة دومًا بالحركة الجذّابة والاستكشاف اللاّينتهي والألاء المُغْشي للبصر.

وبعد ليالٍ من العذاب والحوار، أَقْنَعْتُ د. «جليل» بأن نفترق لأن

أشياء كثيرة تَحُولُ دون أن نعيش متكاملين، خاصة وأنني أصبحت نشازا وسط عائلته الكبيرة التي كان هو مرتبطًا بها حدَّ الذَّوبان.

عدتُ إلى باريس. لكن، قبل ذلك مررت بالرباط وقابلت الهادي وتحدثنا كثيرًا دون أن أخبره عن تجربة زواجي التي استمرّتْ سنة ونصف. ألهذا السبب لم تُشر إليها في روايتك؟ (اكتفيتُ بالابتسام وتحريك رأسي وأصبعي؛ لأنْفي ما تقول). في تلك الزيارة، كان الهادي يبدو بدون حماس، كثير التساؤلات، يسْهُو ويتنهّد ويستمع أكثر ممّا يتكلم. كان نوع من الحنان الدافئ ينبعث من كلماته ونظراته إليّ، ولم يكن يريد أن يتظاهر بشيء. كأننا كُنّا نُحافظ على نَصاعة تلك المغامرة التي عشناها في نهاية الستينيات. قال إنه يريد أن يراني مرة أخرى فاعتذرت لأنني مضطرة إلى العودة إلى باريس بأسرع ما يمكن وأنني سأخبره بزيارتي المقبلة إلى الرباط.

هل هو النسيان الذي يُسعفنا على أنْ نَقيسَ التبدُّلات الطارئة على النفس، وعلى أن نلتقط الإشارات قبل أن تُعرِب عن نفسها بالكلمات؟

في باريس، انتابتني حالات سأم وفسولة ونُفور من الفضاءات التي عشتُ فيها مزْهوّة متألقة، «خفيفة الفَخذيْن» كما يقول الفرنسيون... مُعْظَمُ الذين عرفتهم رحلوا. والفَرنسيون ينسجون وَهْمَ التَّغيير من خلال خطابات ووُعود الزعيم الاشتراكي الذي حمل وردةً حمراء واتَّجه صوْب بوابة البانتيون بابتسامته الماكرة وخَلْفَه قلوب الملايين. لم يَعُدْ هناك مكان يسعُني. حلقات انفصمتْ داخلي ولا شيء يُوقظ الشَّهوة في جسدي أوْ يسْتثير عقلي. تفكّكت روابطي بما حولي.

أثقلت الوحدةُ أرجاءَ نفسي. كنتُ أسير ساعات مديدة على قدميّ متنقلة بين ضفاف «السين» وعبر الشوارع الواسعة والضيقة، وداخل الحدائق؛ لكن عتمة متكاثفة تُظَلِّل كياني يومًا بعد يوم. زرتُ طبيبًا نفسانيًّا أمدَّني بالأدوية والحبوب المهدئة، إلاّ أنني كنتُ أحس أنني أتوغل في سراديب لا مَنْفَذَ لها. انْتَابَنِي الخوف ولم أعُدْ أملك قدرة على المقاومة.

استبدت بي فكرة الاختلاء بنفسي والبحث عن ذلك العطب المفاجئ الذي حوَّلني إلى جثة تطفو فوق أديم الحياة. الخلوة، الاختلاء، خُلوُّ البال، الانعزال؛ كلها كلمات كانت تحاصرني وأنا أسعى إلى أن أستعيد شريطَ ما عشتُه متباعدة عن الأحداث لأتمكن من أن أعزل تلك السنوات والأيام واللحظات الحافلة، الضَّاجة، من سيرورة الحركة وهمومها المستمرة. من ثم سعيتُ إلى الحصول على شهادة طبية تبيح لي الحصول على سرير بمستشفى للأمراض العصبية والعقلية. لم أكن أؤمن «بشِفَائهم» لكنني تظاهرت بالأعراض التي تُبرِّر بقائي بالمستشفى.

أمضيتُ أيامًا وليالي مسهَّدة، مُلاحِقةً الصُّور واللَّقطات التي كانت تَتْثَالُ على مخيلتي حاملة فصولاً ولحظات مثيرة من حياتي. ووجدتُني في متاهات متشابكة زادت من حيرتي وعذابي. غير أنني كنتُ أفْضَل من حالتي وأنا أعيش مع الآخرين مُضطرةً إلى التعاطي المعتاد معهم.

بدأ المبلغ السخي الذي أمدَّني به الدكتور «جليل» عند طلاقنا، يتضاءل بسرعة. عندئذ اضطررت إلى أن أخبر والدي بحالتي المرضية

ليهيئ لي إقامة بالبيضاء تتيح لي الابْتعاد عن الأسرة والأهل لأخلد إلى التأمل والنسيان.

حضرَ أبي إلى باريس مفزوعًا تنبعث اللَّوعة من عينيْه. وجدت فيه ذلك الأب المتفهم الذي كانَه قبل أن تموت أمي ويتزوج من امرأة فَشَّارة، مُحْدَثَة نعمة، مُتصابية. لم يصدق المسكين ما حدث لي، هو الذي كان يعتزُّ بنَبَاهَتِي وتفوُّقي في الدراسة ويتفاخر بين أصدقائه بأنني أعيش مندمجة في الأوساط الثقافية الباريسية. عندما وصل إلى المستشفى، غمرني بقُبلاته مثلما كان يفعل وأنا صبية، وأمْسَكَ بيدي طوال حديثي إليه. كنتُ أحاول أن أشرح له رحلتي المُتعرِّجة وما آلتْ إليه من إحباط، وهو لا يكفُّ عن ترديد نفس الجملة بكلمات مختلفة: «بِنْتِي العزيزة ما تخلقشي في الدنيا اللّي يخَسَّرْ لها خاطرها. اللّي بغيتيه نعملو...». أقنعني بالعودة إلى بَيْتنا بساحة قُردان لأقيم في هذه المغْرِبة الموجودة بنفس العمارة التي تسكنها العائلة. لا أحد يزورني سوى الخادمة، وهو يمرُّ عليَّ من حين إلى آخر ليطمئن على حالي.

في الأشهر الأولى من عودتي، سرعان ما ألِفت الاعتزال والعُزلة. أرغمتُ نفسي على أن أنظر إلى الدنيا من مسافة تُسوِّي بين الأشياء والمشاعر. ظننتُ أنني سأصل إلى فَهْم مصدر الرجَّة التي خلخلتْ كياني. لكنني اكتشفت، تدريجًا أن "التحول" إلى كائن مُتعالٍ، غير مُنْفَعِل، هو ما يتيح لي الخروج من هَوْجَة الأسئلة المحمومة ويُبْعدني عَن الأوهام التي سَكنتْني منذ مطلع الشباب.

لستُ متأكدة أنَّ هذا التحوّل قد تمَّ؛ إنه يتخايل لي في كل آن،

وأنا أتطلع إليه ولا أعتبره مُتحققاً بكيفية نهائية. هو مختلف عن تحولات الصوفيين. لعله أقرب إلى ما تحدّث عنه «إلياس كانيتي» عندما كتب عن «مِهْنة الشعراء» أي ضرورة أن يحرصوا على أن تَظَلَّ جميع المنافذ والمسالك مفتوحة بين الكائنات حتى يتمكنوا من أن يصيروا أيَّ أحد آخر: الأكثر تَفَاهَةً، الأكثر سذاجةً، بل وحتى الأضعف من بين جميع المخلوقات. أظن أن كانيتي مُحقٌّ عندما يقول بأن الرغبة في إقامة تجربة مع الغَيْر، لا تستقيم إلاّ عندما تنبع من الداخل بدون أن تتقيَّد بنوايا النجاح أو المصداقية، وبذلك تكون حقّاً شَغَفاً في حد ذاته: شَغَفنا بالتحوُّل. لستُ شاعرة لأطمح إلى هذا الأفق، لكنني لا أكُفُّ عن المجيء إليه عبر مسار حياتي الذي سَرَدْت عليك بعض محطاته.

بعد سنة من العزلة والانقطاع عن العالم وأخباره، بدأتُ أتفتح على «الضاوية» بدون غَرَض ولا حسابات، وفوجئت بأنها مقتنعة، رغم ظروفها الصعبة، بأن الحياة تستحق أن تعاش حتى عندما تخلو من هدف نَرْتَجيه ونسعى إليه. «الضاوية» رحلت لتواجه مصيرها وأنا الآن، مع خادمة متقدمة في السن لم تَحْكِ لي بَعْدُ قصتها.

لا أحس أنني «شُفيتُ» من ذلك الشَّلل الداخلي الذي جعلني أعرض عـن استئناف التجربة بما هي عليـه. العطب عميق، قائما ما يزال. لكنني أتلمس كُوى صغيرة من خلالها أتحمل ما تبقَّى لي من إقامة في هذه الدنيا.

تذكرتُ صديقتي «حليمة» التي عاشرتُها سنوات مديدة بباريس وعشنا معًا مغامرات النضال والجسد والمعرفة. آخر مرّة التقيتها في

باريس عندما كنت أستعد للعودة مع زوجي «جليل». كانت هي قد أنجبت طفلاً مع مثقف عشقته ورفضت أن يتمّ الزواج بينهما، وكانت ما تزال تعتقد بأن انخراطها في حركة «المواقفين» الرافضين لمجتمع الفُرْجة واستلاباته المتناسلة، سيُعجِّل بإشعال نيران الثورة في كل مكان. اشتقتُ إليها وأنا في عزلتي، فالتمستُ من أبي أن يطلب منها أن تزورني. كانت قد عادت إلى الدار البيضاء والتحقت بالجامعة، لكنها لم تستطع هي الأخرى أن تتآلف مع ما حولها. سكنتْ وحدها مع طفلها وتوتّرت علاقاتها مع الأسرة وتعذّر التفاهم مع زملائها في الكلية. تعيش حالات اكتئاب عُصابي تبلغ أحيانا حدّة عُدوانية لا تطاق. حينما تزورني وهي على تلك الحال، أجدُها شخصًا آخر، إلاّ أنني أتحمّل كلماتها الجارحة لأنني أعرف أنها تُحبني، مثلما أحبها؛ فهي جزء من تلك التجربة المتميزة التي عشناها بباريس رغم اختلاف طريقينا... لكن النتيجة لا تختلف كثيرًا، فها نحن معًا داخل عنق الزُجاجة أمام واقع يرفضنا مثلما أننا نُكابرُ في قبوله. ربما أغبطها أحيانًا لأنها ما تزال تمتلك ذخيرة من التّمرد والإصرار على مواجهة الناس والجَهْر بالانتقاد. أظن أن تَعلّقها بابنها وتجربتها السياسية هما اللذان يجعلانها تُتابع الرحلة ولا تنسحب تمامًا، مثلما فعلتُ. حكَتْ لي مشاهد مؤلمة من حياتها هنا. أخذَ الكثيرون من أصدقائها وصديقاتها يتجنّبونها، بل وحتى من بين أفراد أسرتها، وهي مُصرّة على أن تقنع الجميع بأن جنونها شيء طبيعي ونتيجة منتظرة لما عاشته. ولذلك تتشبّثُ بالحياة وسط الناس رغم نظرتهم إليها.

خلال بعض زياراتها، عندما يلفُّها الاكتئاب، تظل صامتة، ساهية لبضع ساعات فأبادر إلى وضع شريط من الموسيقى الكلاسكية

لنستسلم معًا إلى الصمت والدموع. لكنها سرعان ما تستعيد حيويتها فتعود لمواساتي محاولةً أن تمدَّ لي جسورًا تُخرجني من عزلتي. هي التي أغرتني بقراءة «لعبة النسيان» فَظَنَنْتُ أنكَ الهادي الذي عرفته فترة قصيرة بالرباط، وأنك آثرت انتحال اسم آخر تَنْشُرُ به رواياتك. لكنني أرى الآن أنك لستَ الهَادي الذي عرفتُ، وأنت تنْفي التقاءك بشخص يحمل هذا الاسم وتقول إنَّ ما حكَيْتَه عن «ف.ب» هو ثمرة المخيِّلة، ممكن. ليس لي ما أثبت به العكس، وليس لي إلاَّ أنْ أصدِّقك. مَنْ يدري؟ فقد تكتب عن زيارتك لي هذه، وتقول إنها أيضًا من ومضات الخيال! لا أهمية لذلك. المهمُّ هو أنْ تكتب.

الآن، لا أريدك أن تكتفي بالاستماع إليَّ أنا أتطلع إلى أن أُطلّ على العالم من خلالك. مضتْ سنة، تقريبًا، على زيارتك الأولى. ما الذي يمكن أن تحكيه لي؟

فاجأني سؤالها. قلت وأنا أبحث عن كلماتي:

ـ ليست كلمة حكيٍ هي ما يناسب هنا، رغم أنني سألجأ إلى السرد. ذلك أنني أجدني في وضع خاص معك: فقد عَثَرْت على بعض من ملامحك في إحدى شخصيات نَصٍّ كتبتُه منذ خمسة عشر عامًا، وأنا لم يسبق أن قابلتك وأجدك أكثر حضورًا من تلك التي تَخَيَّلْتُها لأن لك امتدادات في ما حولي الآن، ولك نظرة مختلفة عن نظرتي إلى الأشياء. لكنني مُفتتنٌ بشخصيتك المفاجأة إذ تُذكرينني بشيء دفين بأعماقي لم تُطاولهُ الكلمات. في هذه الحال، هل أحكي أم أتعقَّب صدى ما عشتُه عندَ امرأة جُبلتْ من النسيان كما تقولين؟

ـ سيَّان.

«بعد زيارتك في العام الماضي، تابعتُ كتابة نصّ روائي استوحيتُ عناصره وأجواءه من واقعة اجتماعية نشرت الصحف في الثمانينيات ملخصات مقتضبة عنها. وعندما قرأتُ عبارات من تصريحات الشاب المتّهم برئاسة العصابة وجدت أن «بن عريش»، وهذا اسمُه، لا يمكن أن يكون مجرد مجرم منحرف. مَا نَقَلَتْهُ الصحف هو أن «بن عريش» وأصحابه استقروا بالمغارة الشهيرة في مدينة «تازة»، وأخذوا يتربصون بالرجال والنساء الذين يأتون إلى المغارة ليتناكحوا داخل السيارات أوْ فوق بُسُط يفرشونها على الأرض. وفي اللحظة المناسبة يحيطون بالمُختلين داخل أدغال المغارة وأحراشها شاهرين السلاح الأبيض ثم يأخذون لهم صورًا وَهُمْ عراة ويضعون وُشومًا وعلامات على مناطق من أجسادهم وينتزعون البطاقات الوطنية مطالبين بالإتاوة التي يجب أن تُسَلَّمَ في وقت لاحق بأحد أركان المغارة. ويظهر أن القسط الوافر من هؤلاء الزبائن كان من بين شخصيات اجتماعية مرموقة تأتي لتختلي بالعشيقات أوْ بنساء عابرات. ودامت المصيدة عدة أشهر، لأنَّ أحدًا من تلك الشخصيات (مقاولون، عسكريون، محامون، تجار...) لم يجرؤ على الإبلاغ عن العصابة خوفًا من أن يتعرّض للفضيحة، خاصة وأن الوشم مُثبت على جلْده. ويظهر أن عسكريًا نافذًا لم يَرْضَ بالإهانة ووقاحة الشبّان، فَتَولّى القبض عليهم وتدبير المحاكمة في شروط تَحْفَظُ ماء الوجه والحجْر. مع ذلك، قال «بن عريش» يوم المحاكمة إن ما فعله مع أصحابه يرمي إلى الانتقام من الوُجهاء ومُدّعي الفضيلة الذين يستأثرون بكل شيء ولا يتركون للشباب إمكانات للعيش والمتعة.. وأشارت الجريدة التي أوردت محضرًا مقتضبا عن المحاكمة إلى أن الرقابة لا تسمح بنشر بقية ما

جاء في تصريحات «ابن عريش». وعندما بدأتُ أكتب، كنت أرسم ملاحقات العصابة ومَشاهدَ وَشْم أجساد الزُّناة على أنها فعل مَنْدُوس يريد أن يتحدى مجتمع السادةَ الأفاضل الذين يحكمون من وراء حجاب ويتظاهرون بأنهم يحترمون التقاليد وتعاليم الدين...

كنت أسير باتجاه التأويل الثَّوري لتلك الواقعة، خاصة وأن الأزمة كانت في أَوْجها ولا صوت يعلو على صَوْت الحاكمين المتصرفين في البلاد وَخيراتها وكأنها ضيعة مُسْتَباحَة. لكنني عندما زرتك في السنة الفارطة وفوجئت بالتطابق والاختلاف المحتمليْن بينَ شخصية من لحم ودم وبين شخصية يُبْدعُها الخيال، توقفتُ عن الكتابة واستقرّ رأيي على أن أسعى إلى لقاء «ابن عريش» في السجن لأجمع بين الحقيقة والتخييل.

ليتني لم أفعل، فقد تبدّد مشروع الرواية بعد لقائه. ورغم أن المحامي الذي رافع عنه والذي سهل لي زيارته، حذرني من أن «ابن عريش» صَلْبٌ، ممتلئ بالمرارة رافض جذريًّا للمجتمع، فإنني أصررتُ على أن ألتقي به. كنت أنتظر أنا والمحامي بغرفة صغيرة داخل السجن عندما دخل «ابن عريش» بقامته المتوسطة وشعره الأسود المجعد المخلَّل بشعرات بيضاء، نظراته حادَّة وتعبير وجهه يشي بالكبرياء والوثوق بالنفس. سلم عليه المحامي وقدّمني إليه ممتدحًا كتاباتي فظلَّ هو ينظر إليَّ من غير اكتراث ثم استأذن المحامي ليتركنا نتحدث. كنت أعرف أنه أمضى ستَّ عشرة سنة في السجن وعليه أن يكمل أربع سنوات أخرى. أَشْعَلَ سيجارة وظلَّ صامتًا وهو ينظر من خلال نافذة تُطلُّ على باحة السجن. شعرتُ بالاضطراب ا...

بالأحرى أدركتُ الوضع المضحك الذي أُوجَدُ فيه. مع ذلك صمّمتُ على أن أستدرجه إلى الحديث:

ـ أودّ أن أعرف لماذا لجأت أنت وأصحابك إلى مباغتة الباحثين عن المتعة في خلواتهم؟ ولماذا استعملتم العنف؟

صدرتْ عنه ابتسامة سخرية وظلّ ينظر إليّ بدون أن يُجيب. بعد قليل قال بخشونة:

ـ وماذا يهمك أنت من قصة المغارة بعد كل هذه السنين؟

ـ أنا أريد أن أعرف المزيد حتى أكون قريبًا من الحقيقة في ما سأكتبه. لديَّ انطباع بأن الناس لم يطّلعوا على تفاصيل الفضائح التي لَحِقَتْ عائلات تعتبر محترمة في «تازة». لقد أخبرني المحامي بأن تعاليم صدرتْ للتستر على أسماء الزوجات والأزواج المصونين، ولذلك أريد في ما سأكتبه أن أُعير قلمي لِمَنْ حُرِمُوا من إسماع صوتهم وتبرير أفعالهم..

ـ كل هذا الكلام لا يهمني الآن؛ ولا أظن أنه يهمُّ أصحابي. ماذا فعلتم (كيف أسميكم أنتم جميعًا؟) حينما كنا نُحاكَمُ منذ ست عشرة سنة؟ هل فكرتم في مساعدتنا آنئذ لنقول ما كان يملأ النفس من غضب ويدفعنا إلى اليأس والعُنْف؟ هل فكرتم في تلك العصابة كما أسْمَتْنا الصحافة، وفي وضعيتنا المزرية وكيف كنا نعيش منسيين من الجميع متروكين لحساب الشيطان؟ الآن أَخْطُر على بالك لتنسج مني شخصية روائية موجودة في الواقع وتطرز حواشيها بالتواشي وبضفائر الصَّنْعة والسرد والحوارات الصادرة توًا منَ ردهات السجن... خير

وسلام! قد تَعْثُرُ في مناماتك على ما يُسلّي قرّاءك بطريقة أفضل. ألا تحس خللاً في موقفك أيها الكاتب؟

لماذا تريد أن تتقهقر إلى الوراء؟ افتح عينك على ما يجري الآن لتُدْرِكَ حجم العنف الذي هو عنصر جوهري في الحفاظ على توازن مجتمعكم الذي تُصَدِّعُنا الخطبُ ووسائط الإعلام بأنه ينعم بالأصالة والاعتدال وإسعاف المحتاجين. ألم تسمع عن تلك الحادثة التي وقعت منذ سنة قُرب سوق مرجان الكبير بين الرباط وسلا؟ تلك المرأة العصرية التي أوقفت سيارتها تحت الأشجار ودخلتْ للتبضُّع، وعندما عادت وجدت أن دُولابَ سيارتها مَفْشُوش وشاب أنيق يتحدث الفرنسية ينتظرها ويعرضُ عليها أن يُغيِّر الدولاب. وعندما انتهى التمس منها أن توصله إلى وسط المدينة فابتسمت مُرحبة؛ وعلى الطريق أخرج سكينهُ الحادة وأرغمها على تحويل الاتجاه نحو غابة معمورة حيث اغتصبها ثم فقأ عينيها حتى لا تتعرّف عليه! لا تَقُلْ لي: هذا عنف «مُسْتَوْرَد» من الأفلام والمسلسلات الأميركية؛ بل هو عنف نابتٌ من هذه التربة التي نعيش فوقها، تسقيه قسْمَة ضيزَى فرضها الحكّام وتشبَّثَ بها المستفيدون... والآن تَدعُون إلى الأخلاق والتخليق لمواجهة عواقب العنف التي بدأت تَفُوق تلك التي خلّفها العنف السياسي. ألَسْتُم تبيعون القِرْدَ وتضحكون على مَنْ اشتراه!

وجدتُني فعلاً، في مأزق والكلمات التي هيأتُها لإقناعه لم تَعُدْ ذات ثِقَل. قلت في محاولة أخيرة:

ـ أريد أن أقول لك بأن الكتابة كما أفهمُها، لا يمكن أن تكون إلا

بجانب المقهورين. أنا من خلالك أريد أن أستعيد لحظات الشّعَر التي جسّدَتْها تجربتكم أمام التّفاوت والظلم والتّهميش.

- هذا كلام لتَرْويج بضاعتك وكذبة مكشوفة لأنك تكتب في مجتمع ثلثاه من الأميين.

- هذه ليست حالة دائمة. ألا تريد لمجتمعك أن يرتقي ويتغيّر نحو الأفضل؟

- في أي شيء يهمني خير هذا المجتمع؟ أمضيتُ زهرة شبابي في السجن. اكتشفتُ هنا بؤس الآلاف الذين يعيشون كالحشرات. قانون العنف والمال هو السائد أيضًا في السّجن كيف تريد أن يكون لي منطق آخر. نحن في موقعيْن مختلفين. سَعْيك مشكور، لكنني لا أنتظر مساعدة من أحد، وأقل من ذلك عندما يتعلّق الأمر برواية تشحذ الوعي كما تقول. شْحال قَدّكْ من استغفر الله ألبايتْ بلَا عشا؟ أنا وأصحابي نفكر بطريقة أخرى لننتقم للظلم والحيف اللذين عُوقبنا بهما. نحن نهيئ لما بعد خروجنا من السجن. هذا هو الأهمّ. تعرف أن أبواب الأمل والرّزق مُوصَدَةٌ في وجوهنا، ومحكوم علينا أن نعيش وسط غابات تُزيّن مَدَاخلها القوانينُ والتعاليم السماوية وشعارات التوافق والوئام، إلاّ أن طقوسها تتستّر على مَنْ يفترسون ويمتصون العظام قبل أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم. سنحاول أن نتجنّب الوقائع الرومانسية والفضائحية مثل تلك التي أنجزناها في المغارة لأننا لا نريد أن نَقَعَ مِنْ جديد في قبضة البوليس، وأيضا لأننا صرنا نعرف أكثر، داخل السجن، ما هو الواقع، وما هي مسالك السلطة والعدالة وخفاياها. ادْعُ لَنَا بالتوفيق أيها الكاتب الشّهم. وأنت، اللّه

يسهل عليك الصحف رَاهَا عامرة بالجرائم والغرائب والفضايح، ما تختَاجش تسوّل الفاعلين والضحايا، أنتَ فيك البركة. لكن ما تْعَوّلْش عليا نقْرَا لك. إيلا كتبت شيء رواية بوليسية فاعلة تاركة، أنا معاك...».

لا أخفيك، يا عزيزتي «ف.ب»، أن ذلك اللقاء مع «ابن عريش» عطّل مشروع روايتي، بل صَرَفني عن الكتابة لعدّة شهور. وجدتُه شخصًا حقيقيًا فيما الآخرون يبْدُونَ لي أناسًا هُلاميِّين من قَشٍّ وكارتون. لأي شيء تفيد الكتابة عن رجل يقول بالفم الملآن وباقتناع كامل أنه لا يريد أن ينتمي إلى هذا المجتمع الذي نحاول أن نَنْحت كيانَه، مُجددًا، من كلمات وقيم لا وجود لها في الحياة الفعلية؟

مهما كتبتُ، تظل كلماته أقوى لأنها تنسف ذلك العالم الممكن الذي أوهِمُ نفسي بأنه هو البديل عن سيرورة التدهور المتعاظمة سنة بعد أخرى. عاش «ابن عريش» التجربة بوعي وأدّى الثمن من شبابه، ومِثْلَهُ الآلاف، ولذلك يجْزِمُ بأن الأحوال مستعصية على الإصلاح. كيف أتجاسر أنا على أن أنسج من مغامرته، من مصيبته، منْ قدَره المعتم، رواية تراهن على الأفضل؟ ألَنْ أكون مجرد ملوّح بالمرايا في وَجهِ السَّراب؟

أشعر أن مثل هذه الحفرة لا تقوى الكلمات على ردمها. كأنما الكتابة لا تكون ممكنة إلاّ عندما نَغُضُّ الطرف عن تلك الهُوّة الفاغرة فاهَا التي تُذكرنا بأن الكلمات لا تُرمِّم شيئًا من الشروخ القائمة في كل ركن وداخل كل نفس.

كانت رعشة انفعال في صوتي، وكانت عشوة المساء الصيفي قد

أخذت تغمر الغرفة و«ف.ب» تتطلع إليّ وتهز رأسها هزات خفيفة. وقفتْ متباطئة واتجهت نحو آلة الأقراص المدمجة وضغطت على زر فانطلقت أنغام «سوناتة» لم أتبيّن مؤلفها. جاءت بزجاجة عصير من الثلاجة ووضعتها مع كأسين على الطاولة المنخفضة الممتدة بيننا. سألتني بصوت هادئ:

- وماذا فعلتَ منذ تلك الزيارة للسجن؟

- عدتُ إلى القراءة. نفضتُ الغبار عن نصوص جميلة تشدّني وتحرك مخيلتي ومشاعري كلما قرأتها. كأنني أحاول أن أتأكد من أن كلام «بن عريش» لم ينجح في زعزعة تعلقي بنصوص لا تزعم أنها قادرة على تغيير الواقع... عدت إلى «زرقة السماء» (Le bleu du ciel) لجورج بَاتَايْ، أظنك قرأت هذا النص خلال إقامتك بباريس؟

هزت «ف.ب» رأسها موافقة؛ فتابعتُ:

«ذلك السارد الموزّع بين نساء عديدات الذي لا تشتعل شهوتُه إلاّ داخل مقبرة أو بمضاجعة امرأة ميّتة، الذي تجتذبه أصداء الثورة في برشلونة فيكتشف أنه هرب من باريس ومن لندن لينسى فشله وعذاباته الجنسية والعاطفية، لكنه وجد أن تفاصيل الثورة وتَحْضيراتها لا تنفعه في شيء. ما من طريق سالكة والمأساة كامنة في استحالة العلائق الطبيعية وتعثُّر الحب المُكتمل. وما من أحد يَجْسُر على أن يواجه حياته بما هي عليه وبما تحتويه من تألق وتدهور وانحدار: «وأدْرَكْتُ أنني أحبّ فيها تلك الحركة العنيفة. ما كنت أحب فيها كان هو كراهيتها. كنت أحب البشاعة غير المنتظرة والفظيعة التي كانت الكراهية تُضفيها على ملامحها».

كيف نميز ما نحب وما لا نحب؟ تلك المتاهة هي جحيمنا. ولا أكتمكِ أنني فكرت فيك يا عزيزتي «ف.ب» وأنا أقرأ عن علاقة السارد بديرتي (Dirty): الجمال المفرط، الجمال الذي يجرح، البهاء الذي يمحو ما عداه، والعاطفة الجارفة المتمنّعة عن الاكتمال والاستقرار، والشغف الحارق، والشهوة المستحيلة في حدود المواضعات البشرية، ثُمّ زرقة السماء التي تنادينا وتستدرجنا إلى عزائها باستمرار...».

ضحكت «ف.ب» بصوت مسموع هذه المرة وهي تقول:

ـ أنت لا شفاء لك أيها الكاتب. حكيت لك بإسهاب عن حياتي وعن تعثري وعذابي وأنت تُصرُّ على أن تختزلني إلى بضع جُمل هي بدورها اختزال لقصة رجال ونساء عاشوا في سياق آخر وبتفاصيل مختلفة... ألا تستطيع أن تنظر إليّ كما أنا ناسيًا ما قرأت؟

ـ أنت تطلبينَ المستحيل. إذا أخذتُ الناس حسب واقعهم وحسب الكَلمات التي يستعملونها للتعبير عما يظنونه حياتهم، سأحسُّ بالاختناق وسأحس أنني أخنقهم أيضًا.

ـ إذن لا شفاء لك. وحتى «بن عريش» الذي خلخل نَسَقَ اللغة والسرد وإيحاءات المعنى، تتحدّاهُ بالعودة إلى شرنقة الكلمات واستيهامات الذات ومتاهاتها؟

ـ «بن عريش» في واقعيته المفرطة يُمهّد لشيء مُغاير لا يَعيه. وقد تكون جذريتُه أحد العناصر في بلورة وَعْيٍ آخر بالحياة لدى الذين نَذَروا الحيْف والعنف وتستّروا عليهما..

ـ بِوُدّي أن أصدقك. بِوُدّي أن أصدق الكلمات التي تفتح كوّة وسط الظلمة.

ـ بودي، أنا، أن تُسعفيني على فَهْم بعض الحالات التي عشتها موزعًا بين أكثر من امرأة وأنا أنتظر تغيّرًا مستحيلاً، متلكئًا.

ـ كيف أعينك على الفهم إذا كنتُ عاجزة عن إدراك متاهات حياتي التي سردتُ عليك أهمّ لحظاتها؟ أستطيع فقط، يا صديقي، أن أستمع إليك لأن القصص تُؤثّثُ ذاكرتي وتُلون عُزْلتي.

ـ «في بداية السبعينيات، تعرفت بباريس على «جوزيت»، طالبة سويسرية كانت تحضر أطروحة عن الطبقة العاملة ببلادها. أخبرتني، فيما بعد، أنها عضو بالحزب الشيوعي، وأنها من أسرة فقيرة فأدركتُ العلاقة بين أطروحتها وبين وضعها الاجتماعي، خاصة في بلاد لم أكن أتصور أن يوجد بها فقراء. تنامَتْ علاقتنا، أول الأمر، من خلال الاهتمامات الثقافية والفكرية المشتركة ثم عَبْرَ لذّات الجسد وحميمية لحظات العُري والبَوْح. كانت تتكلم بسهولة أكثر مني عن حياتها وعلاقتها بالآخرين. حكت لي عن علاقتها المتعثرة بمناضل شيوعي من «الشيلي» يعيش بمدينتها «لوزان»، ما جعلها ترحل إلى باريس... ولم نكن منصرفين فقط إلى الحب؛ لأن مناخ ما بعد ١٩٦٨ كان يزكي التساؤلات عن مصائر المستضعفين وعن الثورات المتأججة عبر العالم. في الصيف الموالي لتعارفنا، اقترحت على «جوزيت» أن ألتحق بها في «لوزان» لنمضي أسبوعين معًا. لكنها لم تكن تستطيع أن تؤويني ببيتها لوجود العشيق الشيلي، فسجلتُ نفسي بدورة دراسية عن الفنون التشكيلية. في لوزان، كنا نلتقي بانتظام ونتابع حواراتنا

وخلواتنا، غير أنني تعرفت، خلال الأسبوع الأول، على «صوفيا» الإيطالية التي كانت تحضر الدورة الصيفية. كانت أصغر مني بعشر سنوات وتريد أن تكتشف، إلى جانب مدارس الرسم والأساليب الفنية البارزة، بعض أسرار الجنس وسلوكات الرجال. وكأن ذلك جزء من الدورة التعليمية. «صوفيا» ذات جمال ملتبس: لعينيها العسليتين وشعرها الكستنائي نُعومة خالصة فيما وجهها المستطيل وشفتاها المكتنزتان وصدرها النافر، يُبرزون شبقية متعطشة لا تكاد ترتوي. لم يكن بوسعي أن أتريث أو أن أقارن بينها وبين «جوزيت»، فاندفعت بكل حَمِيَّة الشباب التي كانت تجري في عروقي آنذاك. كان كل شيء واضحًا بيننا: أسبوعان وينتهيان وتبقى حلاوة العُشرة والسهرات ومذاق الجسد الذي سيتحول إلى ذكرى منعشة. ما لم يعد واضحًا هو علاقتي بـ«جوزيت» لأنني اضطررت إلى الاعتذار عن تلبية دعواتها زاعمًا أنني متعب أو منهمك في الكتابة. ولعلها أدركت أنني محمول بين ثنايا الموج، فاكتفت باللقاءات القليلة التي كنت أخصصها لها كلما استطعت أن أتملّص من «صوفيا». أسبوعان حافلان والنشوة مكتملة لأن الحوارات الثقافية التي كنت أفتقدها عند «صوفيا» كنت أجدها عند «جوزيت». وقلت إن الصدفة هي الأمهر في ترتيب المفاجآت والعُطل أيضًا. لكن المفاجأة التي لم تكن على البال، حصلت يومين قبل انتهاء الدورة؛ فقد طلبت مني زميلة بالدورة التعليمية أن ألتقي بصديقة لها تريد أن تستفسرني عن الحي الجامعي بباريس وعن بعض التخصصات بمعهد الدراسات العليا لأنها تنوي متابعة دراستها هناك. أعطيتها موعدًا في نفس اليوم والتقينا بأحد المقاهي وقدّمتْ لي صديقتها «مارتين» ثم انصرفت.

كنت، فيما أتذكر، أتصرف بتلقائية وباستعجال لأن موعدًا كان يربطني بـ«صوفيا» في نفس المساء. وكانت «مارتين» الشقراء ذات العينين الخضراوين، رشيقة رشاقة تَبْدُو معها نحيلة مثل ريشة قد تُحلّق عند أول هَبّة ريح قوية. نَظَراتُها عميقة، حزينة، كأنها تنظر إلى الدنيا من سديم آخر. كانت تتكلم برِقّة لافتة فيما كُنتُ أُجيب على أسئلتها برُعُونة وخفّة دم مصطنعة. كانت، مثلاً، تسألني عن أفضل بيت بالحي الجامعي في نظري، فأجيبها بأن أيّ بيت تسكنُه ستكون فيه أميرة مُتوّجَة. وتعاود هي سؤالها بنفس الرقة والحشمة متفسرة عن السّمينيرات المفيدة وعن الأساتذة اللاّمعين، فأعمد إلى اختزال الأجوبة قائلاً بأن عليها أن تقرر المجيء إلى باريس وستجدُني عند بابها لأسهل لها كل الترتيبات وأجيب على الأسئلة في عين المكان. لم أكن أدرك الأهمية التي كانت تعلقها على سفرها إلى باريس لأول مرة، ولم أتفطن إلى تلك الغلالة الرومانسية الشفّافة التي كانت تدثّر رُوحَها. انتهت المقابلة وأعطيتها عنواني ورقم هاتفي لتتصل بي عندما تصل إلى باريس. صباح الغد، وكان آخر يوم لي هناك، اتصلت «مارتين» لتقول لي، برقّتها وتأدُّبها المُفْرِطَيْن. إنها لَنْ تأتي إلى باريس في مطلع السنة الدراسية وأن عليّ ألاّ أنتظرها. حاولت أن ألحّ لأفهم لماذا غيّرت رأيها فأجابتْ بأن ذلك يَخُصُّها.

منذ ذاك، لم يُفارق طيفُ «مارتين» مخيلتي. بدأتُ أستعيدها في ذاكرتي، عبر نظراتها وإشاراتها ورقتها وجسدها ذي الخفة المتناهية. استولى عليّ وَهْمٌ أن «مارتين» مُغايرةٌ لكل النساء وأنها هي التي كا[illegible] ستجعلني أستغني عن «جوزيت» و«صوفيا» وأخ[illegible]

عبر مغامرة لا تنتهي إلاَّ لتبدأ. وَهْمٌ، ربما. سلوك عاطفي - جنسي غير طبيعي!! ممكن».

قالت «ف.ب» في هدوء:

«نحن مُولَعُون بالحديث عن التجارب التي نعتقد أنها أصبحتْ في عداد الماضي، فهي التي تجتذبنا فنعود إلى تحليلها وتشريحها. لكن لماذا التشبث بالتفسير؟ بالنسبة لحكايتك، أظن أن الكثيرين والكثيرات أحبُّوا امرأةً ميّتة أو رجلاً رَحَلَ عن الدنيا. الغياب مثل النسيان: لا يكفّ عن استثارة ذاكرتنا ولا تتوقف عن الجَرْي وراءه».

وقفتُ مُستأذنًا في الانصراف، فطلبتْ مني ألاَّ أُطيلَ الغياب لأن قلبها يخبرها بأن إقامتها بيننا أوْشكتْ على الانتهاء. هززتُ رأسي لأنفي ما تقول وقبّلت يدها واعدًا بزيارة قريبة.

وسط ضجة الشوارع وأضواء النيون والإعلانات، كنتُ أتساءل مع نفسي: لماذا تظل تلك اللقاءات غير المتحققة تُطاردنا؟ لماذا توحي لنا اللقاءات التي لم تتم بأنها تنطوي على مَسَرّاتٍ كانت ستغيّر مجرى حياتنا؟

هل نستطيع أن نعيش علاقة مكتملة، حُلْمية، مع امرأة واحدة؟ أم إننا نعيشها بالحتم، موزّعة بين أكثر من امرأة وذاكرة أنثوية؟

(٤)

«أغادر للتوّ حلمًا لا أستطيع أن أحكيه. الحلم لا يمكن أن يُثبَّت. إنه يَسيل، وكلّ صورة من صُوَره تتحوّل باستمرار طالما أنها لا توجد إلا في الزمان وليس في الفضاء»

جان جوتيه

هل العشق موتٌ؟
هل الموت عشق إذن؟
وما نَفْع أن أتوسّل هذا المصير
أو أحاول أن أستعير سواه؟
وما نَفْعُ أن أبحث الآن
عن وطن غير هذا الوطن
وأنا ما عُدتُ أعرفه
حين ألْقاه؟

فرانسوا باسيلي

لم يداخلني الشك بأنني في حلم، إلاّ عندما لمحتها من بعيد بوجهها المفرط البياض وتقاطيعها البارزة جراءَ نُحولة متعاظمة. مع ذلك، ظللتُ مذهولاً مما أشاهده وأسمعه: حشد كبير من رجال ونساء، أزياء متباينة، فضاءات ممتدة تحدّها بنايات مطلية بدهان ورديّ مفتوح، وبضع خيام بيضاء متناثرة. الحركة دائبة. مجموعات تتحدث بصوت مرتفع، أفراد يتمشون وهم يتبادلون التحايا بالأيدي من بعيد، آخرون يتكلمون في التليفون المحمول. أصوات صادرة من ميكروفون تخبر أو تدعو المتواجدين في الساحة إلى الالتحاق بالقاعة.

كنت أعرف وجوه معظم الحاضرين، لكن وجه «ف.ب» فاجأني ربما لأنني لم أكن أتوقع وُجودَها هناك. وحين اقتربت منها اكتفتْ بأن همست لي: لعل هذا المشهد يذكرك بما عشناه في ١٩٦٢؟ ثم تابعت طريقها متغلغلة وسط الجموع فلم أعد أتبيّن قامتَها.

كيف يمكن أن تكون حضرت معي تجمع ١٩٦٢ وأنا أكبرها بعشر سنوات، ولم يخبرني الهادي بقصتها إلاّ في بدايات ١٩٦٩؟!

سرعان ما انغمرتُ مع المتجولين في الساحة، متبادلاً الكلمات والقُبلات، مُستمعًا إلى التعليقات القصيرة، مستفسرًا عن أخبار من تباعد بيني وبينهم اللقاء.

أسير بخطو خفيف لا تكاد قدماي تلامس الأرض، والجموع تفسح لي مسلكًا وكأنني أغوص في تلافيف ضباب لا يفقدُني الرؤية. السمع هو وسيلتي الوحيدة لمدّ الجسور مع الآخرين في هذا الفضاء المحتشد غير المعتاد لديَّ منذ سنوات. أتسمَّع، أهُزُّ الرأس مجيبًا على تحيّة أو ابتسامة دون أن أتوقف عن السير، لأن رغبة جامحة تحثّني على أن أخترق هذا السديم لأطوّق حواشيه.

لا أدري الأمد الذي استغرقه اكتشافي واستطلاعي وسط تلك الجموع. وجوه كثيرة خُيِّل إليّ أنني أراها لأول مرة. وجوه أخرى كانت توقظ في ذاكرتي التماعات مفاجئة تعود إلى ١٩٦٢ أو إلى ما قبلها. وكنت مستثارًا متحفزًا، شأني كلما وجدتُني أمام ما يُلخّص لحظات أعتبرها أساسية في مساري وملتصقة بذلك الوجدان الذي يُعربُ عن حضوره في سياقات تلائم مكنوناته.

وجدتُني، بعد أمد، أرتاد رُواقًا كبيرًا، متسع الأرجاء ممتلئًا بالكراسي والطاولات والميكروفونات والكاميرات. مناخ احتفالي؟ لكن أصوات المرشدين كانت تحدد أماكن الجلوس بحسب الأرقام، والمشاركون في التجمع يتسارعون إلى مقاعدهم. ولم أكن أحمل رقمًا فاخترتُ كرسيًا عند نهاية الرُّواق دون أن تكفَّ عيناي عن ملاحقة الحركة واللغط.

وأنا أتطلع إلى المنصّة الكبيرة رأيت رجلاً تُحيط بوجهه لحية مشذّبة يشير بيده اليمنى إلى شخص رَفَعَ يده وسط القاعة الفسيحة. خفتت الهمهمات وشمل الصمت الجالسين. أدركتُ أنّ الرُّواق دخل في طقوس خاصة. وكالعادة في مثل هذه المواقف، رحتُ أبحث في

مخيلتي عن صورة تقرّب لي ما أُشاهده في ذلك الحلم المفاجئ. لعلني في بُرْج بابل؟ هو ذاك، رددتُ هامسًا. جُموعٌ حاشدة ولكنها تتواصل بشكل منظّم كأنها تؤدي تشخيصًا تدرّبتْ عليه: أصوات تتناوب على الكلام، تعلو الحناجر أحيانًا وتتوتّر الإشارات، وأحيانًا تأخذ الكلمات إيقاعًا متواترًا هادئًا. وهَمهمات وردود فعل تسري في الرواق المرصوص فأتخيلني عضوًا في هذا الجسد الضخم الذي أوى إلى هذا البرج المنطلق إلى سَمَاوات تحميه من أمواج مكتسحة. وكأن صورة هذا البرج طمأنتني إلى الموقع الذي أوجد فيه، فأصْخَتُ السمع لألتقط ما تتلقفه لغاتُ بابل:

ـ المهم أننا تغلّبنا على العقبات. ها نحن نستأنف لقاءاتنا المؤجلة. كادت أصواتنا تصدأ. كُنا نعيش في سديم.

ـ الوضوح لا يعني أن نتكلم لغةً واحدة... هناك أماكن فارغة مع أن تعاليم بُرجنا تضمن لكل الأصوات منبرًا.

وقف «تَاخْمُوت» في أقصى المنصّة مستأذنًا من الرجل الملتحي قبل أن يرد على المعترض:

ـ هذا الغياب مؤقت. لو لم نُبادر إلى تنظيم اللقاء لاستمر التأجيل والتسويف. وهذا يسيء إلى مَنْ نُمثّلهم. الحركة ستخلق جدليتها وهدفنا هو الصالح العام، كما تعلمون.

تصفيقات. هتافات...

ارتفع صوت: لا نريد غالبًا ولا مغلوبًا.

رد «تاخموت» بصرامة.. شيء من الانضباط أيها الإخوة.

همهمات وتعليقات وسط القاعة. إشارة من يد «تاخموت» انطلقتْ بعدها حناجر فتيّة بالهتاف. خفّ التوتر قليلاً. تابع الحاضرون تعاقُبَهم على الكلام. بعد كل تدخل يردّد رئيس المنصة: طبعًا ستؤخذ هذه الملاحظات بالاعتبار.

انشددتُ أكثر إلى مشاهد الزُّواق، قلتُ: لا بأس أن أتقدم قليلاً لأرى وأسمع بكيفية أوضح. بعد بضع خطوات وَجَدْتُني وجهًا لوجه مع المعتصم. يا إلاهي حتى هنا يلاحقني! أخذني من مرفقي وهو يردّد: أهلاً، أهلاً. زارتنا البركة. يظهر أنك غيّرتَ رأيك لأنني سمعتُ أنك لن تحضر معنا... اكتفيتُ بالابتسام فاستمر في كلامه: لا يجوز الحديث عن غالب ومغلوب، والمباراة بعد في بدايتها. أليس كذلك؟ سألته متظاهرًا بالبراءة: مَنْ هُمْ «تاخموت» و«قرّبال» و«عيطاط» الذين يتردّدون على منبر الكلام؟ إنهم الثلاثي المكلّف بتحضير طقوس اللقاء، هل نسيتهم؟ قلت متُخابثًا: لا، وإنما أسماؤهم الجديدة هذه جعلتني أظن أن الأمر يتعلق بثُلاثي قَلْب الهجوم في فريق الوداد القديم.

ـ لا، لا، الأحكام المسبقة مرفوضة والديمقراطية لا تتعارض مع الإمساك بزمام الأمور. لا بأس أن يأخذ القويُّ بيد الضعيف والمتفقه بيَد الجاهل. أنت سيّد العارفين. تعال أجلسك بالقُرب من أصدقاء يَوَدُّون رؤيتك...

توالت الخطب والكلمات والشعارات والهتافات أحيانًا تتعالى ضحكات قصيرة ثم يسود الكلام. ما أسمعه ليس جديدًا عليّ، هناك اختلاف في طرائق التعبير وبعض المفردات، لكن ما يقال يذكرني

بما سمعتُه في تجمُّع ١٩٦٢ الذي أشارت إليه «ف.ب» المختفية ولا شك وسط هذه الحشود. وأرجعَتني الذكرى إلى مشهد ظل عالقًا بذاكرتي منذ ذاك.

كنتُ أنا وثلاثة أصدقاء جالسين بأوّل صفٍّ، تحت المنصّة، ومعنا صحفيّ فرنسي شهير جاء ليغطي أحداث التجمع التاريخي، في لحظة معيّنة، سألنا الصحفي وهو يتطلّع إلى القياديين السبعة الجالسين على المنصّة:

ـ مَنْ برأيكم، من السّبعة، هو عين القَصر داخل الحزب؟

ضحكنا لتَذَوُّبِ السؤال مُعتبرينهُ مجرد نكتة. لكنه مضى يحكي تفاصيلَ عَن عيونٍ مُترصدة قائمة في كل التنظيمات العتيدة بفرنسا، واستغرب كيف أننا نستبعد مثل ذلك داخل منظمتنا.

ـ هذا لم يَعُد واردًا الآن، وحتّى إذا حصل في الماضي واكتشفناه مؤخرًا، فليس هناك، راهنًا، ما يستدعي الحيطة والتكتُّم. نحن نعيش مرحلة الوضوح والشفافية. نعم، الوضوح. لا أحد يمكنه أن يؤاخذ أحدًا على شيء. هكذا يستطيع رئيس تحرير صحيفة تنتمي لحزب معارض بالأمس القريب، أن يكتب افتتاحية مديح عن وزير الداخلية الجديد، كما يجوز لرئيس نقابة عتيدة مُناهضة، أن يَستدعي لحضور جلسة افتتاح مؤتمر الطبقة الشغيلة، وزير داخلية معروف بانتهاكاته لحقوق المواطنين!

ـ لكن، رغم ذلك، هناك أشياء تغيّرتْ لحسن الحظ.

ـ تغيّرتْ؟

- بالتأكيد.

- إنما كيف نقيسُ الحاضر لنُدرك مدى التغير؟

- لا داعي للسَّفْسطة. هناك إجراءات وقرارات تشريعية وظواهر سامية، والشاشة الصغيرة لا تُخفي شيئًا.

- وماذا عن الصراعات المتناقضة بين صَانعي التغيير؟

- شيء عادي. ظاهرة إنسانية. هناك دَائمًا الثائرون المتمرّدون وهناك المستفيدون من ثورة الآخرين.

- والحلَقية وسَدَنة الزوايا؟

- من ضرورات الفعل التنظيمي إذ لا توجد ديمقراطية مُطلقة.

- وإذن، المتمردون أيضا قد يُفرزون قوّة مُتحكّمة؟

- بالتأكيد. فهذا مظهر آخر لقوانين التاريخ.

- ما جدوى، إذن، أن أُصارع الشرَّ من داخل أجهزة ستُفرز بدورها، الإقصاء والتهميش والحلقية؟

- عندما تُهدّد سلطة مُطلقة حريتنا ووُجودنا، يكون الصراع معها ضرورة عاجلة بغضّ النظر عن العواقب التي تُشير إليها.

- رغم الخيبات المنتظرة؟

- رغمها. بل هي التي تُشعرك أن الصيرورة هي غير التاريخ المرئي، المُعلن عنه، الذي يُدير دَفّتهُ قائد أوركسترا لا يملك سوى عصاه وحركاته البهلوانية.

ـ وما الصَّيرورة؟

ـ ما المسؤول بأعْلَمَ من السائل. لكن يُخيَّل إليَّ أنها تُؤثر على تلك اللحظات التي نحسُّ خلالها بأنّ كيانَنا كلّه حاضر ومتورط في فعل نعتقد أنه الوحيد «القابل للاعتقاد» والمُفْضي إلى تغيير نَوْعيّ مُحْتَمَل لعلاقتنا بالذات والآخرين..

وانْتَبَهتُ من تلك الحوارات الداخلية على صوت الأستاذ «السَّلَدُوسي»، وهو جامعي مجتهد، واضح التعبير:

ـ على كل حال، الحُكْم فَرْعٌ تصوّره؛ كما يقول الفقهاء. ولذلك لا بأس أن نتَّفق على أنّ السلطة في بلادنا، توجد مُوزّعةً بين ثلاثة محافل أساسية، متفاوتة من حيث القوّة والنفوذ: هناك مؤسسات السيادة والمخابرات والجيش، ثم رجال المال والأعمال والامتيازات (الموروثة أو الموهوبة)، ثم الحكومة التي يُحدّد الدستور اختصاصتها..

ارتفعت أصواتٌ تقاطعه، إلاّ أن القاعة طالبت بأن يُتابع كلامه. بعد مهلة، أضاف:

ـ هذا التذكير بحقائق الأمور، كما هي لا كما يجب أن تكون، يجعلكم تدركون قواعد اللُّعبة وما تتيحه من رهانات، ويجعلكم تتعرفون، كذلك، على الموقع الذي تحتلُّونه في هذه الرقعة الواسعة المعقّدة.

بتعبير آخر، العُنصران الأوّلان ثابتان والحكومة متغيرة. إلاّ أن هذه الأخيرة تستطيع أن تتدخّل لتعيد توزيع السلطة داخل المحافل

الثلاثة إذا كانت تحظى بالثقة والتمثيلية... والسؤال الذي أريد أن أطرحه عليكم وأرجو أن تتمعّنوا فيه هو: هل تريدون تغيير السلطة باتّجاه الوصول إلى معادلة متوازنة؟ أم تريدون الاستمرار في غضّ الطرف عن الأفق الوحيد الممكن لاختراق النّفق الضيق؟.

تصفيقات يقاطعها الصفير.

ثم وقف شخص مدوّر الوجه، مَرْبوع القامة، جهْوري الصّوت:

ـ أريد أن أقول لقيادتنا شكرًا على هذا الدرس الذي لقّنَتْهُ لنا... لقد علّمَتْنا كيف تُخْتَرق حقوق المناضلين وكيف تُداس الديمقراطية. علّمَتْنا كيف يتمّ الانفراد بالقرارات بِحُجّة إنقاذ البلاد من هاوية محقّقة دون الانتباه إلى...

تَعالَى صفير الاحتجاج ودَمْدَمت أصواتٌ نَفَدَ صَبْرُها، وصدرت إشاراتُ غضب من بعض القادة الجالسين على المنصّة. كانت مفاجأة غير متوقّعة. إلاّ أن «عَيْطاط» بادر إلى الميكرفون وقال بصوت مرتفع:

ـ «لقد سبق للأخ المتكلم أَنْ فَاهَ بهذا الكلام منذ ثلاث سنوات خلال اجتماع اللجنة المركزية ولم يجد آذانًا مُصْغية، والقافلة الآن تسير ولا داعي لمثل هذا النُّباح. لذلك أطرح للتّصويت نقطة نظام عاجلة تَقْضي بألاّ نتحدث في هذا التجمُّع التاريخي إلاّ عن القضايا والأسئلة المستقبلية لأنها هي رهاناتُنا الجوهرية...».

تصفيقات. تأييد لنُقطة نظام. هُتافات بحياة القادة.

ويظهر أن التذكُّر، حتّى في أَوْجِ الحلم، لا يكفّ عن الاشتغال، إذ

سرعان ما وجدتُني أستحضر ما قاله خبيرٌ بشئون «المخزن» وطقوسه أثناء مناظرة «علمية» حضرتُها منذ سنتين. قال الخبير المستشار، ردًا على ملاحظات تتّصل بمُعتقلين أمْضَوْا رُبْع أعمارهم تقريبًا في زنازن سرية دون محاكمة، إنه لا يجب أن نُضخم تلك الواقعة ولا أن نُغالي في التعاطف مع ضحاياها لأنهم هُم أيضًا ارتكبوا ما يستوجب العقاب، ومن السابق للأوان القول بأن «المخزن» أخطأ عندما لجأ إلى تلك الاعتقالات اللاّقانونية. وأضاف بأنَّ تعلّق المغرب في عهده الجديد بحقوق الإنسان، لا ينبغي أن يُنْسِيَنَا فضائلَ تقاليد «المخزن»، إذ بالإمكان الجمع بينهما وفي ذلك تأكيد لقدرة بلادنا على الموازنة بين الأصالة والمعاصرة!

كنتُ أريد أنْ أحكي ما سمعتُه من ذلك الخبير لبعض المتحدثين في هذا التجمُّع المبارك، الذين ألَحّوا على أننا «أولاد اليوم» وأن المحاسبة هي من مَهامّ المؤرخين ومُحَلّلي الماضي، ولا داعي لخلق تصدُّعات تعوق مسيرة الإصلاح والتّقويم والتخليق. (عندما كانت كلمة تخليق تُستَعمل من أحد المتحدثين في الرواق، سرعان ما كانت الحناجر تُرَدّد شعارًا يثير الاستغراب وأحيانًا الضحك لأن صيغته لا تخلو من تلفيق: التّخليق تَخليق تخليقْ، بلا تأخير ولا تعليق).

وكنت أريد أيضًا أن أُذكّركم بالخطاب الشهير الذي أُلْقِيَ من خلف الشاشة الصغيرة، الملوّنة، منذ أكثر من ثلاثين سنة ليقول للملأ بأن من حقّ راعي شئون الأمة أن يُضَحّيَ بثُلُثها في سبيل أن يَعيش ثُلثان بمَنْجاة من القلاقل وشغَب المطالبين بالخبز والشغل.

إلاّ أنني خشيت أن يُقال لي بأن ذلك يندرج في الماضي.

لكن، كيف أُقنع نفسي بأنه من الممكن، بل من الواجب، أنْ أَضعَ بين قوسينْ، ثلاثين سنة عايشتُها، كانت الأقلية المحظوظة خلالها تَنْهب خيرات البلاد وتَسُوم العباد سُوءَ العذاب وعصابات المنتفعين تَمُشّ عظامَ المستضعفين... ثلاثون سنة خَمْخَمَ خلالها المخَمْخمونَ، كثُر فيها المسجونون والمنفيون، ورغم ذلك يقال لنا: لنَنْس الماضي ولنبدأ صفحة بيضاء، وشعارنا دائمًا أبدًا: إغناء الفقير بدون إفقار الغنيّ!

وكنتُ أريد أنْ أحكي لهم ما حَكاه لي صديق أَثق فيه، فقد قال لي: هل تعلم أنني وُلدت في نفس الشهر الذي وُلد فيه وزير الداخلية السابق؟ أنا، كما تعلم، أفنيتُ عمري في الدراسة والتعليم والنضال وهو كان يلاحق المواطنين ويُحصي أنفاسهم؛ فكان جزاؤه أن أصبح ثريًا ثراءً فاحشًا وتمتّع بالسلطة المطلقة أزيد من عشرين سنة... أليس من حقّي أن أطالب القضاء بأن يقارن بين رصيدي البنكي وبين الملايين والعقارات والأملاك التي يدّخرها في داخل البلاد وخارجها؟ وتصوّر أنه عندما تمّ الاستغناء عن خدماته، أبى رأس حكومتنا إلاّ أن يحافظ على أناقة السلوك، فأقام حفل تكريم للوزير المكروه. وفعلاً حضر إلى الحفل رافع الرأس مطمئنًا إلى أن ما استحوذ عليه لن يُوضع موضع محاسبة أو مُقاضاة. ويروي بعضُ الظرفاء أن المشرف على تنظيم الحفل بحث عن المطرب «إبراهيم العلمي» ليغني في حفل وداع الوزير أغنيته الشهيرة: «يا السّاخي بيا والله بِكْ ما سْخِيتْ» لكنه تبيّن أن المطرب التحقَ بالرفيق الأعلى منذ سنوات!

إنما تلك ذاكرة الماضي والحاضر رَازح بثِقْلِه، والسفينة تترنّح

والمتحدثون حريصون على تبيُّن طريق للفعل الذي يُهَيِّئ مستقبلاً مختلفًا. وأنا ـ وآخرون ربما ـ مَنْ يُقنعنا بأنّ هذه هي السبيل إلى مُجاوَزَة الماضي؟

وخشيتُ أن يلتقط صاحبنا «المعتصم» هذه الخواطر التي كانت تسري في تلافيف ذهني المستسلم للحلم سَرَيَان الدَّم في العروق فينطَّ ليعلّق على خواطري حسب طريقته المعهودة: «وماذا تريدنا أن نفعل أيها الروائي الذي تأسرُه أروقَةُ الماضي ومسالك الذاكرة وبياضات النسيان؟ أذكِّرك بما قاله القدماء والمحدثون: تحرّكوا تُرْزَقوا. ولا شيء هو غايةٌ في ذاته. ولا شيء يظلُّ على حاله. لا تُثَبِّت بصرك على الفرحين بمناصبهم، بابتساماتهم البَلْهاء أمام كاميرات التلفزيون وَهُمْ يتفوهون بكلمات عادية يظنونها آيات أوْ آراء خارقة... لا تُلْقِ بالاً إلى لعبة التلميعات وتحفُّزات «الذئاب الفتية» المتسابقة إلى احتلال المواقع... كل هذا عابر في نظري، بل طبيعي؛ والأهم هو ما سيأتي بعد ذلك عندما نصل إلى «حزَ مزَ» ويُطلب منّا اختيار المستقبل. الآن نحن فقط نُهَيِّئ الانتقال إليه. لذلك أرجوك أن تسترخي قليلاً وأن تتفرّج على وجوه الحاضرين والحاضرات وأن تتذكر ملامحهم فقد يفاجئونك بما لم تلامسه خواطرك الآن! شعار المرحلة يا عزيزي هو: ادخلوها واستمتعوا بخَيْراتها وأَنصتُوا إلى خُطَبِها بَعْضُكم لبعض وَلِيٌّ ونَصير. ثم إنَّ هذه قاعدة أساسية للأبراج الشفافة المشِعّة، وبُرْجنا لا يجوز أن يَشِذَّ عن القاعدة».

ظريفٌ هذا المعتصم، رغم كل شيء. يستطيع أن يقول الرأيَ ونقيضه بنفس الجدّية وقد يقنعك بأنه لا ينطقُ عن الهوى.

لكن ما كان يُثقل صدري وأنا أُجيلُ البصر في جموع الزُّوار وأنصت إلى الأصوات والشعارات، هَو قلق خفي لا أكاد أعثر على مصدره. علامات كثيرة تُشير إلى أن الفترة التي أعيشها تحمل في ثناياها لحظة تحوُّل تَوافرتْ أسبابُه منذ عقود، لكنها تظل بالنسبة لي لحظةً ملتبسة، متكتِّمة. وما تَحْبَلُ به يظل غائم القسمات لا يقوى على أن يجرفني فأنسى التحفُّظات وظلال الفشل، الذي عاينته منذ ١٩٦٣ ثم ١٩٦٧ ثم ١٩٨١ وما تَلاَحق من سنوات. ولم أعد أَجدُ ما يشدني إلى استعادة التفاصيل والجري وراء تحديد على مَنْ تَقَعُ مسؤولية التعثّر وتضييع الوقت والعُمر. الأهم من ذلك، هذا العزوف القوي الذي بِتُّ أستشعره أمام كل خطاب يدعو إلى الانغمار في الفعل أوّلا ثم انتظار أن ينجلي الضباب وتتَّضح معالم الأفق. وهؤلاء الذين تضع يدك في يدهم أو تستهدي بخطواتهم كيف لك أن تطمئن إليهم؟ أوْ كما تساءلت «هُولْجا» في «بَعْدَ السُّقوط» لـ«آرثر ميلر»:

«ولكن كيف لإنسان أن يكون واثقًا من صدْق إنسان آخر؟».

وعندما أقرأ جواب «كُونْتَن» على تساؤل «هولجا»، تزداد حيرتي: «بني هذا مؤمنون وربما كان هذا هو المخيف، وأنا أقفُ هنا أعْزَل مجردًا من الإيمان. بوسعي رؤية القوافل العسكرية تَسحقُ هذا التَّلّ وأنا في بَاطنه لا أحد يعرف اسمي».

أُحسُّني كأنني أَسيرُ على شفا بَرْزَخ يَنقُلني من طمأنينة الإيمانات إلى هوَّة الشكوك والأسئلة التي تسْعى إلى إعادة ترتيب فوضى الذات المتمرِّدة. وأجدني وجهًا لوجه مع اللص الشَّيْخ ذي الوجه المدوَّر والعينين الذكيتين المتَفَطِّنتين. أستحضر منطقه الجذريَّ الكاسح وهو

يمجِّد الخيانة من منظوره الخاص لأنها تعني، عنده، التخلي عن عالم مألوف لنمدّ جسور مع هوّة أو فضاء داخلهما يمكن أن نستعيد أنفسنا أو أن نُنْهي أيامنا في العُزلة أو أن نلتقي بنقيضنا لنعقد الصلة به... لا يهمُّ أن تكون تلك الهوّة مثاليةً أم لا، الأهم هو القطْع مع ذلك العالم الذي وُجِدْنا فيه وكأنه طبيعة مُلازمةٌ لنا.

فاجأني مرة بسؤال: لماذا تهتم بالسياسة؟

- لأُصحِّح اختلالات المجتمع.

ابتسم ابتسامته الساخرة: وِفْقَ أي مقاييس؟ أضاف بعد قليل: يصعب التوفيق بين الفرد والمجتمع. لا يوجد إنسان نقول عنه إنه كائن اجتماعي تمامًا، لأنه يمتلك تاريخًا شخصيًا وتاريخًا عائليًا يتعارضان مع نظام المجتمع وأخلاقياته. لا أظن أن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن الفرد سيُطبّق قوانين المجتمع وأخلاقه عن قناعة حتى ولو بلغ المجتمع درجة قصوى من الطوبوية... يعود اللص الشيخ إلى عزلته وأظل في مهبّ الحيرة والأسئلة. لم أفكر من قبل في العلاقة بين الذات والغيرية على هذا النحو. كانت قوة الأشياء تجعلني أفترض ضرورة ترابُط الذات بالآخرين، وكأن الفعل السياسي يعني أيضا تغيير ما هو قائم باتجاه مَحْو الإرغامات العائقة لاكتمال حرية الذات وتفتّحها. كنت أفترض وجود أفق للتوافُق وتعديل مسار التاريخ الخاص ومسار مؤسسات المجتمع. الآن يبدو لي أنه أفقٌ مهزوز هو الآخر، لأنه ملغوم بتعارض لا يُغالَب بين الحياة الشخصية المتواشجة مع الرواية العائلية ورغبات الجسد واستيهاماته ومكنوناته، وبين توجُّه المجتمع المشدود إلى القيم الموروثة ومصالح المتحكمين

والمعايير الوضعية. كيف يطمئن الفرد إلى أنه لن يقع، ذات يوم، تحت طائلة الظلم باسم عدالة تخطئ في تجريم الأبرياء؟ وقد يقضي سنوات مديدة من عمره وراء الجدران، ثم تَتَنَبَّهُ العدالة إلى خطئها فتطلق سراحه مع كلمات اعتذار.

وأحسست أن يدًا تُلامس برفق كتفي وسط مَأدُبَة الكلام والتصفيقات. استدرْتُ فوجدت «ف.ب» بابتسامتها الرقيقة الغامضة ووجهها الممعن في البياض، تدعوني برأسها إلى خارج القاعة. مَشَيْنا خطوات قليلة باتجاه الساحة الواسعة وسمعتُها تقول معاتبة: أنا دائمًا بانتظار زيارتك؛ وتلعثمتُ وأنا أنتحل الأعذار لتأخُّري، وأشرتُ إلى ما أستَشْعِرُهُ من حيرة واضطراب خلال الأشهر الأخيرة، وقلت لها بأن لديّ إحساسًا عارمًا بأن أشياء كثيرة تنتهي ولكن لا أحد يريد أن يقول ذلك بوضوح. قاطعتني ساخرة:

- يقول لِمَنْ؟

- لِمَنْ يريد أن يسمع.

زادت ابتسامتها افترارًا فتنبهتُ إلى أنني منفعل لا أتحكّم فيما أقوله. وعادت تسألني: لكن ما الذي ينتهي؟

- لعلَّها القدرة على رفض الأمر الواقع، أو هو ذلك الحرص على معرفة الحقيقة الذي توارَى وراء التَّراضي الذي أصبح شعار المرحلة؟

بعد فترة صمت، قالت في تؤدة وهي تَتَلَقَّظ كلماتها ببطء: لا أستطيع أن أغامر بكلمات مثل هذه. أنا أحس أن أشياء تنتهي وأننا

نَنْتَهي معها. ولكي أكُونَ دقيقةً أقول: أنا «ف.ب» أنتهي معها فيما يستمرُّ العالم الذي يعرف دومًا كيف يعثر على أوهام مُحفزَة ولغة مُلائمة لتَنْشيط الحركة وجَعْل آلات الضَّخّ تستأنف الدَّوران.

شُعورنا بانتهاء ما ينتهي مُرتبط بعلاقتنا بالأحلام والأفكار والاستيهامات التي هي النَّابض المحرِّك لأعماقنا. أنا، مثلاً، عشت حياتي بالطول والعَرض: أحببتُ أكثر من مرّة، ضاجعتُ مَن استطاع أن يجذبني؛ ناضلتُ وأبْحَحْتُ صوتي في الجدالات والخُصومات. شربت كثيرًا ورقصتُ حتّى الفجر أيامًا لا تُحْصَى. وكان شعورٌ يتملّكني، آنئذ، وهو أنّ الأشياء كلها في بدايات مُتجدِّدة.. كيف حدَث أنني أصبحتُ قابعة في غرفة معتمة، مقتنعة بأنّ ما كان يشدّني إلى الدنيا ويُشْعل وجداني قد انتهى، أو هو على وَشك الانتهاء؟ قد تتكلّم عشرات الأيام والليالي بحثًا عن الأسباب الكامنة وراء ما حدث لي، لكن، لا أظن أنك ستجعلني أضَعُ الأصبع على اللحظة التي قادت قدميَّ إلى سكّة الانحدار.

بعد فترة صمت:

ـ ربما يوجد الخلل بداخلي لأنني لم أتعوّد على أن أعيش في ما أخالُهُ زمنَ انحدار، بينما الناس يعتبرونه وجهًا آخر لزمن واحد. لا أحد علّمني أنّ ألف الوقتَ العادي المطبوع بالسأم واللامعنى وَ«قلّة النفس».

صمتتْ من جديد. بحثتُ أنا عن كلمات تُواصِلُ الحوار إلاّ أن ذهني لم يُسْعفني. قالت بعد أن امتدّ الصمتُ بيننا:

الآن أدركُ أن إيماناتي كانت تستغرقُ أمدًا محدودًا. تَنْبثق، أوّل

الأمر، مُتدفقة، مُتأججة، ثم تبدأ تَخْبُو كالشعلة المعرَّضة لهبوب ريح متواصلة. أغبط الذين يحميهم إيمانهم من الفُسُولة والارتياب واللاَّطمأنينة. في البدء عشتُ الانتقال منْ إيمان إلى آخر باندفاع المُغامرة المكتشفة، ثم أصبحت نَهْبًا للخَوف وأنا أنتظر اهتزاز ما اعتَصمتُ به... هل هذا هو ما يُذْكِي بأعماقي قَلقَ النهاية والشعور المسبّق بالموت؟

عادت إلى الصمت ونحن نسير باتجاه الساحة مُبتعديْن عن ضوضاء القاعة. كنتُ أتمنى أن تستأنف كلامها. بعد فترة، تنهَّدت وهي تُتَمتم:

ـ أُريد أن أقول لك شيئًا.

ـ نعم؟

ـ ما نعيشه من ضيق وألم الآن، هو جزء من سعادة مؤقتة. أنا سأرحل عن هذه الحياة قريبًا وأنتَ ستستمر بعدي. هذا ما يجب أن نُدركه جيدًا وأنْ نُدمجه في هذه الأوقات التي نَخْتَلِسُها عندما تزورني بغرفتي أوْ عندما آتي إليك في المنام....

تباطَأت وأنا أفتح عيني لأجدني مُمدَّدًا على اللّحاف المقابل للسماء عبْرَ مستطيلات الزجاج التي تفصل الغرفة الممتدّة على الجانبيْن؛ وأنغام كونسرتو «كولن» يعزفها «كيْط جاريتْ» برشاقة مُذهلة، والوقت يخبو على أديم تلك الظهيرة الربيعيّة الممطوطة.

أفتح عينيَّ ببطء ومُخيلتي مشدودة إلى ما رأيتُ وسمعت. كنتُ أَوَدُّ أن أقول لـ: «ف.ب» شيئًا عن استمراري في الحياة، عن تلك

اللحظات التي تُشرق، على غفلة مني، لتوهمني بأن الامتلاء الداخلي اكتمل وفاضَ على ما يحيط بي. لحظات تجعل ارتجاجات كهربائية تسري في المسامّ والنُّسوغ لتُلغيَ كلَّ ما هو غريب عن فرحة وجودية شاملة، لا أميِّز، خلالها، بينَ الأشياء والعناصر. وكُنتُ أريد أنْ أقول لها إن مصدر تعاستي أنها لحظات قصيرة بينما مواعيدها متباعدة أو شبه مستحيلة. وخلال انتظاري أكون كَمَنْ يجرُّ قدميْه وسط طابور طويل، مُتْعب، مَلُول من كثرة تَشابُه الأوقات والشخوص والأحاديث. وكلما لاح لي ما يعدُ بخروج محتمل من مألوف الوجود، أسرعتُ لملاقاته، متناسيًا، احتمالات السراب والخيبة وقَدَامَة المشاعر. الخَرْجة، الطَّلعة، الوَثْبة، النُّزوح، الشَّوْرة، الشَّيَحان: جميعها كلمات تمتزج، لديَّ، بالاستماع إلى الموسيقى، بالكتابة، بالقراءة، بالتسارِّ مع محبوب أو صديق؛ إلا أن الثِّقل الرابض بداخلي لا يُسعفني على الانفلات لأغادر دائرةَ الدنيا ووَثنيّتها، فيتعاظم الإحساس بجُدْرَان سجن وَهْميّ يُصاحبني. ألهذا يبدو الموتُ مغريًا باحتمالاته غير المرئية، غير المتداولة في تجاربنا التي تطمس جَذْوتَها الكلماتُ؟

(٥)

ـ هل نَحْنُ في آخر الوقتِ؟
ـ بل نحن أوَّله.
ـ والبريد المسافر بيني وبيْنك هل تحمل الريحُ أمطارَه؟
ـ أشتهيكَ كما قد قَضَى الظميُ بالعشق.
ـ هذا انهيارُ دمٍ في دَم وانفجارُ السماوات
بالماء
هل تَرحلين
أَراحلةٌ أنتِ؟
ـ ما هَمَّ والوَقتُ ليس لنا الآن!

محمد عفيفي مطر

في شهر أبريل الماضي من هذه السنة، ركبت القطار إلى الدار البيضاء لزيارة «ف.ب». كانت أشياء كثيرة تشغَلُني، وكان حضور طيفها في تلك المنامة وفي حوارات أحلام اليقظة التي رافقَتني أثناء حضوري ذلك التجمع البابلي الفريد، يستحثُّني لأبادر إلى خلوة المكاشفة والبوح، معها.

في مقصورة القطار، لم أتمكن من قراءة الجريدة، لأن شابًا تبدُو عليْه الجدية ونبرة الوصاية كان يتحدث إلى فتاة سمراء تصغره بما لا يقل عن عشر سنوات، وكأنه يتعمد أن يرفع صوته ليسمعه مَن يوجدون بالمقصورة. كان يقول لها ما معناه: أنا أعرف مصلحتك ربما أكثر مما تعرفينها أنت. الدنيا مْخَلْطة وبنادم اللي ما يتْوَاش كثير. ومنذ رأيتك عرفت أنك بنت ناس ولذلك تجرأت وكلمتك وقلت لك إنني أريد أن أتحدث إليك في القطار. ولا أخفي عليك أن مستقبلا زاهرًا ينتظرني في الملاكمة لأنني مصمم على إحراز البطولة في وزن الريشة. وأنا أريد أن أحميك وأن أطلبك للزواج لنبني عائلة هنيّة لأنني بصراحة لم أعد أثق ببنات اليوم... وكانت الفتاة تبتسم وتحاول أن تُفْهِمَه بأنها لا تعرفه وأنها ما تزال طالبة،

ولكنه كان يقاطعها ولا يترك لها مجالا للتعبير، مُلحًّا عليها أن تعطيه رقم الهاتف ليتصل بها في الغد...

المسافة الفاصلة بين محطّة الميناء وساحة «فيردان» قصيرة. آثرت أن أقطعها على الأقدام لأفكر في ما يمكن أن أحكيه لـ: «ف.ب» لو طلبت مني ذلك مثل ما فعلت في المرة السابقة. تهاطلت الصور والأحداث على ذهني ولم أتمكن من ترتيبها أو انتقاء ما يناسب منها. قررت أن أترك ذلك لتلقائية الحديث. وكنت قد وصلتُ إلى باب العمارة فصعدت محتاطًا ثم نقرتُ الباب النقرات المعتادة غير أنه لم ينفتح. كانت الساعة تقترب من السادسة مساء. انتظرت قليلاً ثم عاودت النقر وَطَال انتظاري. استعملت جرس الباب فلم أسمع سوى صدى رنينه. نزلت إلى الشارع وتطلعت إلى نافذتها فوجدتها على غير المألوف، مُشرعة. قلت ربما قررت الخروج للترويح على النفس أو لزيارة صديقتها «حليمة». سأمضي الليلة بأحد الفنادق ثم أعود لزيارتها صباح غد. وآثرتُ أن أتمشى عبر الشارع قبل البحث عن فندق.

سرعان ما استظللتُ بالمناخ الذي تغمرني به الدار البيضاء خلال زيارتي لها: فضاء لا يكشف خَباياه مرة واحدة ودائمًا هناك إحساس بالمجهول الذي يتربص بي في منعطف، أو عند باب عمارة أو داخل مقهى. يضاعف من هذا الإحساس الشعور بالغفلية وسط امتداد الشوارع وكثرة الخَلق. تقريبا هو نفس الشعور الذي يُلازمني وأنا أتجول بإحدى العواصم الكبرى. تَتيقّظ الحواس. يَتخايَل تَخوفٌ لا مُبرر له قبل أن أستسلم لذلك التيار الجارف الذي يُدغدغ

الحواس ويستفزها مثل دفقات حمام (جاكوزي) القوية حين تُهاجم الجسد.

وتذكرت وأنا أمر بالقرب من ضريح سيدي "بلبّوط"، أول مرة زرت فيها هذه المدينة وعمري لم يتجاوز التاسعة. كنت رفقة خالتي «كنزة»، جارتنا التي تحولت إلى ما يشبه الأم. من خلالها وبفضل شخصيتها القوية وعلاقاتها العائلية توسّع مدى الرؤية والحركة لأنها كانت تستدعيني أو تستدعي أخي لنرافقها في زياراتها للأحباب بفاس أو مكناس أو الدار البيضاء. وتلك المرة، كنا متوجهين ومعنا زوجها وابنها لقضاء بضعة أيام عند الفقيهة "لالّة خدوج" ابنة عمها التي كانت تتردد من حين لآخر على الرباط. كانت لا تخلو من قسوة فقهاء الكتاب إلاّ أنها في البيت والسهرات العائلية تستعيد رقة أنثوية وهي تحكي القصص والنوادر أو تنتقل من تجويد القرآن إلى الغناء. وأذكر أنها كانت تسكن بالفوقي بينما عائلة يهودية تسكن بالسفلي. وفُوجئت كثيرا وأنا أراها تخاطب جيرانها بتلقائية وتتبادل معهم الضحك والتعليقات. وفي اليوم التالي لوصولنا، أرسلت الجارة اليهودية صحنًا كبيرا من (السخينة) التي لَحَسنا أصابعنا من ورائها. وقد ضحكت الفقيهة كثيرًا وهي تستمع إلى خالتي «كنزة» تحكي لها عن الرجل الملتحي الذي كان معنا في حافلة النقل العمومي وكان يصرخ كلما اهتزت الحافلة أو تمايلت بقوة: أسيدي بليوط طالبين الشفاعة! وسرعان ما بدأ الركاب يرددون بتقليد ساخر نفس الاستغاثة كلما تمايلت الحافلة:

احنا في عارك أسيدي بليوط.

منذ الستينيات بدأت أكتشف ملامح من كيان الدار البيضاء العملاقة. لكنها تظل في مخيلتي ممتدة بلا حدود وأظل أخمن أن ما ألتقطه، خلال زيارتي وإقامتي القصيرة، هو مجرد ظاهر يعلن عن باطن مثير، غرائبي. وما أزال أستعيد، كأنّما بالأمس، تطوافي عبر الحانات والمقاهي في حي المعارف رُفْقَةَ أصدقاء من الشعراء والكتاب والمثقفين. كان هناك إسبانيون وبرتغاليون استوطنوا الحي عندما هربوا من دكتاتورية «فرانكو»، واستطاعوا أن يطبعوا ذلك الفضاء بالمناخ الإسباني المرح، المقبل على الحياة بنَهم، الذي يحوّل المقاهي والمطاعم إلى لقاءات مفتوحة تزهو بالكلام الصاخب والقهقهات المفرقعة وكؤوس الراح و(الطّاپّاس) والضوضاء الوناسة. اشرب، اكرع لتواجه شساعة الأحلام المرافقة لأول الطريق، ووطأة كابوس الاستبداد غير العادل الذي كان حريصًا على تركيع العباد. كانت تلك الجولات في محيط حي المعارف المضمخة بعطر الإسبانيين تنحت في ذاكرتي صورة مزدهية، شامخة للمدينة التي أنعشت آمالنا أيام المقاومة. ومنذ ذاك، ارتبطت الدار البيضاء في نفسي بالمجهول المفاجئ، بالمرصد الكاشف عن أشياء وسُلُوكات تتحول في رحابها إلى دلالات رمزية. تباعدت اللقاءات ولم تبهت رمزيتها في خاطري. وقبل خمس سنوات، استدعاني صديق رسام لحضور تدشين معرض جماعي أشرفت عليه مؤسسة مالية ضخمة يملكها أصحاب «المصالح الحقيقية» المنتمون إلى تلك الطبقة العريقة التي استفادت من الاستقلال وآثرت أن تبقى في منطقة الظل لأن الرياح كانت تهب يمينًا وشمالاً وتعصف بمن يجرؤ على أن يكشف عن وجهه. الآن وبعد نصف قرن من الاستقلال، ها

هُم يعلنون عن نيتهم في أن يكون لهم وجود اجتماعي وثقافي يُسيِّج طبقتهم. خلال حفلة التدشين، خيل إليَّ كأنني أرتاد قاعة عرض بباريس: نساء جميلات بالديكولتيه، رجال يتراوحون بين أناقة رزينة وموديلات جريئة، وموائد تعرض مشروبات روحية وعصائر ومزات باردة وسخنة، والإضاءة تنبعث من الزوايا والسقف لتُبرز تضاريس اللوحات. الكل يبتسم، والأحاديث سالكة تعلن فعلاً عن حَدَث غير مسبوق. وتلقَّفني صديقي ليُقدِّمني لبعض الشخصيات النافذة في عالم التجارة والمال والتي كنتُ أسمع عنها كلما احتفل واحد منهم ببلوغه رتبةً جديدة في سلم المليونيرات. وعند انصرافي من المعرض، قلتُ لصديقي: «أنا ممنُونٌ لك لأنك جعلتني أتعرَّف على مَن كنتُ أعتبرهم أباطرة غير مَرئيين: الشي ١٧ مليار درهم، الشي ٣٠ مليارًا، الشي ٥٠ مليارا... أولئك الذين كنتُ أسمع عنهم من خلال إعلانات عن شركات كبرى، أو أراهم عبر ناطحات سحاب يملكونها. وكانت الإشاعات والمبالغات تضبب صورتهم، لذلك أنا مسرور بخروجهم - أو بعضهم على الأقل - من دائرة الظل إلى قاعة الأضواء...».

الضوء والعتمة مُتلازمان عندما أستحضر أحوال المجتمع في العقد الأخير. أفعل ذلك انطلاقا من معاينات وملاحظات تستقر في الذاكرة لتؤكد لي أن منطقة العتمة كُتلةٌ تتّسع سنة بعد سنة، فاتحة أذرُعها لاستقبال ملايين المعدمين، فيما منطقة الضوء تتقلص أكثر حول آلاف المحظوظين الماسكين بشرايين المال والصفقات والعَقّار وامتداداتها في مجالات السلطة.

وخلال سهرة مع صديق يعمل بمصلحة الإحصاء، سرد عليّ أرقامًا مذهلة تؤكد الانطباعات التي تكونت لديّ. وأضاف ملاحظة زرعت في نفسي غير قليل من الخوف. قال الإحصائي الصديق بأن هذا الانشطار داخل المجتمع يكتسي الآن مظهرًا اجتماعيا يشخص تحوُّلاً بنيويًا عميقا. وهو شيء طبيعي إذا تذكَّرنا الهجرة المستمرة من البادية إلى الحواضر، واتساع رقعة البناءات العشوائية المعزَّزة للكاريانات ومدن القصدير التي تُطوق معظم المدن في شكل أحزمة تحُدُّ فضاءات تعجُّ بالعنف، والبلطجة وقانون الغاب. في فترة أولى، يضيف، كانت تلك المساكن العشوائية ذات شفافية قابلة لنفَاذ دعوة المتشددين التماميين، لكن «تطور» الأوضاع جعلها تنتقل إلى عنف منظم من نوع آخر، يتوخّى الربح ويفرض الإتاوات، ويدير شبكات الدعارة وبيع المخدرات . أي نعم، الفاعلون هم من صُلب المهمشين لكنهم يتوَّجُون أنفسهم قُيَّادًا يحلبون سكان الأحياء العشوائية وينشرون قانونهم لأن قوات الأمن لم تعد قادرة على مواجهة هذا العنف المتوحش، بل إن التعايش والتعاون بين السلطتين مُستَحَبٌّ...

ربما كان ذلك الصديق يبالغ، لكنني لا أستبعد ما حكاه، لأن هذا العنف يتجنب الطروحات السياسية التي أثارت من قبل ردود فعل عنيفة من لَدُن الدولة، ويختار شكلا اجتماعيًا من الفوضى المنظمة يتيح لبعض المهمشين أن يصبحوا داخل تلك الفضاءات قامعين بدورهم للمستضعفين. قد يكون في ذلك إضعاف للدولة، لكن الله غالب، الإمكانات محدودة والسجون امتلأت... طبعا، هذا لا يمنع الخُطب والبيانات الرسمية من الاستمرار في تأكيد هيبة «الدولة»

والقوانين من وراء ميكرُوفُونات الإذاعة والتلفزة وخلال التصريح بالنوايا أمام المحافل الدولية.

ضوء وعتمة، ومن خلالها يتراءى لي طيفُ «ابن عريش» وهو يخبرني أنه يُهيئ نفسه لاحتلال موقعه في ثَنايا تلك الفضاءات ليمتلك وضعية مشروعة لا تتعارض مع سلطة المركز....

كان المساء قد تقدم، وقدماي تنجرّان بصعوبة، فاتجهتُ للبحث عن فندق.

في الغرفة، بعد العشاء وأنا أُقلب قنوات التلفزيون، وقَعتُ على فيلم (الأبديةُ ويَومٌ) للمخرج اليوناني «تُيو أنجيلوبولس». انجذبت إلى الشريط الذي يحكي عن كاتب مريض انتبه إلى أنه أضاع سر الحياة فقرّر، مثل شاعر من القرن التاسع عشر، أن يشتري كلمات يعبر بها عن مشاعره. في الأثناء يقابل صبيًّا هاربًا من ألبانيا وتنشأ علاقة وطيدة بينهما. وكلما أراد الكاتب أن يرحل لا يقوى على ترك الصبي يواصل جولته مشاهدا ومُتذكّرًا: زوجته المعشوقة الراحلة، ابنته وزوجها الأنانيان، البحر الحاضر باستمرار، والطفل المنهمك في مشاهدة ما حوله... لكن ما يؤلم الكاتب البطل هي تلك العلاقة المستعصية مع الزمن وما يُخلّفُه في الجسد والذاكرة من وشُوم. وفي لحظة ما، قبل نهاية الشريط، يقول بلَوعَة، ما معناه: لماذا لا نُحقّق في الدنيا ما نريد؟ لماذا الأشياء وَاللحظات الجميلة تفلتُ دَوما من بين أصابعنا فَنَرتَدّ إلى البحث عن عبارات وكلمات لنُنقذَها من حبائل النسيان؟

لم يُقرّبني الفيلم من النوم. عدت إلى التفكير في «ف. ب»، وَفي

الغُربة التي حَاصرتني وسط هذه المدينة الشاسعة منذ طرقتُ الباب ولم أجدها. وفي متاهات الأرَق لاحت لي في ثنايا الذّاكرة إحدى زيارتي لموسكو في إبان عهدها السوفياتي وقلتُ هذا ما سأحكيه غدًا لـ: «ف. ب». سأحكي لها عن الثلج الذي كان يكسو شوارع موسكو الفسيحة ويُجلل قُبب الكرملين والأشجار السامقة العارية، وأنا ومترجمي «ميشا» نتجول على الأقدام داخل ملابسنا السميكة مُحتمين بالقبعتين الروسيتين التقليديتين. كان «ميشا» يتحدث بعربية فصيحة جيدة ويشرح لي المشروع الاشتراكي الذي حرَّر بلاده من استبداد القياصرة واستهتارهم. وكان يحلو لي أن أعاكسه مُلمحًا إلى أن البيانات شيء وما نراه في واقع الحال شيء آخر، فكان يبتسم بهدوء ويُعاودُ الدفاع والشرح، فأمعنُ أنا في نكْءِ الجراح:

ـ افتح عينيك يا «ميشا». كل شيء هنا يسير بالرشوة ووفق تراتبية الأجهزة. ألم ترني أمس كيف دَسستُ عشرةَ دولارات لنَادل المطعم ليسمح لَنا بالدخول رغم أننا تأخرنا عن الموعد؟

يرد عليّ «ميشا» وهو يبتسم وقد احمرت وجنتاه:

ـ أنت يا أستاذ تبحث فقط عن السلبيات وتنسى الذين ضحوا من أجل أن نتعلم ونتطبب مجانًا. وفي الواقع أنت الذي تشجع الرشوة عندما تُصرُّ على شراء الكافيار والفودكا من النادلات بفندق «راسيا».

وكنت أهزُّ رأسي موافقا مُرسلاً ضحكةً قوية، قائلاً:

ـ إذن أنا أقوى من المبادئ الاشتراكية لأنها لا تعصم من الرشوة!

وأُحس أن فُتوّة عُمره قد لا تتحمل قسوة في النقد مثل تلك التي كنت أبديها، فأسعى لمصالحته موضحًا له بأن الفُروق بين النظرية والتطبيق مُعضلة إنسانية لم يُعثر لها بعد على علاج. وَدَعَوتُه، ذات مساء، إلى مطعم ومرقص في آن، يفتح أبوابه إلى حدود الحادية عشرة ليلاً وبعد ذلك يطلب من الزبائن الانصراف وتُغلَقُ الأبواب. بين طبق وآخر، نقف لنطلب من فتيات أو سيدات مُراقصتنا ثم نعود إلى المائدة لمتابعة العشاء. الجميع يأكلون بنهم ويعبّون الڤودكا خالصة ويتسابقون إلى حلبة الرقص قبل أن يُعلن الجرس ساعة الإغلاق. متعة جماعية يزيد من قيمتها أنها محصورة بوقت معين. وعندما خرجنا إلى الساحة الممتدة المجاورة للمطعم، كان الثلج يلمع تحت الضوء الشَّحيح لبعض المصابيح المتباعدة المعلقة على أعمدة حديدية. كان الانتشاء يسري في أوردتنا، وكنّا نتبادل التعليقات والضحكات وأنا مستغرب من أن أتكلم بالعربية وسط طبقات الثلج غير المألوفة لديّ. بعد أن توسّطنا الساحة وجدنا رجلاً مخمورا يرتل بصوت مرتفع عبارات لا تخطئ الأذن موسيقاها. طلبت من ميشا أن يترجم لي ما كان الرجل يتلوه مُتوقفًا من حين لآخر عندما يثقل رأسه فيغفو بُرهة قبل أن يستأنف:

«أيها الروسي الأبيض

يا سليل إمبراطورية بطرس الأكبر

لن أراك

رحلتَ

تركتنا للفراغ، للوجوه العسكرية الصارمة

للفودكا التي لم تعد تُدوخنا

رحلت ومعك تراتيل الكنيسة المؤثرة

والإيقونات المطمئنة للوجدان

مُجرد جُرذَان نحن

نفايات تلعقُ لَسعَات البرد

من مسام الثلج

أيها الروسي الأبيض

يا سليل القياصرة الأمجاد

لماذا رحلت؟...».

وسألت ميشا عمّا إذا كانت قصيدة معروفة، فقال لي بأنه لا يظن وأنه يرجحُ أن تكون من تأليف الرجل السكران لأن ما شربه من فودكا كفيل بأن يُنطق الصخرةَ شعرًا.

وسأحكي لها كيف أنني طلبتُ من «ميشا»، ذات يوم، أن نزور إحدى الكنائس الأورثوذكسية لننصت إلى القُدَّاس، فرحّب بالفكرة واتفقنا على موعد الزيارة. كانت الكنيسة صغيرة، إلا أنها ممتلئة عن آخرها، وعلى الجدران إيقونات لها ملامح تكتنزُ تعبيرات حزينة، وصورة المسيح المصلوب تتصدّر الواجهة المرتفعة. معظم الحضور من النساء يضعن على رؤوسهن شالات صوفية ذات ألوان بيضاء وسوداء. وقفنا بآخر القاعة فيما تراتيل القدّاس تعلو متُناغمة بنبرات مؤثرة. كنت أصغي وأجيل الطرف في الوجوه المنهمكة في الإنشاد.

والتفت إلى «ميشا» فوجدتهُ يُنشد بدوره وهو يبتسم، لحظات ظلت عالقة بذاكرتي. عندما خرجنا من الكنيسة، قال لي «ميشا»: أرأيت كيف أن النظام الاشتراكي لا يُصادر الدين؟

ميشا كاتبني لفترة ثم انقطعت أخباره. لكنني أستحضره دائما مبتسما، مصرا على الأمل. وأستحضر، بالأخص، موسكو يكسوها الثلج وكأنها إيقونة مغموسة في البياض، عارية من الأصباغ وأضواء النيون والإعلانات المتلألئة. غير أن فضاءها يظلُّ غامضا رغم بياضه. فضاء ينطوي على مفاجآت واللقاءات التي تتم بين أرجائها، تترك أخاديد على الجسد ومشاعر متجذرة في الأعماق.

سأحكي لها، أن موسكو، بعيدا عن تبويقات الجنود المزهُوين بزاتهم العسكرية وقاماتهم المديدة، كانت تتخايل لي، عبر قبابها وأشجارها العارية وزرابي الثلج المبثُوثة، طيفًا يُغري باكتشاف بقايا أسرار «راسبوتين» وحفلات القصف والهتك التي أثَّث ليالي القياصرة اللاّهين في أحضان الروسيات الشقراوات. سأقول لها بأن موسكو هي إيقونة رسمت بأكثر من لون ونغمة وكلمة: أصداء قصائد «بوشكين» و«مايكوفسكي» و«إسنين»، تُعانقُ حركات سيمفونيات «تشايكوفسكي» و«رحمانينوف»، وتحُاذي ملحمة «السلام والحرب» وتساؤلات «دستويفسكي» القلقة الممعنة في الجري وراء الحالات القُصوى.

سأحكي لها (...) ويظهر أن النوم سَرقني لأنني عندما صحوت في الفجر على صوت المؤذن المجلجل عبر الميكروفون، كانت بقايا حلم لاصقة بجفني: كنت أراني وحيدًا في شوارع خالية من الناس

والقطط والكلاب، ولا تسمع بين جنباتها سوى قَدقَدة صحائف قديمة وأكياس بلاستيك تُدحرجها الريح على الإسفلت. أزرر معطفي وأجري يمينًا وشمالا. أطرقُ الأبواب بقبضتي فلا أسمع صوتا ولا نأمة. أعود لأجري مُرتعبا، صارخا: أنا هنا. أنا فُلان الفلاني. لماذا لا تردُّون على نداءاتي؟ أنسيتم اسمي؟ أليس اسمي هو اسمي؟

حاولتُ أن أعاود النوم فلم أتمكن. أضأت الأباجورة وأخذت أقرأ مجلة تضم مقالات متنوعة، إلى حدود السابعة. نزلت للإفطار واشتريت بعض الصحف. على المائدة بدأت أتصفح الجرائد، فوقعت عيناي على مانشيت يُخبر عن وقوع هجوم على مُهرب مخدرات خطير بأحد فنادق عين الذياب أسفر عن قتل امرأة كانت معه في الغرفة. وإلى جانب العنوان البارز، صورة القتيلة في إطار. دققت النظر فتبينت «الضاوية» بوجنتيها الممتلئتين وعينيها المبتسمتين. قرأت اسمها تحت الصورة: «الضاوية سيلُوح». هي لا غيرها. يا الله! ما هذه الصدفة التي تأتي في غير أوانها؟ شرعت في قراءة تفاصيل الواقعة فعلمتُ أن الشرطة كانت تترصد المهرب منذ عدة أشهر إلى أن علمت بوجوده متنكرًا بذلك الفندق ومعه مومس زَعمَ أنها زوجته. وعند المداهمة أخرج مسدسه وهَدَّدَ بقتل «الضاوية» إذا لم يسمحوا له بالخروج. وخلال مفاوضته مع الشرطة أطلَقَ شرطيٌّ النار على المهرب ليشل حركته فأخطأ الهدف وأصاب «الضاوية» التي كان الرجل يحتمي بها... أنظُر من جديد إلى صُورتها وإلى اسمها وأتذكر زيارتها لـ«ف.ب» وما حكَتهُ لنا عن مسير «التهامي» بلغتها الخاصة ودلالها العفوي الجاذب. كيف سأبلغ الخبر إلى «ف.ب»؟ بأي صيغة وبأي كلمات؟

وخَطَر لي أن أتصل هاتفيًا بصديقي «السعداوي» الذي انتقل إلى الدار البيضاء منذ عشرين سنة واستطاع أن ينجح في عالم الصفقات وأن يتغلغل في أحشاء المدينة وأسرارها بفضل علاقاته المتنوعة والسهرات الباذخة التي يحييها من حين لآخر. كنت أريد أن أستفسره عن هذه الحادثة وعن مُهرب المخدرات. رد عليّ ابنه «كمال» مُرحبا، مُقلدا أباه في اللهجة واللطف: يوم سعيد هذا أعمّي. كاين شي ما تقضيو؟ قلتُ له: إنني أريد أن أتحدث إلى السعداوي. فأجابني بأنه مسافر لبضعة أيام، لكنه هو مستعدّ لأن ينوب عنه. وأمام إلحاحه، استفسرتُه عمّا إذا كان يعرف شيئًا خاصًا عن المهرب الذي حاصرته الشرطة أمس بأحد فنادق عين الذياب وعن... قاطعني في وثُوق: قرأت ما كتبتهُ الصحف لكنني أشك في روايتها لأن قتل المومس لا يمكن أن يكون مجرد خطأ. وأضاف بأنه يعتقد أن الشرطي متواطئ، ولذلك أطلق النار ليخلق البلبلة ويتيح للمهرب فرصة للهروب... كان يتكلم بوثُوق يفوق ما يمكن أن تضمنهُ سنة ثالثة بكلية الحقوق لطالب نجيب مثله!

في صباح الغد، قصدت إلى ساحة فيردان. حوّمتُ حول العمارة قبل أن أصعد إلى معزبة «ف.ب». رفعت بصري إلى الطابق الرابع فرأيت سيدة تنشر الغطاء على مرفق النافذة. خمّنتُ أنها الخادمة التي حدثتني عنها في المرة السابقة. آثرت أن أبقى على الناصية المقابلة للعمارة بجانب مقهى صغير كان ينبعث منه صوت «نجاة عتابو» وهي تُغني «عذبوك أشيري». بعد قليل لمحت الخادمة تخرج من العمارة متجهة صوب البقالة. دنوتُ منها وسألتها عن «ف.ب» فقالت ببساطة وكأنها تُجيب على سؤال تافه:

«ماتت. ماتت مسكينة هادا شي شهر. خُوهَا سيدي «فؤاد» هو اللي تيسكن في دارها».

عدت إلى الناصية المقابلة للعمارة وتأكدتُ أن نافذة غرفتها مشرعة والغطاء والإزار منشوران على حافتها. شعرت بارتجاجة قوية جعلت الغصّة تتصاعد في حلقي. لكن زمامير السيارات ولعلَعة الأصوات سرعان ما بدّدت الانفعال الذي لفّني وأنا أسمع نبأ وفاتها. ظللت أبحلق باتجاه العمارة والنوافذ المفتوحة وأنقل بصري، في بلاهة، بين وجوه المارّة إزاء الموت كل شيء يبدو نافلاً. فكرت في ما خسرتُه: امرأة أكثر صدقا بل أكثر جاذبية من تلك التي ابتدعتها المخيلة. كانت مُنغرسة بجذورها في هذا الواقع المنفلت الذي لا أكاد أتبين معالمه. ثم فكرت بعد قليل، بأنها لا تنتمي إلى هذا الواقع رغم أنها جزء منه. كان لها الشجاعة في أن تخونَه وهي تعلم أنها ستغوص، جرّاء ذلك، في متاهات الوحدة والجنون.

وتصورتُ أن كل شيء سيعود، داخل أسرتها، كما كان. رَحَلت «ف.ب» وإلى الأبد هذه المرة. إذ لا أتوقّع أن أراها تخرج من نَص الرواية إلى واقع الحياة. هي التي كانت من دم ولحم قبل أن ترتاد المخيلة، أنهت رحلتها على الأرض، وجعلتني أقف على هذه النهاية التي لن يُجدي الخيالُ في بعثها لأستكمل ملامحها ورُدود فعلها المتدثرة بالهدوء والنّفاذ إلى بواطن الأمور.

ووجدتُني أتصور أنّ أسرتها استأنفت، بعد شهر من موتها حياتها المعتادة بعد أن تنفّست الصعداء. لم يَعُد هناك ما يقلق بال الأب وزوجته التي كانت تتذمّر من وجود «ف.ب» (الحمقاء).

سيستأنف أعضاءُ العائلة حياتهم اليومية وطقوس المناسبات التي تُميز الفاسيين عن البيضاويين. سيعود الأبُ، مثلاً، إلى سهرات لعبة الورق الأسبوعية مع أصحابه، ليُظهر مهارته في «الثُوتي» و«التريس»، وسيجلجل صوتُه مُنتشيًا بانتصاراته:

«بُواق أمالي بُواق، هذا هو اللعبْ وإلاَّ فلا... إيوا كيف جيتك أسيد العباس؟».

توجهتُ إلى المقهى المقابل للعمارة. طلبت شايًا وظللت أبحلقُ في تلك الفراغات التي تمتلئ قليلاً داخل ذاكرتي ثم تغضو. تمتلئ بالتدريج ثم تغضو عبر التذكر: أريد أن أحدثها عن استفاقة المشاعر في دخيلتي عندما كنتُ أتجوّل في شوارع باريس يومي ١٥ و١٧ فبراير من السنة الماضية، ما بين الثانية والخامسة بعد الظهر.

في عز الشتاء، أشرقَت شمسٌ دافئة مُرتَعِشَة، وصفَت السماء حتى كأن زُرقتها الشفَّافة بلّور يكشف عن امتدادات تصل العُلوي بالأرضي. كنت أسير منتشيًا وأنا لا أكاد أصدق تلك الروعة التي سَربلت شوارع باريس وحديقة الليكسومبورج... وكنت أطيل النظر إلى الأشجار العارية أغصانُها عُريا مطلقا وهي تمتدُّ كأصابع استطالت متدثرة بلَونها الداكن، كاشفة بين فُرجاتها عن زُرقة سماوية فاتنة. لم يكن الطقس باردا ولا دافئا، وجسدي المتحفز في خطواته يحس بنفحات قارصة تتسلَّل إلى المسام لتنعشه أكثر، فأدرك أن هذا الصحو لا يُشبه صَحو الربيع الذي يحررُ النفس من عذارها ويجعلها تتخايل أطياف حُبّ دَاهم... أسير مستسلمًا لنشوة شمس الشتاء التي طردت دكنة السماء الرمادية وأبرزت تضاريس المعمار وواجهاته

العتيقة المتلفعة بزخارف هندسية من عصور مختلفة. وكلما مررت بتمثال للرجالات اللامعين (رابليه، موليير، مونتيني، بلزاك، دانتون، روسو، هيجو...) أحسستُ كأنما استعادوا الأنفاس واندسُّوا في زحمة العابرين. أسيرُ ولا أتمنى أن تنتهي هذه الإشراقات المفاجئة التي أخرجتني من عتمة الوَسَاوس والمخاوف المتخيَّلة. لم أعُد أفكر إلاَّ في مُلاحقة هذا الضوء، ثم الانغمار في لألائه الذي يُضفي الرَّوقَ والطمأنينة... وعندما بدأ المساء ينشر أرديته، بدأت أتساءل: كيف سأمضي الليل في انتظار إشراقات أخرى محتملة؟

لعلَّني أمضيتُ عدة ساعات على المقهى منجذبًا إلى الصور والتذكُّرات تَتْثَالُ على خاطري قبل أن تتحول إلى قُصَاصة متناثرة. وعندما شملني هدوءٌ داخلي، توجَّهت إلى محطة القطار لأعود إلى الرباط.

أمضيتُ عدة أيام أسير الطيف «ف.ب» المتلون الذي أخذ يتسلَّل خلسة إلى ما تحت الجلد. غادرت ما حولي وأعرضت عن عاداتي واشتهاءاتي. تعطَّلت، لفترة، اهتماماتي. وأحسستُ حالة تتقمَّصني شبيهَ ما أحسه بطل فيلم «جناحا اليمامة» المقتبَس عن رواية لهنري جيمس، وهو يتمتم بَعدَ موت «ميلي» عبارات بهذا المعنى:

لم أعُد أُستثار إلاَّ للجسد الذي كان وَرَحَل. إغراءُ الموت لا يقاوَم مثلما أنَّ سحْرَ الحياة لا يُقاوَم، لكن قَبلَ أن نكتشف فتنةَ الزَّوال والفَوَات...».

وأنا أستعيد هذه العبارات التي علقت بذهني عند مشاهدة الفيلم، رَنَّ في ذاكرتي مُنبه يتصاعد من أعماق الطفولة: مشهد مَحفُور داخل

المسام يجعلني أرى نفسي، وأنا دون الرابعة من عمري، أحبو نحو المغسل الخشبي لألمس الجسد المسجّى، المفرط البياض، لزوجة خالي «سيد الطيب». هل حدث ذلك فعلاً؟ الذين عايشوا تلك الفترة لا يؤكدون ما حكيتُه لهم. لكن، من أين لي هذه الرؤية الواضحة كأن المشهد حدث بالأمس؟ ولماذا ذلك الافتتان بـ«ميلي» بطلة «جناحا اليمامة» وبكُلّ الجمال الآيل للأفول والزوال؟ لماذا الحرص على معايشة الموت كأنه حضور ممتد لما أوجَدُ فيه؟

في الأيام الأولى من صيف هذه السنة، أحسست ذات مساء بشَوق عاصف إلى «ف.ب» وإلى خلوتها المسعفة على البوح والتأمل. عدتُ أرددُ: رَحَلَت قبل الأوان. لكن شعورًا بنقصان كبير كان يُعَذبني ويضعني في حالة الذين تعودوا على الأفيون أو أشربة الكحول اليومية. لا أكاد أستقرُّ في مكاني. مَا أن أشرع في شيء حتى أتوقَّف لأعَاودَ التفكير في «ف.ب». وفي ذلك المساء قرّرت أن أستحضرها على غرار ما يفعله مُحَضرو الأرواح بدُون طقوسهم وتعاويذهم. وضعت سوناتات لـ«موزار» على البيانو في الجهاز القارئ واستسلمت لعملية استرجاع تفاصيل اللقاءين. اندمجتُ في التخيّل والاستحضار إلى أن تراءت لي ملامحُها مُمعنةً في البيوضة بدون أن تبدو عليها ابتسامتها المتكتمة. وخيّل إليّ، بل سمعتها تقول في نبرَة محايدة: هل نسيتني؟

أحيانا كانت دوّامة الأحداث تأخذني فأنهمك في مشاغل الساعة ورتابة اليومي. وقد تمرُّ بضعة أيام دون أن أفكر في «ف.ب» أو أستعيد ملامحها بسُهولة. هل يُعقَل أن يغيب عنّي وجهها بهذه السرعة؟ هل فعلاً جرَفَني النسيانُ فغدوت كأنني لم ألتق بها ولم

أكلمها أو بالأحرى، كأنني لم أنصت إلى حوارها الذي كنت أجدُه دَومًا صادرًا من عالم آخر؟

ووجدتُني أقول بلوعة: لا يمكن أن أنساك. أنت احتمال له كامل الحضور وله قدرة لا تُقاوم على تغيير المسار، أقصد مساري. بعد رحيلك أنا في فراغ، بدون نجية تجيد الاستماع.

(وَعَبرَ عينيَّ المغمضتين وأنا ممعنٌ في متابعة طيفها، غمرتني صورة امرأة مُركَّبة من تلك التي زرتُها في محبسها ومن ملامح تلك التي نسجتها عبر التخييل: صورة أخرى انبثقت من حَرفَي «ف.ب» في الرواية وفي الواقع، متدثرة برداء الغياب والموت الذي يعلن عن ميلاد حياة).

بعد برهة صَمتها المألوف لديَّ، قالت: أعلم أنك على وشك أن تُنهيَ كتابة نَص عَن زيارتيك لي. هل استَحصَدت زادًا للجواب؟

ـ أنت تنسين أننا ظلاَّن لكيان واحد: منك أستمدُّ اللغة، وكتابتي تمنحك الوجود.

ـ ظلاَّن؟ قرينان؟ ليس تمامًا، أنا غير أنتَ. أنا أُمثِّل في نظَرك حالة قُصوى عجزتَ عن بلوغها، لذلك لم تكف عن ملاحقتي لسبر أغواري والنفاذ إلى ما تظنه سرًّا كامنا في رحلتي غير المعتادة بالنسبة للأخريات اللائي عرفتهن.

ـ لكنني أتطلَّع إلى التمازج بك رغم الفُروق القائمة بيننا في الظاهر.

ـ أنت تحيدُ عن الصراحة التي وسمَت ضمنيا مُحاوراتنا.

فمهما تقارب الأُفقان لا يمكن أن نتناسى ذلك النشاز الناشئ الذي يخلخل تصوراتنا وأحلام يقظتنا. أقصد نشاز «ابن عريش» بالنسبة لك، و«الضاوية» بالنسبة لي. صخرتان تتحطم عليهما كل الكلمات التي تتعالى على الوجه الآخر للواقع. وأحب أن أقول لك بأن قلبي يُخبرني بأن «الضّاوية» لم تَمُت، أنت الذي قتلتها في النص الذي كتبته، لأنك أحسست أن ما حكيته خالٍ من العنف الذي يطبع جميع العلائق ومجالات الحياة. أنت مقتنع بأن الكتابة هي أيضًا لا يمكن أن تَنجُو من العنف إذ بدونه يتلاشى المعنى ويغوص النَّص في رتابة السرد والتأمُّل. لكنني لا أرى أن عنفَ النص بهذه الطريقة المختزلة التي لَجأت إليها، سيوازي عنف الواقع.

ربما لأنني أردتُ أن أخرج القارئ من الحياد الذي تُوحيه طريقة سردي لحكاية «الضاوية»، فهي أيضا مظلومة لأن...

قاطعتني بحدّة:

- هُما معًا، هي و«ابن عريش» يمتلكان عنفًا خاصا كافيًا لأن يكسر الرتابة التي تريد أن تتجنّبها. هما معًا يشخصان أخلاقًا خارجة عن دائرة التعاليم وفَلَك الموروث. مُجرد وُجود مثل سلوكهما يُقلق مَن يعتبرون أنفسهم سدَنَة المجتمع الضامنين استقراره. أنت تعرفهم، بعضهم هم من معارفك الذين يتشبثون بخطاب الإصلاح وحُرمة القوانين وقدسية الأعتاب الشريفة...

لكنني أنا أرى أن المناهضة ضرورية حتى عندما يبدو خطابهم مقنعًا، عقلانيًا؛ لأن السلطة بطبيعتها تجنح إلى تبرير ما هو قائم.

السلطة هي التّبرجُز بمعناه السيئ. الماسكون بزمامها لهم تعريفٌ

بإصلاح أحوال العباد وهم لا يتوفرون على ممارسة مُتنزِّهة عن الغَرض والشَّطط... من ثمَّ ضرورة الطرف المناهض للسلطة حتى لو افترضنا شرعيتها.

قلتُ لها محاولاً أن أغيّر مجرى الحوار:

ـ أنا لا أسعى إلى أكثر من أن أعبر عن حالة اهتزاز، حالة انفصام، طموح لم يتمّ امتلأت به النفس في عنفوان الشباب وأظن أن الكثير من ما أحاول كتابته مشروط بمساري وبعلاقتي مع مَن حولي...

ـ أنا أغبطك لأنك تتوارى خلف الكلمات. تُتقنُ التَّخفي وراء الشخصيات والمواقف لتُنطقَها بآرائك، وأحيانا تنتقل من النقيض إلى النقيض. أنت، حسب المثل الشعبي، «تَتحنّى مع كل عُرس». لكنني أنا لم تكن لي إمكانات مثل هذه لأمارس حريتي رغم القيود. تحتَّم علي أن أعتزل الناس والدنيا لأنقذ قسطاً ضئيلاً من تلك الحرية التي كنتُ أعزُّها وأنا على قيد الحياة.

تذكرتُ المواجهة التي جرت بيني وبين صديقي الأعز «عبد الموجود» الذي يكبرني ببضع سنوات وقاد خطواتي الأولى على درب المعرفة ومسرّات الحياة. كان ذلك قبل أسبوع. دخل إلى الصالون واستلقى على اللحاف صامتاً. عيناه محاطتان بالزرقة ووجهه منتفخ بعض الشيء، والنظرات كامدة.

سألني عن اختفائي المتواصل داخل البيت، فأجبت بأنني أراودُ نصّاً لا يكف عن الرَّوغان. ثم حدثته قليلاً عن «امرأة النّسيان» وعَن قصصها وتجلياتها، وعَن اليتم الذي أحسته منذ رحيلها وإصراري على ملاحقتها عبر المخيلة والاستحضار... وعندما سألته عن أحواله،

اختنق صوتُه وأحسستُ برغبته في البكاء. عاودت النظر إليه بعد قليل، فوجدت عينيه مُبحلقتين لا تعكسان سوى الفراغ. خفضت بصري وأنا في حيرة من أمره. طال السكوت وطال انتظاري. عدتُ أتمتم باسمه: عبد الموجود ما لك؟ فجأة صدرت عنه ضحكة عصبية مُجلجلة. خبط الطاولة بقوة: هل هذا عدل؟ أنا زوجتي حمقاء تكسر المواعين، تُمزّق الثياب وتصرخ كالحيوان وتحتاج إلى السلاسل، وأنت تحدثني عن بطلة روايتك التي اختارت هي بنفسها جُنونَها، لتنعزل عن الناس وتتأمل في بلادتهم من بعيد. هل تعرف أنني أمضي عدّة ليالٍ بدون أن أذوق طعمًا للنّوم؟ قُل لي ماذا أفعل أيها الروائي المتعقب لخطوات امرأة غادرت الحياة؟

أظنّ أن من حقك أن تُودِعها مستشفى للأمراض العقلية، فالشرع إلى جانبك وكذلك...

- أي شرع وأي مستشفى؟ وماذا أقول للأصهار؟ ماذا يقول ابني لعائلة خطيبته؟ هل يقول لهم إن أمه غدت حمقاء، لأنها لم ترضَ أن تُعالج اكتئاباتها العُصابية؟ هل تريدني أن أحرمه من مصاهرة عائلة لها جاه ومال؟ هو يعلق كلَّ آماله على هذا الزواج، والعلاقات بيننا متوترة من سنوات لأنه يعتقد أنني ضيعت الوقت في نضال لا يُفيد. لم تعد هناك لغة مشتركة بيني وبينه هو وأخته. أصبحنا جُزُرًا متنائية. وهذه الزوجة التي ابتلاني الله بها (أو بَلاني بها، لست أدري) لم تستطع أن تحتمل سنّ اليأس، ولم تستطع أن تفتح قلبها للأصدقاء والأقرباء. عاشت تبحث دومًا عمّن تلسعُه بلسانها أو بشرها، وأنا الآن في قبضة هذا المأزق الذي هَدَّ كياني، أنا الذي همتُ بالحرية واعتقدتُ أن مصيري بين يدي. أين هو هامش الحرية الذي كنتُ أحضُنُك، منذ

ثلاثين سنة، على التشبث به؟ ربما يوجد في الروايات التي تقرؤها أو تكتبها. كنت أردّد باستمرار أننا نستطيع أن نقطف النجوم بأصابعنا وأن نتدخّل لتغيير مَجراها في الأفلاك. لكن، أرجوك، استعرض معي شريط حياتي وقل لي أين ومتى كنتُ حرًّا بالفعل؟ لا أريد أن أثقل عليك بالتفاصيل والوقائع. تَمللت من السرد والمونطاج وتحليل الأسباب والمسببات. ما يهمني الآن هو أنني في وَرطَة: زوجة يستبدّ بها الاكتئاب فتخرج عن الطَّور وتُحيل حياتي إلى جحيم، وعندما تَفوتُ أزماتها العُصابية تعود إلى حالتها الطبيعة وكأنها لم تُكسر المواعين ولم تتلفظ بأعنف العبارات... وحماسي تبخّر فتوقفتُ عن كل نشاط بعد أن اكتشفتُ التهافت على المصالح والمواقع، وحتّى الجماع نسيتُ طَعمَه من سنوات، مُتحايلا على جسدي ونفسي لأقنعَهما بأن العيش ممكن بدون جنس ولا حب.

أين هو الحب الذي كنت أقرنُهُ بالبحث عن أنا أعلى لا يخضع للمواضعات والحسابات؟

نفسي لا تطاوعني على تنفيذ ما تقترحه عليّ: أن أُرغمها على دخول المستشفى. إنها لا تعتبر نفسها مريضة، وعندما أذكّرها بما فعلَته في لحظات انفجارها تُنكر وتتّهمني بأنني أريد أن «أجلُوها» عن البيت.

ـ مع ذلك، لا مناص من هذه الخطوة، لأنني أخشى عليك أيضا من معاشرة امرأة بلغت مثل هذه...

ـ لا أظن أن ما تقوله سيخلّصني من ورطتي. كيف أصفُ لك مشاعري؟ يُخيل إليّ أنني أشبه واحدًا نَظَر إلى الدنيا في مطلع حياته،

فتراءت له مزدهرة، ريانة، طُرقها سالكة إلى قمّة تُشرف على السهول والوديان، فأغمَض العينين وهَمَزَ المهر الجامح مندفعًا نحو القمم الخضراء. بعد عقود ومسافات طويلة، فتح عينيه على حمحَمَة حصان هرم، يتلَكأ عند جدار عالٍ، سميك. أدار عنَانَ الحصان ليبحث عن مَنفَذ آخر، فأدرك لحظتئذ أنه محبس مُحكَم الأبواب. كيف توغَل في الكمين دون أن ينتبه إلى مخاطره؟ هل كان فعلا لا يرى أم أنه تظاهر بأنه لا يرى؟

هل لك أن تتخيل كيف أمضي وقتي منذ عقد من الزمان؟ لا أريد أن أسرد عليك تفاصيل عذاباتي. إنني غَدَوتُ مثل إنسان آلي تعطل جهازه الداخلي فأصبح ينطح الجدار السميك المعترض طريقَه دون أن يستطيع تَجنبه. كل صباح ومساء أمطر ورطتي بالأسئلة بحثًا عن مخرج، فلا أسمع حتى الصدى.

هل كل الناس مثلي يَنْقَادُون للعَيش ولا ينتبهون إلى الشرنقة التي نُرَدّدُها فيما تنتصبُ حولنا أسوار وحيطان، وتُرتكبُ جرائم وانتهاكات نَلهو عنها ولا نحرك يدًا لإزاحتها؟ فجأةً نبدأ نفتح العينين ونتساءل: كيف تَخلّق كل هذا الهول المهدد لوُجودنا...».

عدتُ إلى ملاحقة طيف «ف.ب» التي غامت ملامحها قليلاً أثناء ما كنت أسترجع خَطفًا حواري مع صديقي عبد الموجود. قلتُ لها: لكن ما أقدمت عليه يصعب على الآخرين أن يفعلوا مثله.

ـ أنا لا أريد أن يَقتَدي بي أحد.

ـ لكن الآخرين، أقصد الذين ينتمي إليهم «بن عريش» و«الضّاوية»، مَن يُعَبّر عنهم؟

ـ لا أحد يعبر عن أحد. الجميع يجدون طريقهم ليعلنوا عن وجودهم بما هو عليه. أنسيت أن الحقيقة لا يُعَبَّرُ عنها مباشرة ولا تُتَرجم إلى كلمات؟ أجمل شيء تَهِبُه لنا الكتابةُ هو الإحساس بوجود ما هو حُرّ، «خارج التسعيرة»، متمَنِّع عن منطق الملكية والانتفاع.

ـ وأنا؟ أين موقعي من كل هذا؟

ـ أنت، أيها الكاتب، جالس بين مقعدين: لا تستطيع أن تُعلن انتهاء الماضي ولا أن ترسم معالم مستقبل يتَخطى ذلك الماضي. «لعبة النسيان» لم تَعُد تُجدي، ومفعولها في التَّهدئة استنفَد مداه. وها أنا «امرأة النسيان»، راحلة إلى عالم مُتعالٍ عن دنيا الناس. إلى متى ستقوى على ملاحقتي لأسعفك على النسيان؟

انقطع الصوت وتبدَّدت الملامح، والعينان المغمضتان لم تعودا ترَيان على الشاشة الداخلية سوى خطوط ونُقَط مبعثَرة.

هل أُسمِّي «ف. ب» الآن، مسافة الموت التي لا تُنهي الحيوات وإنما تُشير إلى احتمال الاستمرار في شكل آخر؟ نعم الاستمرار، وإلا لماذا في لقاءاتي بها، حية وبَعد رحيلها، أحسُّني مضطربًا، قلقًا، فيما هي مُتدثِّرة بهدوء مزلزل تفصح عنه كلماتها ونظراتها وانتماؤها المتناسق إلى عالمي الموت والحياة في آن.

وامتد الحوار بيني وبين «ف.ب» في شكل آخر: أصبحت هي الأفق الذي يكاد يلغي ما عداه. أستعيد كلماتها، أقلبها من كل الأوجه وأعيد تأويلها. أحيانًا أتحسر على أنها لم تعطني أوراقًا كتبتْها، غير أنني سرعان ما أقنع نفسي بأن من حقي وحدي أن أرث كلامها وأن أستعيده، بل وأن أنسج داخله أو على هوامشه. لا أحد يمكنه أن

يحاسبني، خصوصًا وأنه ما من حدود يمكن أن أختطها بيني وبين من كنت أحس أنها تعبر عن هواجسي بدقة تفوق ما أقدر عليه.

لكن شعورًا بالخوف تنامى بأعماقي وأنا أنهي كتابة هذه الصفحات، خوف من ماذا؟

لم أستطع تبيُّن مصدره. إلا أنني بدأت أعزوه، تدريجًا، إلى ذلك الفزع الذي أصابني وأنا أقيسُ المسافة التي تفصلني عن عالمين، أو بالأحرى عن حالتين من الوجود: بتُّ أشعر أنني لا أدرك جيدًا مسافة الموت المتوازنة التي كانت «ف. ب» تشخصها أمامي وكأنها مُنتمية في آن إلى الحياة والموت. ومصدر خوفي أنا، هو تحققي من ثبوت مسافة بين الوجود والعدم لا أستطيع أن أقفز عليها أو أن أدمجها في مسافة واحدة كما خُيل إليّ أن «ف. ب» قد فعلت.

في أحيان أخرى، يطغى الشعور بالوحدة على الخوف: وَحدة تعزلني عن كل شيء وتضعني على سكة التلاشي والزوال. هل هذا هو الجانب المخيف في الموت والذي لم أكن أخمن وطأته؟ ومن أين لي أن أفتتن بمسافة الموت المتوازنة فيما أعماقي تضج بزغاريد الحياة وبأصداء مسرتها؟ ثم من أين لي أن أهرب من تلك الأصداء التي ترج الكيان صباح مساء؟

أصداء ترتج مباغتة في الأعماق. تذكرني بمشاهد وفرجات عشتُها صاخبة جارفة، مثيرة ومُغوية. الآن تبدو متخايلة عبر العلامات، عبر إشارات صادرة، كأنما، عن موتي. ميت أنا أم حي؟ أجري وراء الكلمات. أستعيد النأمة والبسمة وضوضاء الأصوات. ألملم نُتَفَ الذاكرة. أداعبُ أرجوان العشايا نكهة الأصباح مُمتزجة بأسمار

الليالي في الأزقة والأضرحة والمغاني: فاس. القاهرة. باريس. طنجة. الرباط. وفضاءات مُدن أخرى خاصرتُها في عجالة. ما أكثر الوجوه ولحظات النشوة. ما أوسع الفضاءات وسط لَبُوسات عديدة. لكن كأنما المحبوبة واحدة حيّة - ميتة تنأى مقتربة. تطفُو على صخب الفُرجة. تبدُو غير من عرفت، رغم ذلك تظل في الأعماق ساكنة. يقول صدى صوتها:

«تبحث عن ماذا؟ عن ماضٍ يُوهِمُ أنك باقٍ؟ عن «ف.ب»؟ عن مُؤنس في وَحْشَة موت بطيء؟».

تتناءى فيما هي تقترب. يتحرك وجداني في إثرها متوسلا بحبل من مسد تضفرهُ الكلمات، مُلاحقا الأطراس المتوارية، عَلَّهُ يستعيد ملامح «امرأة النسيان».

من أجل النسيان

عندما بدأتُ كتابة نص «لعبة النسيان»، مطلع الثمانينيات، كنتُ أعيش فترة صعبة تتسم بالمرارة والحبوط وفقدان المعنى أمام تصاعد القمع ومناخ أزمنة الرصاص التي عرفها المغرب على امتداد ما يقرب من ثلاثين سنة، منذ ١٩٦٢ . كنت من قبل، لا أكتب إلا مضطرا قصصا أو مقالات نقدية أو تحليلات سياسية، لأنني كنت منخرطا في حومة الفعل، حالما بالتغيير المباشر، في اتجاه العدالة والاشتراكية والتحرر... كل الأحلام كانت تبدو دانية القطوف! لكنني بدأت أشعر بنوع من العبث والدوران في حلقة مفرغة؛ وشعرت بالحاجة إلى أن أكتب نصًا قد يسعفني على فهم ما عشتُه متسارعا، متداخلا، وأنا ألهث وراء شعارات ومُثُل تتباعد كل يوم عن دائرة الإمكان. كأنني، عبر الكتابة، كنتُ أنشد تفريغ الذاكرة والتأمل في محصول الحياة وأسئلتها التي لا تكفّ عن التناسل. امتدت الكتابة سبع سنوات تقريبا، أقتطع لحظاتها وسط المشاغل والالتزامات، وألجأ إليها وكأنها سيرورة للاستشفاء. كانت ذاكرتي ملأى، لكنها مرتبكة جراء الاكتظاظ وتراكم الأحداث والانفعالات. حينَها، واجهني سؤال: كيف نكتب الذاكرة؟

بطبيعة الحال، كانت هناك نصوص مرموقة في الأدب العالمي والعربي تقدم نماذج جيدة في مجال كتابة الذاكرة؛ إلا أنني كنت حريصا على أن أبلور شكلا وطريقة يتيحان لي أن أبرز خصوصية ذاكرتي في وصفها مصدرا للهوية والانتماء وبصْم الأثر على رمال الزمن. ساعتئذ قابلتُ لعبة النسيان التي تسمح بالانتقاء والحذف والزيادة، لأن «الحفاظ على الذاكرة يعني التأمل في النسيان» على حد تعبير هيدجر، ولأن كتابة الذاكرة لا تعني شمولية مُخْتَزناتها، بل لها شعرية تختلف عن شعرية المحاكاة الأرسطية. أن نكتب الذاكرة، هو في نهاية المطاف أن نُحول علاقتنا بالعالم إلى نص مكتوب يخصصُ علاقتنا بالأدب والبلاغة واللغة. الذاكرة الخاصة عندما تسعى إلى أن تغدوَ ذاكرة مكتوبة يكون عليها أن تجد شكلا ولغة ينقلانها من النطاق الشخصي إلى فسحة الأدب والتخييل. وأنا لا أتردد، على ضوء تجربتي، في القول بأن الأدب، عُمْقياً، هو ذاكرة مكتوبة تشبه الرحم الذي عنه تتولّد بقية مكونات النص الأدبي، أي التخييل والسرد واللغة وهوية النص الدلالية والشكلية...

كانت، إذن، تجربة كتابة «لعبة النسيان» منعطفا في فهمي للأدب والكتابة؛ لأنني أدركتُ أن الأدب ليس تفريغا للذاكرة ولا تعبيرا مباشرا عن المشاعر، ولا محاكاة لما يسمّى «الواقع». وجدتُ أن خطاب الأدب يلملم شتى المعاجم والسجلات، ويرتاد أكثر من فضاء، ويوظف المسموع والمرئيّ وما حفظته الذاكرة، وينسج عن وعي ولاوعي، علاقة المبدع بالأدب إلى جانب علاقته بالعالم والآخرين وبذاته قبل كل شيء.

عندما أنهيتُ كتابة «لعبة النسيان» سنة ١٩٨٧، لاحظتُ أن لغة الكلام المغربية حاضرة بقوة في الحوار وأحيانا في السرد، وأنها عنصر بارز في تمييز «بلاغة» النص وفضاء شخوصه. ووجدتُ أن معجم اللغة الدارجة المغربية ينتمي إلى مدن ومناطق متباينة، وإلى فترات تاريخية متباعدة... ولستُ أدري إذا ما كنتُ قد تقصدت ذلك منذ البداية، أم هي الذاكرة التي فاضتْ مطالبة بإعطاء حق الوجود لكلمات وعبارات انقرضتْ أو كادت، مع أنها تمتعت بالحياة على ألسنة أناس عاشوا في مدينة فاس خلال الثلاثينيات من القرن الماضي، أو في الرباط أو سوس... لكنني أستطيع القول بأن إقامتي في مصر، ما بين ١٩٥٥ و ١٩٦٠، قد لفتتْ نظري وسمعي إلى حضور وتأثير لغة الكلام على ألسنة الناس ثم في بعض النصوص القصصية والروائية. لغة الكلام المصرية الجميلة الإيقاع، وبتأثير من السينما والمسرح، نبهتني إلى لغة الكلام المغربية الغافية في ثنايا ذاكرتي منذ طفولتي بفاس والرباط، فأخذتُ أستعيدها بشوْق وافتتان، وأفسح لها المجال كلما تعلق الأمر بشخصيات رافقت طفولتي ومراهقتي. وربما عليّ أن أضيف أن قراءتي لتحليلات باختين عن تعدد مستويات اللغة والأصوات وارتباط الكلام بتكوين الإيديولوجيا والرأي العام، قد شجعتني أيضا على استثمار التعدد اللغوي في نسيج «بلاغة» نص النسيان الذي استفاد من تضاريس اللغات المتجاورة والمتكاملة. لم أسعَ إلى وضع حدود وتواريخ وأحقاب تُبوّبُ الذاكرة وتنظمها، لذلك جاءت بنية النص مفتوحة وأزمنتها متداخلة بين ماض وحاضر. وبين التذكّر والنسيان، تنبتُ الكلمات ويتسع البياض مطالبا بأن يعيد القارئ ملأه.

بعد مرور عشر سنوات على كتابة «لعبة النسيان»، وجدتني مُحاصرا بطيف «ف.ب» التي كانت على علاقة مع الهادي في «لعبة النسيان»، ولم تأخذ في النص سوى بضع صفحات قليلة. وجدت ف. ب تلاحقني وكأنها تطالبني بأن أنصفها بسرد تفاصيل عن حياتها في فرنسا ثم عند عودتها إلى المغرب ونهايتها المأسوية ...لكنها شخصية تنتمي أكثر إلى المخيلة وتلفيقات الذاكرة المستحضرة لأجواء هبة ١٩٦٨ في فرنسا؛ فكيف لي أن أبتعثها من نص «لعبة النسيان» لأجعلها مستقلة في وجودها ومحركة لمحكيات عاصرتها في السنوات العشر الأخيرة من القرن الماضي؟ وجدتُ القاسم المشترك بين النصيْن هي خلفية النسيان المشتركة بينهما، والتي غدتْ بمثابة صمام أمان لديّ ألجأ إليه كلما تراكمت الخيبة والمرارة، وتعذر الفهم والقبول بالأمر الواقع. عدتُ إذن، لأكتب في ظل النسيان ومن أجله، لأسائل مخزونات الذاكرة التي تجعلني أتوزع بين اليأس والجنون، بين التمرد والاستسلام.

كلما تقدم بي العمر، أصبح الموتُ عنصرا حاضرا في رحلتي الدنيوية: أقارب وأصدقاء كُثر يختفون تاركين ثقوبا لا أجد سوى النسيان ليُذرّ عليها بلسمه اللامرئي.

هكذا تمضي الأيام والسنون ونحن نكابر لكي نخفف من حدة الزمن الذي يكاد يشلُّ خطونا. ويخيل إليّ أننا غالبا ما نكتب المنسيّ غير القابل للنسيان، ذاك القابع في «الأنا العميق» والذي قد نتحاشاه في مجرى الوقت العادي، لكنه ينبثق فجأة من دهليزه المعتم ليُذكرنا بأن الجري وراء «المفقود» يقتضي استحضار التفاصيل التي واراها النسيان. لذلك نحن لا ننجز أبدا النص الذي نشتهي كتابته، ما دامت

لعبة النسيان والتذكر تطمس الحدود بين الشفوي والمكتوب، بين المتلبد في زوايا الذاكرة والقابع في غياهب النسيان. تظل الكتابة لعبة ناقصة، نستلذ نحن بالجري وراء تعاريجها حالمين بالكتابة على طِرْس يكشف لغة النسيان!

وأنا أقدم على نشر «لعبة النسيان» و«امرأة النسيان» متجاورتين في كتاب، أتساءل: هل هذه الصفحات تعادل ما عشته خلال فترة معينة من حياتي؟ يأتي الجواب سريعا بأن المسافة شاسعة بين المعيش والمكتوب، ولا سبيل إلى المقارنة بينهما. من ثم، عوّدتُ النفس على أن أعتبر «الذاكرة المكتوبة» نصا مستقلا، لا يحيل إلا على نفسه بوصفه سليل تجربة تلاشت مخلّفة بصمات تلوح كوشم في ظاهر اليد.

أفترض، في الأخير، أن كل واحد منا يغازل النسيان ويتوسله ليتمكن من متابعة الحياة واستئناف الفعل، ومواجهة اليومي المكرور... لكن الذاكرة تفاجئنا، من حين لآخر، بإشراقات مباغتة عندما تلتمع في خاطرنا لحظاتٌ مضيئة كانت قد شدّتْ وثاقنا إلى الحياة وأطمعتْنا بالمزيد من المسرات. ومن أجل تلك المسرات التي تتخايل لنا، نراهن على النسيان ونصغي إلى الذاكرة وهي تتابع دورة الامتلاء والتفريغ. من هنا، تغدو الكتابة السردية، عندي، بمثابة الحبل السُّري الذي يربطني إلى عالم موّار بالأحداث والتناقضات والمفاجآت، أرتاده لأحميَ نفسي من الصدأ والرتابة والاندثار. من أجل النسيان المُحرِّر، تغدو لعبة التذكر إشارة البدء للكتابة والمحو، على ترس الزمان.

برادة: ١٧-٦-٢٠٠٩

من أجل النسيان

«وجدت القاسم المشترك بين النصّين هي خلفية النسيان المشتركة بينهما، والتي غدت بمثابة صمام أمان لديّ ألجأ إليه كلما تراكمت الخيبة والمرارة، وتعذر الفهم والقبول بالأمر الواقع. عدت إذن لأكتب في ظل النسيان ومن أجله، لأسائل مخزونات الذاكرة التي تجعلني أنوس بين اليأس والجنون، بين التمرد والاستسلام... هكذا تمضي الأيام والسنون ونحن نكابر لكي نخفف من حدة الزمن الذي يكاد يشلّ خطونا. ويخيّل إليّ أننا غالبًا ما نكتب المنسيّ غير القابل للنسيان، ذاك القابع في «الأنا العميق» والذي قد نتحاشاه في مجرى الوقت العادي، لكنه ينبثق فجأة من دهليزه المعتم ليذكرنا بأن الجري وراء «المفقود» يقتضي استحضار التفاصيل التي واراها النسيان».

محمد برادة

ولد الكاتب والناقد المغربي الكبير محمد برادة عام ١٩٣٨، نال درجاته الجامعية من جامعات القاهرة ومحمد الخامس والسربون. صدر له خمس روايات ومجموعة قصصية بالإضافة إلى عدد من الكتب النقدية التي أسهمت في تشكيل الوعي النقدي العربي. كما قدم مجموعة من الترجمات التي تمثل إضافات هامة إلى المكتبة العربية. شغل الدكتور برادة موقع رئيس اتحاد الكتاب المغربي لثلاث دورات متتالية بين عامي ١٩٧٦ و ١٩٨٣.

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

دار الشروق
www.shorouk.com